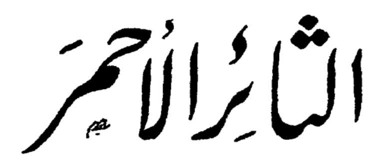

علي أحمد باكثير
الثائر الأحمر

مطبوعات مكتبة مصر



الثائر الأحمر

تأليف

علي أحمد باكثير

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ .

« قرآن كريم »

السفر الأول

١

في ضاحية من ضواحي قرية الدور ، إحدى القرى المنتشرة حول الكوفة مما يلي البطائح ، وعند الظهيرة من أحد أيام الصيف القائظة ، طفق حمدان يمسح بأطراف أصابعه العرق المتصبب من جبينه ، وهو يعمل في حقله ، وإحدى رجليه على سنة المحراث والأخرى يرفعها عن الأرض حينا ، ويلمس بها الأرض حينا ، وقد أمسك بخطام الثور الذي يسير أمامه يجر خطوه جرا ثقيلا ، والسوط في يمينه ينكت به مترفقا على ظهر صاحبه الأعجم كلما توقف عن المسير أو تثاقل فيه، وكأن لسان حاله يقول « أيها الثور الحبيب ، كلانا محكوم عليه أن يعيش في هذا الشقاء ، وهذا السوط في يميني ويعز على أن يقع على ظهرك . فلا تحوجني إلى استعماله » .

ويبلغ حمدان نهاية الشوط ، فيدير الثور ويكر بالمحراث راجعا فيتنفس الصعداء إذ تقع عينه على تلك الأخاديد التي خطها المحراث على وجه الأرض صفوفا مستقيمة مستوية ، كأنها سطور خطها قلم كاتب صناع ، وترتاح نفسه لرؤية الصنيع الذي قام به وجه يومه ذاك . وغدا يبذر فيها الحب ، ويرسل إليها قنى الماء من فروع الرافد الغربي ، فترتوي تلك الأرض العطشى ، ثم لا تلبث إلا أياما حتى يكسوها النبت ، فتصبح جنة خضراء تسر الناظرين .

ولكنه ما لبث أن شعر بالأسى يعصر قلبه فترتعش له أوصاله حين يثب به خاطره إلى يوم الحصاد ، فيتذكر أن ليس له من هذا العمل الدائب والجهد الناصب الذى يقوم به وأهل بيته طول يومهم فى لفح الهجير وتحت الشمس المحرقة ، وزلفا من ليلهم متعرضين للبرد القارس فى ذلك الجو القارى ، إلا نصيب ضئيل لا يكاد يقوم بأودهم من جشب الطعام وخشن الملابس ، ولا يضمنون به أن يمر عامهم ذاك دون أن يجوعوا يوما لا يجدون فيه حتى ذلك العيش الكفاف ، حين يلم بأحدهم ما يقعده عن العمل من مرض أو مشغلة.

على حين يذهب معظم ما ينتجه عملهم المتواصل إلى خزائن شاب قاعد عن العمل مشغول بملذاته وملاهيه فى قصوره المتعددة بالكوفة وجواسقه المنتشرة فى ضواحيها ، لا يدرى كيف ينفق ماله من كثرته ، أو كيف ينفق وقته من فراغه ، ولا يحول عليه حول حتى تضاف إلى أملاكه الواسعة أملاك جديدة يعمل فيها عشرات من أمثال حمدان وأهله ليسدوا جوعهم و ليضاعفوا ثروته أضعافا مضاعفة . ذلك هو سيدهم إبن الحطيم مالك الأرض التى يعمل فيها حمدان والأراضى الواسعة حولها التى تمتد من جهاتها الأربع أميالا وأميالا حتى لا يكاد العاملون فيها يعرف بعضهم بعضا .

إن هذا الشاب الثرى الذى قضت الأيام على حمدان أن يعمل فى أرضه فصار بذلك سيده ، والذى لم ير حمدان له وجها إلى يومه ذاك ولا يعرف عنه إلا اسمه المشهور فى تلك الأنحاء وسيرته الخليعة التى يتحدث بها أهل تلك المنطقة ويروونها فيما بينهم كما يروون أساطير الأقدمين ـ هو إنسان مثل حمدان ، قد خرج إلى هذه الدنيا من صلب آدمى مثل والده وترائب أنثى كأمه ، لا يمتاز عنه بشىء

إلا أن أباه الحسن الحطيم قد ترك له ضياعا واسعة فـي تلـك الجهـة ، فكفاه بها مشقة العمل ، وملكه رقاب عباد الله المحتـاجين إلى العمـل فيها ليقيموا به أصلابهم .

كان الحسن الحطيم ـ فيما يروى حمدان عن أبيـه ـ يملـك خمـس ضياع متفرقة فى تلك الناحية يفصل بين بعضها وبعض ضياع صغيرة لغيره من صغار الملاك والمزارعين ، كان جلهم يعمل فى أرضه بنفسـه ويستغلها لحسابه ، فجعل الحطيم يستخدم ماله وجاهه عند السـلطان فى الإطاحة بأولئك الملاك الصغار والتضييق عليهم بمختلف الوسـائل وشتى الطرق ، فحينا يدفع الأشـقياء إلى إتـلاف القنـى التـى تسـقى تلك المزارع ، وحينا يغـرى اللصـوص ليسـطوا علـى ثمـارهم ليـلا أو يفسدوا زرعها أويشعلوا النار فى سنابلها قبيل الحصاد ، وحينا يرشو عامل القرية ليوعز إلى جباته الغلاظ أن يفرضوا على أولئك المساكين خراجا أكبر مما تحتمله أرضهم ، ويشتطوا فى مطـالبتهم بذلـك حتـى يرهقوا كواهلهم ويضطروهم إلى الاستدانة ، إما مـن يهـودى القريـة بالربا ، أو من أحد تجارها على أن يستولى التاجر على غلات أرضهم أو ثمارها بالأسعار التى يقترحونها ، فما لبث أولئك المـلاك أن رهنـوا أملاكهم ، ثم ما لبثت الرهون أن غلقـت ، فيتقـدم سماسـرة الحطيـم لشرائها واحدا بعد واحد بأثمان مبخوسة ، فما هى إلا أعوام معدودة حتى اتصلت ضياع الحطيم بعضهـا ببعـض ، وصـارت تلـك الناحيـة كلها ملكا خالصا له .

وما ينس حمدان من الأشياء فلن ينسى أن والده كان أحد أولئـك الملاك الصغار الذين سقطت أملاكهم فى يد ذلك المالك الكبير ، ولو بقيت لوالده ضيعته الصغيرة لورثها عنـه ، فاسـتطاع أن يعيـش فيهـا

عيشة طيبة هو وأهله وعياله ، ويتمتعوا بثمرات عملهم وكدهم .

ولم يثبت للحطيم في ميدان الصراع على امتلاك أراضى تلك المنطقة وانتزاعها من أيدى أهلها الصغار إلا مالك كبير آخر هو أبوالهيصم ابن أبى السباع من وجهاء تلك القرية ، له مثل مال الحطيم وجاهه ونفوذه ومطامعه، وقد سلك مثل السبل التى سلكها منافسه ، وتم له من الاستيلاء على أملاك جيرانه الضعفاء قريب مما تم للحطيم ، وهكذا أصبح هذان المالكان سيدى القرية ، يتنازعان النفوذ فيها لدى ذوى السلطان من عامل القرية إلى والى الكوفة إلى الوزراء ورجال البلاط فى عاصمة الخلافة.

وقد أدى التنافس المستعر بين هذين المالكين ، ثم بين وارثيهما بعدهما ، إلى انقسام أهل القرية وماحولها إلى حزبين كبيرين يتعصب أحدهما لآل الهيصم والآخر لآل الحطيم ، وقلما يمضى يوم دون أن يتشاجر اثنان من أتباعهما ، أو يتسابا فى سوق القرية أو فى جامعها، أو فى أحد أزقتها . وقد يعظم هذا الشجار فيشمل أهل القرية جميعا ولا سيما فى الأعياد والمواسم أو الولائم الكبيرة التى يولمها أحد البيتين ، فتصبح القرية ميدان قتال بين الفريقين بالعصى والحجارة والخناجر والسيوف ، تسيل فيه الدماء ، وتنهب الحوانيت ، وتتعطل مصالح الناس يوما أويومين حتى يتمكن عامل القرية وشرطته من الحيلولة بين الفريقين ووضع الأمور فى نصابها .

و لا يقتصر هذا التخريب والخصام على سكان القرية ، بل يتعداهم إلى الفلاحين والأكارين الذين يعملون فى أرض المالكين الكبيرين ، فكثيرا ما يقع العراك بينهم فيسقط منهم صرعى كثيرون فى سبيل الشيطان إرضاء لنزوات هذين السيدين اللذين يتحكمان

فى رقابهم بامتلاكهم الأرض التى فيها يعملون .

وتلى هذه المشاجرات مقاضيات ومحاكمات وأحكام تصدر بالسجن على بعض والغرامة على بعض والجلد على آخرين ، ولكن السيدين الكبيرين اللذين كانا مصدر البلبلة كلها يبقيان بمعزل لا تمتد إليها يد القضاء . وقد يقضى أحدهما ليلته المشئومة بأحد أبهاء قصره فى قصف وشراب مع خلصان ندمائه وفيهم عامل القرية ، لا ينهيهم عما هم فيه من اللهو والمرح ما يحمله الظلام إليهم من عويل النوادب فى القرية وهى تنوح على موتاها .

وقد اكتوى حمدان بهذه النار فيمن اكتوى ، فإنه ليذكر ما أصابه وأصاب ابن عمه عبدان ذات ليلة وهما يزوران صديقا لهما من الفلاحين الذين يعملون فى أرض الهيصم ، فبينما كانا يسمران عنده إذا بنبأ سرى فى الضيعة بأن قتالا يدور فى القرية حينذاك بين أتباع سيدهم وأتباع ابن الحطيم ، وإذا عصبة من الفلاحين يقتحمون كوخ المضيف بعصيهم وفؤوسهم يريدون أن يضربوا حمدان وعبدان على الرغم من توسلات المضيف إليهم أن يكفوا عنهما لأنهما فى ضيافته، ولا يجوز الاعتداء على الضيف ، فاضطر حمدان وعبدان أن يقاتلاهم دفاعا عن أنفسهما حتى تمكنا من الهرب ، واتفق أن أصاب حمدان أحدهم بضربة فى فمه سقطت لها أسنانه فكان أن حكم عليه بدفع غرامه ثقيلة ظل يشكو عقابيلها عاما كاملا .

كان حمدان فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره قوى البنية جلدا على العمل ، بشوشا لا تكاد الابتسامة تفارق شفتيه حتى فى أحلك الساعات وأهول الخطوب . ولكنه يحمل وراء هذا الخلق الرضى ، وهذا الثغر البسام ، قلبا يضطرم بالثورة على تلك الأوضاع التى

يراها جائرة لا يجوز لبنى جلدته أن يتحملوها صـابرين ، ولا يعتبرها إلا فترة من فترات الظلـم والاضطراب لا يمكـن أن تستقيم عليها حياة الناس ، فلا ينبغى أن تستمر طويـلا . . . . كان يعتقد أن ما بناه المال والنفوذ لا يمكن أن يهدمه إلا المال والنفوذ ، فأنى له هـذان وهو لا يكاد يملك عيشة الكفاف لنفسه ولعيالـه إلا بمشقة وجهد ، وبعد أن يقدم لسيده ابن الحطيم أضعاف أضعاف ذلك من كد عامهم .

إنه ليسائل نفسه أحيانا : أحر هو أم رقيق ؟

نعم، إن ابن الحطيم لم يشتره من النخاسـين ولم يدفع ثمنا له فهو لذلك حر فى عرف الناس ، ولكن ابن الحطيم يملك ناصيته ويتحكم فى رزقه ، فيجعله بذلك كأنه من رقيقه ، بل عسى أن يكون الرقيق أحسن حالا منه وأطيب بالا إذ يشعر أن مولاه لابد أن يعنى بشأنه لئلا يخسر قيمته حين يصيبه مكروه . وليس الأجير الحر كذلك .

فما أكثر ما تخدع الأسماء !

كانت تدور هذه الخواطر وأمثالها فى رأس حمدان ، وهو يشق الأرض بمحراثه فى ذلك اليوم الشديد الحر ، فلا يعوقه ذلك شيئا عن الاجتهاد فى عمله وبلوغ الغاية فيه ، وفى جانب آخر من الحقل غير بعيد منه ، كانت شقيقتاه عالية وراجية تعملان فى تكسير الركام وتسوية التربة التى كان أخوهما قد حرثها من قبل . وكان الحديث يدور بينهما بصوت خافض ويتناول ما يطيب لهما الخوض فيه من شئون جاراتهما من نساء الفلاحين وفتياتهم ، فهذه الجارية فلانة قد خطبها فلان ولكنه عجز أخيرا عن دفع ما بقى عليه من مهرها فانتهى أمره بفسخ الخطبة ، وأخذ يطالب أباها بالجزء الذى

دفعه من المهر فلم يعطه شيئا ، مدعيا أنه قد أنفقه فى تجهيزها ، فرفع أمرهما إلى قضاء القرية . وهذه فلانة امرأة فلان قد وضعت له ثلاث توائم وإنهما لتعجبان من ذلك الرجل القمىء الضعيف المتضائل كيف استطاع أن يولدها ثلاثة فى بطن ، وتلك فلانة ابنة صديقة أمها ، قد طلقها زوجها لأنها لم تحبل بعد أن عاشت معه سبع سنوات ، ثم تبين له بعد تطليقها أنها حملت منه ، فليت شعرهما هل يراجعها بعد ما تزوج امرأة أخرى ؟

كانت الفتاتان تتحدثان وهما منهمكتان فى عملهما ، ولا تنقطع إحداهما عنه إلا ريثما تسوى ما اختل من نظام شعرها بين الفينة والفينة ، أو تصلح العصابة التى تمسكه أن يتهدل على وجهها ، أو ريثما تدير — اتقاء للشمس — المظلة التى تلبسها على رأسها من خوص النخل ، أو ترفع جيب قميصها عن صدرها الناهد وقد لصق به لصوقا شديدا من العرق فيبرز نهداها بروزا صارخا يشعرها بالخجل إذ يخيل إليها — إن حقا وإن وهما — أن قميصها على سواده قد يشف عن سواد حلمتيها .

قالت عالية لأختها ، وقد نظرت إليها فرأت على ثغرها ظل ابتسامة عابثة : «ماخطبك ياراجية ؟ ما سنح ببالك؟ ».

— أتعرفين ثمامة ذلك الفتى الداعر ؟

— نعم أعرفه ولا أظنه كما تصفين . فماباله ؟

— إنه يستحق قطع رأسه .

— ماذا فعل ؟

— تعقبنى اللعين فى ذهابى إلى القرية أمس . . . .

— نعم



ـ وعند رجوعي منها أيضا .

ـ نعم

ـ وغازلني ودعاني يا حمراء العينين ، . أرأيت إلى جرأته ووقاحته . لقد هممت أن أشدخ رأسه بالفأس التي كانت معي.

ـ هل ساءك أن وصفك بحلية استلطفها فيك ؟ إنك وحمدان قد نزعتما في لون العينين إلى الوالد رحمه اللّه ، بيد أني أخذت عن أمي لون عينيها .

ـ ولكن عيني لا تبلغان مبلغ عيني حمدان من الاحمرار .

ـ أجل ولكنهما بعد لحمراوان . لوددت لو أنهما كانتا فإني لأراهما أجمل وأملح . وماذا قال لك ثمامة بعد ؟

ـ ماذا عسى أن يقول مثل هذا الفتى الخبيث لفتاة مثلي إذا أراد أن يختلها ؟ قال لي إنه يهواني وإنه يتمنى لو أقبله بعلا لي .

ـ فماذا قلت له ؟

ـ أردت أن أصرفه عني فزعمت له أنني مخطوبه لعبدان ابن عمي .

ـ فماذا قال ؟

ـ ماصدقني بل ضحك ضحكة فاجرة وقال : « تلك أختك عالية فلا تدعى ما ليس لك ».

فأسبلت عالية جفنها فظهر واضحا جمال أهدابها السود وهي تكاد تلامس وجنتيها من طولها ، وانكفأت تقول : «ألم يقل عني شيئا غير هذا يا راجية ؟ » .

فترددت راجية قليلا ثم قالت : « لا ، لم يقل شيئا آخر » .

فرفعت عاليــة جفنيهـا فطفقـت عيناهـا تلمعـان كأنهمـا نجمـان ، وجعلت تنظر فى عينى أختها كأنها تشـك فـى صـدق مـا تقـول ثـم قالت :

ـ بحياة أمى يا راجية وحياة حمدان !

فرجعت راجية تقـول : « الحق أقـول لـك يـا أختـى إنـه أراد أن يغيظنى لما أغلظت له الرد وقطعت عليه السبيل فقـال لى : لـولا أنـى أعلم أن أختك قد خطبها ابن عمها ، فهل تظنـين أنـى أوثـرك عليهـا وهى أجمل فتاة قبل شفتيها ماء الفرات ؟ » .

قالت عالية وقد ازدادت عيناها صفاء ولمعانا : « أوقد قال ذلك؟ إنى لإخال صاحبك هذا شاعرا يا راجية ! »

قالت راجية وقد سرى فى جبينها طائف من العبوس : «أوَيروقك الشعراء بعد يا عالية ؟ أليس بحسبك عبدان ابن عمى ؟ إنه والله لخير منه ألف مرة . أما والله لو كنت مكانك لقصرت همـى عليـه ، ولمـا عنانى أن يطرينى سواه ولو كان أشعر الشعراء » .

قالت عالية وهى تبتسم : « لو لم تكونى أختى لغـرت منـك علـى عبدان ، ولخلت أن تحمسك له لم يصدر من قلب سليم قط ! »

فأجابت أختها وهى تصطنـع الابتسـام : « إنمـا نـافحت عـن ابـن عمى لما آنست أنك تعدلين به غيره ، وما قلت إلا ما ينبغـى لى أن أقـول عنه».

فنظرت إليها عالية نظرة تفيض بكثير من الحب وقليل مـن العتـب وقالت : « والله إنى لأحب عبدان ولا أعدل به أحدا غيره .

ولكنك يا أختى ما زلت حديثة السن ويغيب عنك كثير من شئون الحب ! » .

وما قطع حوار الأختين إلا صوت أمهما العجوز تناديهما من خلفهما على بعد منهما ، فألقت راجية مضربها وانطلقت لترى أمها ماذا تريد . وكانت العجوز جالسة على مصطبة كبيرة أمام كوخها ، تظللها أيكة من النخل تجرى حولها أنابيب من الماء ثم تنطلق إلى حيث تسقى صفوف النخيل المتفرقة فى أطراف المزرعة . وكان أمامها كومة من التبن وحزم من قصب الذرة الجاف وشئ من البرسيم الأخضر ، فهى تقصف من القصب عيدانا قصيرة وتضع بينها شيئا من التبن ، ثم تلف عليها حزاما من البرسيم ، تعد ذلك لغذاء الثور وغيره من الماشية التى عندهم .

ـ ماذا تريدين يا أماه ؟

ـ انطلقى إلى أخيك حمدان فقولى له قد آن أوان الغداء وارجعى أنت وأختك فساعدا أم الغيث فى إعداد الطعام .

ـ وماذا تفعل أم الغيث من الصبح ؟

ـ شغلها ولداها يا بنيتى عن كل شئ فعليكما أن تساعداها ولا تغضبا أخاكما فى امرأته .

ـ قوم ينامون فى الكوخ وقوم يعملون فى حر الشمس ! .

ـ إن شئت عنيت أنت بولديها وهى تعمل مكانك .

ـ أما الغيث فخطبه سهل ، ولكن أنى لى اللبن أرضعه لفاخته ؟

فرفعت الأم حاجبيها المتهدلين من الكبر ، ونظرت إلى ابنتها بعينين واسعتين لعلهما كل ما بقى لها على حاله من عهد الشباب بعد ما تغير كل شئ فيها وقالت فى صرامة : « إذاً فاهتمى بشأنك ودعى شؤون الآخرين » .

وانصرفت راجية لتدعو أخاها وأختها وهى تقول بلهجة لا تخلو من التبرم : « سمعا لك يا أماه . سأظل أعمل فى حر الشمس حتى تصبح عيناى بلون الدم ! » .

فابتسمت العجوز ابتسامة خفيفة وهى تشيع راجية بعينيها وطفقت تقول : « ومن يشابه أباه فما ظلم . رحم الله أباك ! ما لقبه الناس بقرمط إلا لحمرة عينيه » .

٢

أما عبدان فكان شابا فى الثالثة والعشرين ، نحيف الجسم ، دقيق الأطراف ، قضى أيام طفولته الأولى فى (قرية الدور) حيث كان أبوه تاجرا ذا حانوت صغير فى القرية ، يبيع فيه أنواع الأقمشة الرخيصة للفلاحين الذين يأتون إليها من ضواحيها وأريافها . ماتت أمه وهو صغير لم يعد التاسعة فتزوج أبوه امرأة أخرى ذات ولد من غيره . فلم تطب حياة الصبى فى المنزل لأن زوجة أبيه كانت قليلة العناية به لا تهتم إلا براحة أولادها ، فكانت تعامله معاملة الخادم ، وتكلفه القيام بأعمال مرهقة ، وتضربه كلما قصر فى أدائها ضربا مبرحا . قضى عبدان أربعة أعوام فى هذا العذاب ، وما أنقذه من ذلك إلا وفاة والده فأخذه ابن عمه حمدان ليكفله عنده بمقتضى وصية أبيه .

لم يستطب عبدان حياة الريف فى أول الأمر لاختلافها عن حياة البلد التى نشأ عليها من قبل . ولكنه ما لبث إلا قليلا حتى أخذ يألفها شيئا فشيئا إلى أن أحبها آخر الأمر ، وصار يقوم بمساعدة ابن عمه فى أعمال الفلاحة والزراعة . وكان الفضل فى ذلك يرجع إلى ما وجده عند حمدان ووالدته من البر به والعطف عليه بعد ذاك الهوان الطويل الذى لقيه من زوجة أبيه .

وقد أنس بالطفلتين الجميلتين عالية وراجية ، فكان يلعب معهما فى الحقول وعلى ضفاف القنى ، ويساعدهما فى جمع الثمار وفى تحويل مساقى الماء من حقل إلى حقل أو من شجرة إلى أخرى .

كان عبدان يكبر عالية بثلاث سنوات وتصغره راجية بسبع ، وكان يحمل لهما حب الأخ لأختيه ، وكذلك كان شعورهما نحوه .

غير أن هذه العاطفة تطورت على الأيام فأصبحت حبا قويا بينه وبين الأخت الكبرى أيده حمدان بأن عقد خطبته عليها .

« وكان والد عبدان قد ترك له شيئا من المال قام حمدان بحفظه وأحسن القيام عليه » ، فلما بلغ عبدان رشده خيره حمدان بين البقاء عنده ، والرجوع إلى القرية ليفتح له دكانا فيها برأس المال الذى ورثه عن أبيه . فاختار عبدان الثانية . وقد صادف اختياره هوى فى نفس حمدان ، إذ رأى أن حياة الفلاحين على ذلك الوضع الجائر جحيم لا تطاق ، فهو يتمنى لابن عمه حياة أهنأ وأرغد ، تنعم بها أخته معه . ومن يدرى لعل عبدان إذا نجح فى تجارته أن يمد إليه يد العون فينقذه من الوهدة التى يتردى فيها هو وأسرته .

وصح ما توقعه حمدان ، فقد أفلح عبدان فى تجارته ، وما مضى عامان منذ اشتغل بها حتى تضاعف رأس ماله وكثر عملاؤه من الفلاحين وغيرهم ، لما اشتهر به بينهم من الصدق و الأمانة وحسن المعاملة والإخلاص فى النصح ، ولما كان يقوم به حمدان من الترويج له فى أوساط جيرانه الأكارين .

وكان عبدان كثيرا ما يتعهده بالزيارة ، فيقضى ليلته ضيفا عليه ويأتى معه بهدايا من الملابس والطيب والأحذية يتحف بها خطيبته وسائر أفراد الأسرة ، فيتقبلونها منه بالشكر والامتنان . وكان فى خلال ذلك يلح على حمدان بالتعجيل بزفاف عالية إليه ، غير أن حمدان يستأنيه فى ذلك خشية أن يرزأه فى رأس ماله بنفقات العرس قبل أن يشتد ساعده ويقف على قدميه . وما كان أشد فرح عبدان إذ رضى ابن عمه أخيرا أن يتسلم منه صداق أخته ويعين له موعد الزفاف ، فأخذوا من ذلك اليوم يعدون جهاز العروس ، ويهيئون

لليلة الزفاف السعيدة . وإنهم لفى ذلك إذ جاء ثمامة ذات ليلة إلى كوخ حمدان والتمس مقابلته . فلما اختليا صرح لحمدان بأنه جاء ليخطب منه أخته راجية ، فاعتذر حمدان إليه بأن أخته ما تزال صغيرة السن ، وإنه لا يستغنى عن معاونتها له فى أعمال الحقل .

ولكن ثمامة ألح عليه فى الطلب ، وعرض عليه استعداده للانتظار عاما أو عامين حتى تبلغ السن التى يشاء حمدان فيها أن يزفها إليه . فلم يسع حمدان إلا أن يعده خيرا ، وهو ينوى أن يصرفه عن ذلك بطريقة من الطرق ، فقال له : « إننى سأؤامر الفتاة وأستشير أهل بيتى فى أمرك . فإذا قبلوا فسأبعث إليك من يخبرك » . ورضى ثمامة منه وذلك فودعه وانصرف .

وكاشف حمدان أهل بيته بما تقدم به ثمامة من الخطبة ، فقالت أمه العجوز : « إن يكن لها نصيب فيه فهيا يا حمدان لنزفهما معا فى ليلة واحدة » .

قال حمدان :« إننى لا أعرف عنه شيئا ياأماه ، فلابد أن أستقرئ عنه أولا ثم لابد قبل ذلك من رضى راجية » . فتوردت وجنتا الفتاة، وخفضت رأسها حياء ، وجعلت تبتغى وجها تلجأ إليه وتتقى به العيون ، فلما رفعت رأسها استقرت عيناها على وجه أختها عالية فوجدت على ثغرها ابتسامة ذات معنى كأنها تقول لها : « ويلك يا ماكرة ! أليس هذا الذى غضبت منه إذ دعاك حمراء العينين ؟ فماذا يمنعك الآن من رفض طلبه ؟ »

قال حمدان : « أتعرفين هذا الشاب يا راجية ؟ »

فجمعت راجية شعاع نفسها وقالت له : « لا يا أخى لست أعرفه ولكنى كثيرا ما رأيته » .

ـ أين كنت ترينه ؟

ـ كان يجمعنى به الطريق إلى القرية أو منها .

سكت حمدان قليلا وهو ينظر إليها ثم قال : « ما رأيك فيه هل تقبلينه زوجا لك ؟ » .

فسرى عن الفتاة كأنما نجت من قارعة كانت توشك أن تنزل بها، وقالت : « إن رضيت به لى يا أخى رضيت به لنفسى » .

فظهر السرور على وجه حمدان وقال لها : « بارك اللّه فيك يا أختى . سأستقرئ عنه فإن وجدته صالحا قبلت طلبه » .

أخذ حمدان يتحرى عن ثمامة ، فما طال به التحرى ، إذ سرعان ما علم عنه أن أباه كان مزارعا ميسور الحال ، حتى شب ابنه هذا فاتصل به رفقاء السوء فجروه إلى حياة اللهو والخلاعة فكان يسطو على مال أبيه ليبدده فى حانات الكوفة ومواخيرها ، فإذا فرغ ما عنده رجع إليه ليسلبه مقدارا آخر ، حتى انتهى الحال بأبيه إلى الإفلاس وبيع أرضه للهيصم . أما هو فقد صار يعيش منذ ذلك الوقت عيشة الشطار والعيارين .

عجب حمدان لما هداه إليه بحثه ، واستغرب أن يكون مثل هذا الشاب الوسيم الطلعة الجميل البزة عيارا . وحمد اللّه على أن منظره لم يخدعه عن مخبره . ولم يشأ أن يسترسل فى استقراء أحواله بعد ليعلم عنه أكثر مما علم ، فما كان فضوليا وليس فى وقته متسع للاهتمام بما لا يعنيه . فبعث إليه رسولا يخبره برفض طلبه ، فرجع الرسول يحمل إليه التهديد من ثمامة والوعيد ، فلم يعبأ به حمدان

كثيرا لثقته بقدرته على الدفاع عن نفسه ، ولعلمه أن جماعة الشطار لا يجدون عنده ما يطمعون فيه . بيد أنه كان أحيانا يجد فى نفسه شيئا من هذا الأمر فيغم قلبه وينقبض صدره .

وكان عظيما على راجية أن تصدم فى حبها الأول ، فمهما سرها أن نجت من الوقوع فى فخ هذا الصائد الماكر ، فقد عز عليها ألا تهديها بصيرتها إلى الحقيقة فى أمره أول ما وقعت عيناها عليه . وكانت تعتقد أنها صادقة الحدس جيدة التمييز ، فقد تبين لها الآن أنها لا تكاد تدرك فى هذا الشأن شيئا . . أترى ذلك لحداثة سنها بعد ؟ فما بالها إذن لا تقل عن أختها عالية نضجا واستواء ، ولا تنقص عنها بروز نهد أو رباوة كفل أوامتلاء ساق ؟

وكانت تحرص أشد الحرص على كتمان شعورها هذا عن كل أحد من أهلها ، وتبدى قلة الاكتراث لما انكشف من حقيقة هذا الخاطب العيار ، بل إنها لتتعمد أن تقع فيه بكل ما يسعفها به لسانها السليط من كلمات القدح والتحقير ، لتنفى بذلك الظنة عنها ولتوهم نفسها أنها لم تنخدع به قط ، وأنها إنما أذنت لأخيها فى قبوله إذا شاء اتكالا على أن تحرى أخيها عنه سيكشف له من أمره ما يدفعه إلى رفض طلبه.

بيد أنها لم تستطع أن تكتم حقيقة شعورها عن أختها عالية ، فهذه تعلم من سرها مايجهله الآخرون ، وتعرف أن راجية قد شغفت بهذا الشاب حبا وأنها ما تزال تحبه على رغم ما انكشف لها من أمره . وإن عالية لتتجاهل هذا السر وتتجنب الإشارة إليه من قريب أو من بعيد ، ولكن ذلك لا يزيد راجية إلا إحساسا بالهزيمة والضعة أمامها . فأخذت تتجنى عليها ، وتتعمد الإساءة إليها بأساليب مختلفة ، فلا

تقابلها عالية إلابنظرتها الساجية وابتسامتها الصامتة التى تحمل فى أطوائها مزيجا من الشفقة والسخرية وقلة الاكتراث ، فيكون فى ذلك أشد ما يؤلم راجية ويملأ صدرها غيظا ، وكثيرا ما حاولت راجية أن تخرجها من الصمت المطبق ، فتحوم بها حول هذا الموضوع لتخوض فيه ، عسى أن يزل لسانها بكلمة نابية فى حقها ، فتصب عليها شواظا من غيظها المكبوت ، تريح به صدرها ، وتجد به فرصة للدفاع عن نفسها ، ولرد اعتبارها أمام هذه المخلوقة الوحيدة التى تعرف خبيئتها . ولكن عالية لا تمكنها مما تريد ، إذ تعدل بالحديث فى لباقة ويسر إلى غير ما قصدت راجية أن توجهه إليه ، فلا تجد راجية أمامها بعد الجهد والمحاولة إلا تلك النظرة الساجية والابتسامة الصامتة .

ولم تعف راجية فى سبيل إيذاء أختها حتى عن التعرض لعبدان بالملاطفة والتحبب كلما حضر لزيارة أهلها ، وتتخذ فى ذلك أساليب تختلف باختلاف من يحضرهما عند ذاك . فطورا تبالغ فى الترحيب به حين يكون أخوها حاضرا أو امرأة أخيها ، وطورا تعانقه معانقة لأخيها حين لا يشهدهما إلا أمها وأختها ، وطورا تكسر له الطرف وتخضع له بالقول حين لا يكون بينهما إلا عالية ، تريد بهذا كله إحراج صدرها وإخراجها من هدوئها الغائظ لها ، فإذا اعترضت عليها عالية فى شئ من ذلك ولو بكلمة لينة ، هبت فى وجهها واندفعت تلومها على ماجبلت عليه من سوء الظن وتتهمها بالغيرة العمياء على خطيبها حتى من أختها التى لا تنظر إليه إلا كما تنظر إلى أخيها من أمها وأبيها ، ولما أدركت عالية ما ترمى إليه أختها

الموتورة صارت لا تعبأ بعد ذلك بهذه الهنات التي تأتيها أختها نحو عبدان ، ولا تقابلها إلا بتلك النظرة الساجية والابتسامة الصامتة .

وقد كانت راجية تنفس عبدان على أختها من قبل ، وتتمنى لو كان من نصيبها هي . إلا أنها كانت تكتم ذلك في أعماق ضميرها، ولا تجرؤ على الاعتراف به حتى أمام نفسها ، فكانت دائما تتحامى جانب عبدان إذا حضر عندهم ، إلى أن كان حادث ثمامة ، فانقلب سلوكها نحوه هذا الانقلاب المبين .

غداً تزف عالية إلى عبدان وتبقى هي وحدها أمدا طويلا في منزل الأهل تعاني من ألم الحسرة على عبدان ما تعاني . فما ضر الدهر لو لم يجعل ثمامة عيارا فلم يرفض طلبه ؟ إذاً لكان لها في زفافها إلى هذا الشاب الذي يفرع عبدان طولا ويفوقه وسامة وأناقة ، ما يعوضها عن ابن عمها الذي قضى سوء حظها أن يكون من نصيب أختها دونها .

بل ما ضر الدهر لو أخفى حقيقة ثمامة عن أخيها حتى تم زفافها إليه ؟ أواه . . . . لقد كان ذلك في الإمكان فلم يكن ! يا ليته كان إذاً لأراحها ذلك من هذا العذاب الذي هي فيه . ولا بأس بعد ذلك أن تكون زوجة عيار جميل . إن العيارين بعد لمعروفون بالشهامة والنجدة وشدة البأس والمروءة ، وإنهم ليعتدون على القوى ، وينصرون الضعيف ، يسطون على مال الغني ويعفون عن مال الفقير، وإنهم ليجيرون النساء ويغارون على الحرمات . ولئن كان بينهم من يشذ عن هذه الخلائق الكريمة ، فالشواذ في كل قوم وكل قبيل .

ويستبد بها الخيال فيصور لها أنها قد أصبحت حقا زوجة ثمامة ، تحيا معه حياة ملأى بالمغامرات والمخاطرات المثيرة ، وتنتقل معه من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد ، ويأتيها كل يوم بنصيبه من الأسلاب والغنائم فيرميه تحت قدميها لتتصرف فيه ليومها بدون حساب وبدون اهتمام لما يتمخض عنه الغد . فالغد عند هؤلاء مضمون مادام في الدنيا غني يفيض ماله عن حاجته وفقير لا يجد ما يسد به جوعته .

وإذا قعد بزوجها سبب عن عجز أو مرض أو خانه يوما حظ عاثر فلم يأت بكسب جديد فإن له من عصابته المتكافلين في السراء والضراء من يسعفونه ببعض ما لديهم ويبيحونه من ذلك ما شاء .

وها هو ذا ثمامة قد أقبل ليودعها متأهبا للخروج إلى سرية كبيرة في ليلة من ليالى الشتاء شديدة القر حالكة السواد ، وقد لاث عمامته على طريقة خاصة بجماعته ، وتقلد سلاحه وأرخى على وجهه اللثام الأسود فلا يرى إلا عيناه البراقتان ، فأخذها بين ذراعيه القويتين فضمها ضمة شديدة رسمت بباها في مثل لمح البرق صورة منه وهو يصارع من يقاومه من فرائسه ويأبى لسوء حظه الخضوع والاستسلام . ثم حسر القناع عن شفتيه الغليظتين فأهوى بهما على ثغرها حيث استقرتا لحظة ثم زحف بهما رويدا رويدا حتى أغمض بهما إحدى عينيها وهو يقول بصوت المغرم الولهان « يا حمراء العينين أحبك . . . . أحبك . . »

وها هي ذى قد طال بها انتظار أوبته من السرية فهى تتقلب على فراشها من قلق عليه ، ويخيل إليها أنها تسمع خفقا لدى الباب الخلفى فى الزقاق المهجور ، فتنهض من فراشها وتقف أمام باب

حجرتها حابسة أنفاسها تتسمع وتتصنت فإذا الوقت يمر بطيئا بطيئا دون أن تسمع لزوجها صوتا أو ترى لـه وجهـا ، فـترتد متثاقلـة نحـو فراشها فتستلقى عليه . تـرى مـاذا فعلـت الأقـدار بثمامـة ؟ فـى أى أرض هو الآن وتحت أية ناشئة من نواشئ السحاب ؟ أمعافى هو الآن يطوى الظلام بين رفقائه فرحا بنجـاح السـرية مزهـوا بمـا يحمـل مـن الغنيمة على ظهره فلا يلبث أن يقتحم عليها الباب بعد لحظـة فـيرمى الوقر بين قدميها كعادته ، فيخلع شارة العيارين ويغسـل عـن وجهـه الغبار ويرتدى قميصه الحرير الفضفاض فينقلـب زوجـا لطيفـا أنيسـا يريح جنبه معها على الفراش ويقص عليها حديـث الليلـة ، فمـا بالـه إذن أبطأ فى العودة ، وقد انقضى الليل إلا أقله وكادت نجوم السماء تغور ؟ أم خانه الليلة حظه ففتك به فاتك ممن تسـوروا داره أو نقبـوا حائطها أو هاجموا قافلته فهـو الآن قتيـل بـين الجـدران أو صريـع فـى العراء ترقبه النجوم الباقية وتحوم حوله الذئاب العاوية وقد تفرق عنه رفاقه بددا وانتشروا فى كل مهرب يبغون النجاة ؟ أم تراه أحيط به فوقع أسيرا فى أيدى الشرطة والعسس فهو الآن مكبل با لأصفاد قد ألقى به فى قعر سجن ضيق ؟ .

فـإذا وصـل بهـا التخيـل إلى هـذا الحـد اقشـعر بدنهـا وانتفضـت انتفاضة المروع . فاذا هى ما تزال عذراء فى منزل أخيها ليـس بينهـا وبين ثمامة من صلة أوسبب ، فتتنفس الصعـداء إن كـان مـا تصورتـه الساعة حقيقة باطلا كله من صنع الوهم والخيال .

٣

رجع عبدان ذات ليلة إلى بيته بعد أن صلى العشاء فى جامع القرية فأسرج بغلته وألجمها ثم ركبها وسار بها فى أزقة القرية حتى خرج من بابها الجنوبى المتهدم فوكزها بعصاه وانطلق بها فى الخلاء الواسع وهو رخى البال منشرح الصدر يشعر بخفة عجيبة حتى ليخيل إليه أن البغلة قد ركبت لها أجنحة تطير به فى الفضاء لتصل به إلى منزل الحبيبة بأسرع الأسباب . إنه سيسمر الليلة عند حمدان وسيستمتع برؤية عالية وسماع حديثها فى منزل أهلها ثم لايراها فى المرة التالية إلا عروسا تجلى عليه فى بيته .

وكان الهواء منعشا يتندى بالنسيم العليل الذى يتهادى فى ذلك الفضاء ليمسح بأذياله الناعمة الخضلة تلك الرمال المكدودة التى ظلت تتلوى من حر النهار الطويل ، وليروح بأنفاسه اللطيفة عما يكتنفها من القريات والدساكر حيث يوزع بلسمه الشافى على فلاحيها المجهدين ، ومواشيها اللاغبة ، حتى ينعم الجميع بلذة النوم الهنىء الذى جعله الله مشاعا بين الخلائق ، لا سبيل للغنى أن يحجبه دون الفقير ولا للقوى أن يغتصبه من الضعيف .

وكان بدر التمام مطلا من علياء سمائه بكل روائه وكامل ضيائه على ذلك الكون المسحور حيث استحال كل حقيقة إلى خيال ، وكل خيال إلى حقيقة ، فالرمل الأبيض الناعم قد أمسى ذرورا من الفضة تغوص حوافر البغلة فيه . وظلال الأشجار على جانبى الطريق كأنها شخوص من الجن أدركها النعاس وهى تهيم فى تلك البطاح فتمددت حيثما حلا لها من الأرض . وقد ارتفع كل حجاب وشف

كل شئ حتى أوشك عبدان أن يرى خواطره تتمثل أمامه فى صور شتى قوامها من ضوء القمر!

ويمر عبدان بين الفينة والفينة بفارس يركض به جواده ، أو فلاح يخفق على حماره . أو رفقة من الناس يمشون الهوينى مستعينين بالحديث على قطع الطريق . فما هو إلا أن يحيى أحد أولئك أو يرد تحيته حتى يلتفت وراءه فلا يكاد يرى أحدا كأنما سدل من الضياء سجف أبيض كبير ستر أولئك الناس عنه .

وعاد عبدان فتخيل السمر الذى سينعم به وشيكا على الدكة الخارجية من كوخ حمدان حيث يتجاذب معه ومع والدته العجوز وأخيه وزوجته أطراف الحديث . وجعل يزور فى نفسه ما هو قائل لعالية أول ما تستقبله عند باب الكوخ وحين يستقر به مجلسه إلى جانبها ، ولكن الحديث ذو شجون فأولى به أن يترك نفسه على سجيتها ليملى الموقف عليه ما ينبغى له أن يقول .

وتذكر عند ذلك موقف راجية ومسلكها الغريب نحوه فى الأيام الأخيرة ، فانقبض صدره قليلا ، وسرح يستعرض صورها وهى تلاطفه أو تعانقه أو تتغنج له أو تورى له فى القول ، على غير مألوف عادتها معه فى كل ذلك ، وجعل يلتمس لذلك تفسيرا يريح به صدره وينفى به سوء الظن عنها ، فأعياه بعد الجهد أن يجد من ذلك ما يريد ، ترى ماذا يدفعها إلى هذا السبيل ؟ أهيام به قد بلغ من الشدة أن خلع عنها ربقة الحياء ؟ أم كيد لأختها أملاه الحسد والبغضاء حتى جشمها كل هذا العناء ؟ ليس أمامه إلا أحد هذين التفسيرين ، ولكنه لا يستطيع أن يجزم أى هذين هو التفسير الحق ثم أخذ يسأل نفسه كيف ينبغى له أن يعاملها ؟ لقد كان يكتفى فى

ذلك بالتجاهل والإغضاء . أفيبقى على إغضائه وتجاهلـه ؟ وإلى متى هذا الحال ؟ إن الفتاة لتزداد فى جرأتها يوما بعد يوما . أفلا يزجرهـا عن ذلك ؟ أوّلا ينبه أمها إليه ؟ ولكن هل تستطيع أمها أن تصلح من حالها شيئا ، إن راجية لجارية شموس لا تبالى ما تـأتى ومـا تـدع وإنهـا لسليطة اللسان . فماذا يكون أمره لو سلقته بكلمـه نابيـة أو افـترت عليه فرمته بدائها وانسلت ؟ أفلا يخشى أن يفسد ذلك ما بينـه وبـين عالية أو يكدر الصفو بينهما على الأقل ؟

وإن عجبه من مسلك عالية لا يقل عن عجبه من مسلك راجيـة ، كيف ترى عالية كـل هـذا فـلا يثور لها عـرق مـن عـروق الغـيرة ؟ وبعض هذا كان حريا أن يزلزل قلـب غيرهـا مـن النسـاء لـو كـانت مكانها ؟ ماذا يضطرها إلى هذا السكوت ؟ أحبها الشـديد لأختهـا ؟ أم حرصهـا علـى سمعة أهلهـا أن تلوكهـا الألسـن ، أم ثقتهـا التامـة بمكانها عنده أن تحيك فيه مثل هذه الهنات ؟ أم أنها لاتبالى كثيرا أن يكون لها أولأختها ليقينها أنه لو تخلى عنها لتهـافت عليهـا كثـير مـن الخطاب كلهم يفوقه جمالا ومالا وجاها ونسبا ؟ إنه يعلم علـم اليقـين أن عالية لا تكرهه ، بل عنده من الدلائل القويـة مـا يثبـت أنهـا تحبـه وتعزه ، ولكن ما يدريه أن لا يكون ذلك الحب الذى ظهـر لـه منهـا راجعا إلى حرصها على مجاراة أهلها فيما يرون وتحقيق ما يحبون ؟ ألا يصح أن يتخذ دليلا على هذا أنه مر على خطبته لها زهاء عـامين ولا يذكر أنه سمع منها فى خلالهما كلمة حـب قـط ؟ ولكـن ذلـك كـان يرجع إلى أنها حيى صموت فضلا على أنها مدلة متثاقلة ، وإنه ليـأتى لها بالهدايا الثمينة من حلل وحلى فتقبلها منه بالشكر ويفتر ثغرها عن ابتسامة هادئة ، ولكنه لا يذكر أنها اهتزت فرحا لشئ من ذلك قط،

كما تصنع الفتيات . قد يكون هذا لأنها لا تحبه حبا صادقا ، ولكن قد يكون أيضا لأن قلبها الكبير لا تستخفه أمثال هذه الأشياء الزائلة. ومهما يكن من شئ فإن صنيع راجية هذا قد كدر الصفو الذى يشعر به فى الحاضر ، وجعله يتوقع متاعب يخشى أن تعصف بسعادته فى المستقبل .

كانت هذه الخواطر تتلاعب برأس عبدان ، إذ لاحت له أبراج الحمام التابعة لكوخ حمدان فطامن من سير البغلة وأخذ يصلح من قميصه وجبته وعمامته ، وطرد ما بقى من الوساوس فى قلبه ليلقى القوم بشوش الوجه باسم الثغر . وخفق قلبه خفوقا شديدا حين ترجل من دون الزرع النابت حول الكوخ ، وأخذ يقودها فى الممشى الموصل إليه خلال الزرع ، ورمى بطرفه إلى الكوخ فرأى الدكة الخارجية وقد دثرها ضوء القمر النافذ من خلال الغصون فراعه أنه لم يلمح حمدان ولا أحدا من أهله ينتظره كما كان متوقعا ، وأنه لما اقترب من الكوخ سمع أصواتا مختلفة يشوبها شجو كالبكاء فانقبض صدره واستعاذ باللّه من سوء ما يضمره الليل ، ووقف فنادى : حمدان حمدان . فأجابه صوت داخل الكوخ تبين أنه صوت الأم العجوز : من أنت ؟ من المنادى ؟ .

ـ أنا عبدان .

ـ مرحبا بك يا عبدان . . . افتحى له يا راجية .

وتبين عبدان فى صوتها نشيج البكاء ، فزاد اضطرابه وقلقه وأسرع فربط دابته فى المربد عن يمين الدكة .

وفتح باب الكوخ فإذا هو براجية قد وقفت وانية الحركة على غير عادتها ، ونظر إلى وجهها فى النور الخافت ، فرآها تنشج

والدموع تنهمر من عينيها ، فخطر له أول ما خطر له أن صبر عالية على أختها الرعناء قد نفد ، وأن غيظها المكتوم منها قد انفجر ، فوقعت الواقعة بين الأختين ، وصلى بنارها أهل البيت جميعا .

ـ أين أخوك حمدان يا راجية ؟

فأجابته بصوت متهدج : « ألم تعلم بما حدث يا عبدان » ؟ .

ـ ماذا حدث ؟

لم تجبه راجية بل انكفأت راجعة إلى داخل الكوخ ، فتبعها عبدان فهاله أن رأى أم حمدان وأم الغيث جالستين تبكيان ، ولم ير عالية بينهما ، فهجس بباله أن الخطب أعظم مما ظن ، فتهيب السؤال ووقف ينظر إليهما واجما ، ثم مد يده إلى العجوز فقبل يدها ، وعندئذ مسحت العجوز دمعها وقالت له : « ويحك يا عبدان . ألم تعلم ما حدث لعالية ؟».

ـ ماذا حدث لها ؟ وأين هى الآن ؟ وأين حمدان ؟ .

ـ خرجت تحتطب من العصر فلم تعد ، وبحثنا عنها فى كل مكان فلم نجد لها أثرا .

ـ هل كانت وحدها فى المحتطب؟ هل خرجت وحدها تحتطب؟.

ـ بل كانت معها أختها راجية ، ولكنها أبعدت عنها فلم ترجع إليها .

ـ كانت راجية معها إذن ؟

ـ نعم .

ـ هذا عجيب ! .

قال عبدان هذه الجملة وغرق فى بحر من الظنون تتدافعه أمواجه المتلاطمة ، فإذا ما انتهت به إلى الشط أو ما يشبه الشط وجد راجية

واقفة تبكي هناك ، وقام فـي نفسـه أنهـا تتصنـع البكـاء لتصـرف بـه العيون عن سر رهيب تعلمه هي وحدها ولا تريد أن تبوح به .

وطفق عبـدان يسـترق النظـر إلى وجـه راجيـة بارتيـاب لم يسـتطع إخفاءه حتى صاحت في وجهه محتدة . « ما بالك تنظـر هكـذا إلى ؟ أتتهمني بأن لى ضلعا فى اختفاء خطيبتك ؟ » .

فنهرتها أمها قائلة « ويلك يا راجية ماذا تقولين لعبدان » ؟ .

قالت راجية « أما رأيته يا أماه كيف ينظر إلىّ ؟ » .

فقال عبدان معتذرا « معاذ اللّه يـا ابنـة عمـى أن أتهمـك بـالكيد لأختك، وإنما تعجبت من اختفائها وكنت معها » .

ـ لقد قالت لك أمى إنها أبعدت عنى فلمـا التمسـتها لم أجـد لهـا أثرا .

ـ أما رأيت أحدا مر بكما إذ كنتما تحتطبان ؟

فسـكتت راجيـة قليـلا ثـم قـالت : « بلـى ، رأيـت كوكبـة مـن الفرسان مروا بنا منطلقين فى عرض الطريق » .

فقال لها عبدان : «أكان اختفاؤها عقب مرور أولئك الفرسان؟».

فأشارت راجية برأسها أن نعم .

ـ أما رأيت فيهم من أحد تعرفينه ؟

ـ أنى لى أن أعرفهم وهم كانوا ملثمين ؟

ـ على هيئة الشطار ؟

ـ كان بعضهم كذلك .

ـ أما ارتبت بأحدهم أن يكون ثمامة ؟

فسكتت راجية هنيهة وبدا عليها شئ من الارتباك ، ثم تطلق وجهها قليلا وهى تقول : « يخيل إلى أن ثمامة كان بينهم ولكنى لا أستطيع الجزم بذلك » .

فنظرت إليها أم الغيث متعجبة : « لولا ذكرت هذا لأخيك حمدان ليسهل عليه البحث ! » .

فظهر الغضب فى وجه راجية وقالت « ما سألنى حمدان هذا السؤال . وبعد فعرضى بى يا أم الغيث ما شاءت لك الضغينة ، ولكن لا تنسى أن عالية أختى فلا غرو أن أنسانى قلقى عليها كل شئ » .

قالت أم الغيث : « حتى ما يعين أخاك فى البحث عنها ؟ » .

فصاحت راجية قائلة : « نعم حتى ذاك . ما شأنك أنت ؟ . حسبك أن تنامى فى الظل ونحن نعمل فى حر الشمس من أجلك!» .

فقالت لها أمها : « كلا يا راجية ، إن أم الغيث لم تقل شيئا يسىء إليك ولم تقصد إلا الخير » .

وأيدها عبدان قائلا : « أجل لا ينبغى لك أن تغضبى من كل سؤال يوجه إليك » .

فقالت راجية : « وأنت أيضا يا عبدان ! » ثم طفقت تنشج بالبكاء وهى تقول : « أواه عليك يا أختى يا عالية ! ليت الذين اختطفوك اختطفونى مكانك » . وما أتمت كلمتها حتى دفنت وجهها فى حجر أمها وهى تنتحب .

وانتبه عبدان لهول الحقيقة التى نطقت بها راجية فى هذه الجملة الصريحة ، وذهب عنه التماسك الذى تصنعه لذلك الحين وهو يستنطقها ليعرف منها جلية الأمر . فدنا منها وأخذ بكتفيها يهزهما

هـزا قويـا وهـو يقـول بصـوت متهـدج : « إذن فقـد أيقنـت أنهـم اختطفوها » .

ـ نعم اختطفوها . . . لا ريب عندى أنهم اختطفوها .

ـ من هم ؟

ـ لا أدرى من هم . . . دعنى . . . . لا تهزنى هكذا .

ـ قلت إنك رأيت ثمامة بينهم !

ـ نعم رأيته بينهم . . . هو الذى اختطفهـا .... لابـد أنـه هـو... لعنة اللّه عليه ، ليته اختطفنى مكانها ، إذن لكـان ذلـك أهـون علـى نفوسكم !

ـ أما سمعتها تستغيث إذ حملوها ؟

ـ لا .

فعاد عبدان يهز كتفيها بشدة وهو يقول :« ماذا تعنين ؟ » .

ـ قلت لك لا . أمـا تفهـم معنـى لا ؟ دعنـى . . . فقـد أوجعـت كتفى... أم تريد أن أكذبك فأزعم لك أننى سمعتها تستغيث ؟

ـ أتعنين أنها استغاثت فما سمعتها أم أنها لم تستغث ألبتة ؟

ـ من أين لى أن أعلم الحقيقة ؟

ـ هل كان ثمامة يعرف عالية ؟

ـ لو لم يعرفها لما قال فيها يوما إنها أجمل فتـاة قبـل شـفتيها . . . ماء الفرات ! !

ـ هل آنست لديها شيئا من الميل إليه ؟

ـ ويلك ماذا تريد أن تقول عن أختى ؟

ـ لا شىء . . . . وإنما أريد التحرى فحسب .

ـ إنها بعد لكتوم قلما يعرف أحد ما يدور فى خلدها .

ـ بل تعرفين الحقيقة وتتعمدين إخفاءها !

فنهرته العجوز قائلة : « كفى يا عبدان ! لقد استطلت على ابنة عمك وتجاوزت حدك ! » فرفع عبدان يديه عن الفتاة ، وابتعد عنها وقد احمر وجهه خجلا مما أغضب العجوز ثم جعل يقول لها :« معذرة يا خالتي أمينة . . . لقد ركبني من هذا الأمر ما ركبني فأخرجني عن طوري وأسلمني إلى ما رأيت » .

فقالت له وهي تمسح الدمع عن عيني راجية وتواسيها : « كلنا في المصاب بعالية سواء . فعلينا أن نستشعر الصبر عسى اللّه أن يعيدها إلينا دون أن يمسها سوء » .

فقال عبدان متأثرا : «سمع اللّه لك يا خالة واستجاب دعاءك ».

واستأذن عبدان خالته في الانصراف ليبحث هو أيضا عن عالية ، فأشارت عليه بأن يبقى في المزرعة ليكون في بقائه طمأنينة لهن وتسكين لخوفهن ، حتى يعود حمدان فيرى ما يكون منه ويتفقا على القيام بما يجب . فاستصوب رأيها وقال لها إنه سيبقى خارج الكوخ على كثب منهن .

٤

وما أن خرج عبدان من الكوخ حتى قالت أمينة لابنتها : « إنك بحاجة إلى الراحة فاضطجعي يا بنيتي على فراشك » ونهضت العجوز متحاملة على نفسها ، وأخذت بيد ابنتها ـــ لتنهضها ، فأعادتها أم الغيث فقادتا راجية إلى فراشها حيث استلقت عليه .

ثم عرضت أمينة على زوج ابنها أن تأوى هى أيضا لفراشها ، فأبت وقالت لها إن ولديها قد ناما وإنها لن تدعها وحدها حتى يرجع حمدان . وعادت المرأتان إلى مجلسهما وأخذتا تتحدثان ولا مدار لحديثهما إلا عالية .

وكان صدى حديثهما يبلغ إلى سمع راجية لولا أنها كانت فى شغل عنهم بما يضطرب فى قلبها من الخواطر ، ويدور فى رأسها من الأفكار . لقد قلقت كما قلق سائر أهلها لفقد عالية ، ولكنها لا تستطيع أن تكذب نفسها ، فهى تشعر بشئ من الارتياح لغيابها لا تدرى على وجه التحديد ما سببه ، فلعله الحسد الذى تبطنه لأختها ، أو الطمع فى أن يخلو وجه عبدان لها . ولكنها لا تكاد تذكر ما قد تتعرض له أختها من ألوان السوء والابتذال على أيدى أولئك الأئمة الفجرة حتى يقشعر بدنها إشفاقا على أختها من هول ما تلقى ، ويستيقظ ضميرها فيوبخها على ما حدث ، كأن لها يدا فى حدوثه ، أو كأنما كان فى وسعها أن تحول دون وقوعه فلم تفعل . ويتعاظم شعورها بالذنب حين تذكر ما قالت فى حق أختها أمام عبدان إذ عمدت جهدها إلى تشكيكه فى براءتها ، وإيهامه بأنها استسلمت



لخاطفيها ولم تستغث لما بينها وبين ثمامة من صلة قديمة ، وهى تعلم حق العلم أنها لبريئة . أى حقد دفين دفعها إلى هذا الكيد الأثيم لأختها وهى فى موقف يرثى لها فيه أشد الناس عداوة لها وحسدا ! إنها الآن لتعجب من نفسها كيف انطلق لسانها أمام عبدان بما انطلق به دون أن تزن كلامها أو تتروى فيه ، بل دون أن تعى ما ينطوى عليه من خطر عظيم . لقد ساءها أخوها حمدان قبله ، فاكتفت بقص ما شهدت دون أن تزيد من عندها شيئا لا برهان لها عليه ، ودون أن تتعرض لذكر ثمامة ، إذ ليس فى وسعها أن تقطع بأن أولئك الفرسان هم الذين اختطفوا عالية . فكيف تغيرت شهادتها أمام عبدان فجأة ، فصار الوهم فيها ظنا وتحول الظن فيها إلى يقين ؟ أجل لقد رجح عندها الآن أن أولئك الفرسان هم الذين اختطفوا اختها ، وغلب على ظنها أن ثمامةِ كان قائدهم ،ولكنها لا تدرى لَمِ لم يغلب عليها هذا الظن عندما كان حمدان يسائلها ، ولم يستبن لها هذا الأمر إلا حينما وقف عبدان أمامها يستنطقها ، ثم ازدادت به يقينا بعد أن أفضت به إليه .

وإن موقفها من ثمامة بعد لعجيب . إنها لتحس فى أعماق نفسها برغبة خفية تود بها لوِ أن ثمامة اختطفها هى دون أختها . . وكأنها تحسد عالية على ما نزل بها من هذا المكروه اللطيف . أفما كفى عالية أن يصطفيها عبدان من دونها حتى يصطفيها ثمامة أيضا ؟ لاريب عندها أن ثمامة إنما أتى هذا الأمر انتقاما من أخيها إذ رفض خطبته إياها ؟ فما بال الأعمى يتعداها إلى أختها ؟ أكان هذا من عمل الحظ الذى لم يزل يدابرها ويحالف عالية ؟ أم كان ثمامة يعنى ما

يقول إذ قال لها يوما إنه ما كان ليلتفت إليها لو لم تكن أختها عالية قد سبقه إليها عبدان .

ثم يعود بها الفكر إلى ما نزل بأختها من المكروه فتتصور ما تعانيه الآن من القلق والحيرة والذعر ، وما ينتظرها من المصير المجهول ، فإذا عاصف من التوجع و الإشفاق والحسرة و الندم يعصف بها ويكاد يقصف أضلاعها قصفا . وتلوذ بالنعاس لعلها تجد فيه مهربا من هذه الأفكار التى تترامى بها شرقا وغربا ، وتصعد بها إلى حالق ثم تهوى بها إلى قرار سحيق » ، فإذا الأحلام المزعجة تتلقفها ، وتسلمها من رعب إلى رعب ومن هول إلى هول لا يعد بجانبه ما تلقاه فى اليقظة شيئا مذكورا .

أما عبدان فقد خرج حين خرج من الكوخ بقلب مفعم بالهم لا يكاد يعى مما دار أمامه شيئا فقد كان الخطب أعظم من كل ما يستطيع ذهنه أن يتصوره . كان قصارى ما يخشاه أن تعكر صفوه تلك الهنات التى كانت راجية تأتيها برعونتها وطيشها حين تبلغ حدها الأقصى ، فأين المحذور الهين الذى لم يقع بعد من ذاك المصاب العظيم الذى وقع الليلة من وراء كل توقع وكل حسبان ؟

أحقا خطفت عالية الحبيبة فلن يراها عروسا تهدى إليه بعد ثلاث ليال ؟ من هم أولئك السفلة الأشرار الذين لم يتورعوا عن اختطاف فتاة بريئة توشك أن تشهد ليلة عرسها التى ظلت تحلم بها طوال السنين ، فتتعزى بها عن المعيشة الضنك التى تحياها فى العمل الكادح والجهد الفادح بين لفح الهجير وقرص الزمهرير ؟

إنه قد سمع كما سمع الناس بأنباء ذلك الثائر فى سباخ البصرة وجماعته من الزنج الذين استنفرهم فوثبوا على أموال الناس

واستصفوا أملاكهم وسبوا نساءهم وأتوا من الفظائع والفضائح ما تقشعر لهوله الأبدان وتنخلع له القلوب . فكان هو وحمدان يحمدان الله على أن كان أهلهما بمنجى منهم ، مهما ضاقت بهم المعيشة وعضهم الجوع والحرمان ، واشتد عليهم ظلم المالك وقسوة الجباة وجور الولاة . فكل خطب يهون ما صينت الأعراض وسلمت حرمات البيوت . وهاهو ذا البيت المصون قد انتهكت حرمته الليلة واجترأ المجرمون فى هذه المنطقة الآمنة أن يختطفوا فتاة عذراء من دائرة حبها بين سمع أهلها وبصرهم ، فينطلقوا بها إلى حيث لا يعلم إلا الله ماذا هم بها فاعلون . أفهذه طلائع صاحب الزنج قد بدأت تنقض من أطراف هذه المنطقة ؟ فما بالها تصدف عن قصور الأغنياء ولا تنقض إلا على أكواخ المعدمين ؟ أين هم من قصور الهيصم وابن الحطيم وأشباههما فى قرية الدور وفى الكوفة وجواسقهم المنتشرة فى الضواحى والأرباض ، بما ضمت من أموال ومتاع وحور حسان وجوار وقيان ؟

أفصفحوا عن كل ما هنالك ليغيروا على أخت فلاح مسكين كحمدان يوشك أن يزفها إلى ابن عم لها مسكين كعبدان ؟ .

كلا ، إن أولئك الزنج ، مهما قيل عن توحشهم وتهورهم ،لألب وأكيس من أن يأتوا مثل هذا . وإن أنباءهم لحرية أن تسبقهم إلى هذه البقاع بالرعب والهلع لو تقدموا إليها مغيرين . وإن جنود الدولة على الحدود لواقفة لهم بالمرصاد لا يمكن أن تغفل عن حركاتهم أو تنام . وإن آخر ما تنوقل من أخبارهم أن الموافق أخا الخليفة قد حشد لهم جموعا هائلة كسرت من شرتهم . وحدث من

نشاطهم وحصرت مجال حركاتهم ، فأنى لهم أن ينفذوا إلى هذه البقاع وبينهم وبينها مسيرة شهر ؟

فمن هم أولئك السفلة الأشرار الذين اختطفوا عالية ؟ هذه راجية - وأواه من راجية ! - تقول إنها شهدتهم كوكبة من الفرسان الملثمين مروا بها في عرض الطريق ، وإنها افتقدت أختها عقب مرورهم ، فإن يكونوا من جماعة العيارين كما تزعم راجية فما لهم ولعالية ؟ إن الشطار - ماعهد الناس - لا يصيبون إلا ذوى الغنى والطول ليسلبوا بعض ما احتجنوا من أموالهم . وإذا اختطفوا نساء هؤلاء أو أولادهم - وقلما يفعلون ذلك - فلكى يتخذوهم رهائن تبقى عندهم فى عز وصون حتى يفتديها أهلها بالمال . فهل خطفوا أخت حمدان ظنا منهم أنه من كبار الأغنياء ؟ هذا لا يعقل ألبته فإن هؤلاء الشطار لأعرف الناس بأحوال القاطنين فى منطقتهم . بل إنهم ليكادون أن يحصوا ثروات الأغنياء وكم يملك فلان منهم وماذا يملك فلان . فهل فعلوا ذلك انتقاما من حمدان ؟ ولكن ماذا بين حمدان وبينهم ؟ حمدان لمن أشد الناس عطفا على هذه الطائفة من الناس ، طالما ذكرها بخير وطالما التمس لها المعاذير كلما ضاق صدره بمظالم الأغنياء وكبار الملاك وشدة وطأتهم على المساكين والفقراء من الفلاحين والأجراء .

ما باله نسى ثمامة ؟ إن راجية تقول إنها لمحته بين أولئك الفرسان الملثمين . أفلا يجوز أن يكون ثمامة هو السبب ؟ ألم يقل له حمدان ذات يوم إن ثمامة توعده لما رفض تزويجه لراجية ؟ ومن هم الذين كانوا معه ؟ أهم من جماعة الشطار التى ينتسب إليها ؟ إذن فكيف

رضى رئيسها أن يسخر جماعته لقضاء شهوة دنيئة كهـذه قامت فى نفس ثمامة ؟ لعله زعم لهم أن أخت حمدان ترغب فى الزواج به وأن أخاها أعضلها عنه فجاءوا معه لإنقاذ هذه الفتاة المظلومة ؟

ولكن فيم خطف ثمامة عالية ولم يخطف راجية ؟ لعله قصد راجية فأخطأها وأصاب عالية . فماذا هو صانع بها حين يدرك خطاه ؟ أيبنى بها مكان أختها فهى أجمل منها يتخذها رهينة عنده حتى يزوجه حمدان من راجية ؟ كانت هذه الأفكار تهدر فى رأس عبدان وهو يجوس خلال المزرعة حيثما تنقله قدماه دون قصد معلوم : وقد تصطدم رجله بجذع نخلة منقعرة ، أو يضرب فى وجهه غصن شجرة، أو تغوص قدمه فى تربة موحلة ، فلا يصده شىء من ذلك عن المضى فى جولاته لأنه لا يدرى ماذا يأتى وماذا يدع . وكان النسيم عليلا يوسوس بين الغصون كما كان عندما خرج من قريته على بغلته ولكنه يحس له الآن قشعريرة تسرى فى ظهره ، وكأن حفيفه أنين خفى مازالت تردده الثواكل حتى بحت به حناجرها . وهذا القمر مازال مشرقا فى سمائه يرسل خيوطه الفضية على ما حوله من فضاء وشجر. ولكن عبدان لا يرتاح لنوره الساطع فيلوذ منه بأكناف الشجر وظلال الأيك . ودار فى جولاته حتى اقترب من المربد فرأى بغلته حيث ربطها هناك لم تتحلحل من مكانها، وتأمل وجهها فى ضوء القمر فلم يتغير من ملامحه شىء . وكل ما يشغلها ذباب أو قراد يقع على عنقها أو فى مراق بطنها أو على كفلها فتهز رأسها أو تنفض عرفها أو تضرب بإحدى قوائمها أو تخبط بذنبها لتذبه عنها . فلو تخلصت من أذاه لما همها بعد ذلك شىء .

وانتقل طرفه إلى باب الكوخ فتصور — وملء فؤاده الحسرة — كيف خرجت عالية منه عصر اليوم ثم لم تعد . والله يعلم وحده هل تعود ومتى تعود ؟ وتذكر كيف فتحت له راجية آنفا فوقفت له على هذه العتبة والدمع على خديها يسيل . وكانت وقفتها تلك نذير سوء . فأشاح بوجهه عن الباب ، إذ خيل إليه أن راجية ما برحت واقفة هناك لتكون أول من يبشره بالمصاب الأليم .

وطفق يعيد الحوار الذى دار بينه وبينها الليلة ، فإذا هم ثقيل يهبط كالصخرة على صدره حتى يكاد يسد مخرج أنفاسه . وتمثل فى ضميره ثمامة حينئذ وهو يحمل عالية بين ذراعيه فيثب بها على ظهر جواده فينطلق بها بين فرسانه الملثمين ، وهى لاتصيح ولا تستغيث . لعل المباغتة أعجلتها عن الاستغاثة ، أو لعل الدهشة عقلت لسانها... لعلها . . . ألم تقل راجية إن ثمامة يعرفها ويطرى جمالها ؟ فماذا يمنعها أن تعجب به وتميل إليه ؟ إنها فيما تقول راجية لكتوم قلما يعرف أحد مايدور فى خلدها . فأى شيء كان يدور فى ذاك الخلد ؟ .

لطالما رابه منها ذلك الزهد العجيب فيما يحمله إليها من الهدايا وقلة الاكتراث لما تعلنه لها أختها من التحبب والملاطفة على مرأى منها ومسمع . أفكان ذلك من جراء هذا السر الذى كانت تحمله تلك الكتوم ؟ ومن يدرى لعل راجية ما بدأت تتحبب إليه على ذلك الوجه السافر إلا حينما ألمت بطرف من سر أختها، فأيقنت أن أختها لن تعترض عليها أو تثور . بل من يدرى لعل ثمامة الفاجر ما طلب يد راجية إلا ليجمعه بالتى يهواها وتهواه سبب من الأسباب . أين أنت الآن يا حمدان ؟ كأنى بك تبحث عن أختك الضائعة فى كل مكان .

آه لو تعلم لأرحت نفسك من عناء لا غناء فيه . وتركت الضائعة وشأنها . فقد وجدها من هو أولى بها منك ومن هذا الأحمق المأفون الذى يدعونه عبدان ! كلا لا تتركها تعبث بشرف بيتنا وتدنسه بالعار دون أن تلقى الجزاء الذى تستحقه . امض يا حمدان فى البحث عنها حتى تجدها . . إنها عند ثمامة . . ويل لها منى . . ويل لثمامة مني .

وما وصل عبدان إلى هذا الحد حتى خارت قواه وشعر بالأرض من حولة تدور وكان قد بلغ فى جولاته إلى حيث تقوم صفوف النخل على غلوة سهم من الكوخ فاعتمد بيديه على جذع نخلة . ولبث كذلك هنيهة. ثم تخاذلت ساقاه فأسلمتاه إلى حيث ارتمى متمددا على الأرض وقد غاب عن وعيه كل شيء . وطال انتظار حمدان على أمه وزوجه وافتقدتا حس عبدان فاستوحشتا وقلقتا . فقامت أم الغيث لتتفقده وتدعوه ليؤنسها فى الكوخ . ففتحت الباب وطفقت تجيل بصرها فى أرجاء المزرعة فلم تر له أثرا . فجعلت تناديه يا عبدان . يا عبدان فلا يجيبها إلا صدى صوتها . فشعرت بخوف شديد جعلها توصد الباب مسرعة وتغلقه بالمزلاج وعادت إلى مجلسها مع أم حمدان حيث باتتا ساهرتين فى قلق وخوف.

ورجع حمدان عند منتصف الليل وقد نهكه الجهد وأمضه الحزن فنزل عن ظهر حماره عند مدخل المزرعة . وكان قد طاف بجميع الضياع والمزارع المجاورة وسأل أهلها عن أخته فلم يجد عنها من خبر. وسأل الذاهبين والرائحين فى تلك الطرق والدروب هل بصروا

في طريقهم بفتاة بيضاء تلبس السواد وجعل ينعتهـا جهـده لهـم فلـم يجد عند أحد منهم جوابا يشفيه . وكـان فـي نيتـه أن يواصـل السـير والبحث فيما وراء تلك الأمكنة التي وصل إليها ، لولا أنه خشي أن يقلق أهله عليه إذا طال بهم انتظاره أوأن يمسهم مكروه في غيبته فآثر أن يعود إليهم ليستأنف بحثه من الغد . وإنه ليقـود حمـاره ناحيـة الكوخ وكلاهما ثقيل الخطـو يـترنح مـن الإعيـاء إذ نظـر حمـدان إلى حيث تقوم صفوف النخـل عـن يمينـه ، فبصـر بينهـا بسـواد شـخص ممدود على الأرض لم يستطع أن يتبينه على البعد أذكر هـو أم أنثـى ، فهفا قلبه وذهب به الظن مذاهب شتى ، ودب فيـه النشـاط فأرسـل لجام حماره وانطلق يعدو حتى دنا من الشخص فراعـه أن يجـد عبـدان مستلقيا على ظهره في تلـك البقعـة . فجثـا عليـه ووضـع يـده علـى جبهته فوجدها محمومـة تنـدى بـالعرق الـلزج . فلبـث برهـة يحركـه ويهزه حتى أفاق من غشيته . فأنهضه ومشى يقوده صوب الكوخ .

وكان في عزم حمدان لكي يدخل علـى أهلـه شـيئا مـن الطمأنينـة فيأووا إلى مضاجعهم تلك الليلة أن يزعم لهم أنه اهتدى إلى مقر عالية وأن لا بأس عليها هناك ، وأنه لولا خشيته أن يقلقـوا لتـأخره بـالليل لركب إليها فعاد بها معه ، ولكنه لما حدثه عبدان عما سمع من راجية من احتمال أن يكون ثمامة بين أولئك الفرسـان الملثمين الذيـن مـروا بها في المحتطب ، فـاختفت عاليـة علـى أثـر مرورهـم ، لم يسـتطع أن يصبر عن استنطاق أخته الصغرى إلى الغد . وكانت راجية قـد هبـت من فراشها عند قدوم حمدان لتشوقها إلى سماع مـا أسـفر عنـه بحثـه ، فجلس الجميع يستمعون إلى حمدان وهو يقص عليهم بعـض مـا كـان

منه ، ثم طفق يسأل راجية أسئلة مختلفة عن الفرسان الملثمين وهيئتهم وكيف عرفت ثمامة بينهم ، وعاتبها على أن لم تذكر له ثمامة من قبل، فا عتذرت إليه بأنها ما عن لها هذا الخاطر وتوضح لها إلا بعد لأى ، حينما حضر عبدان وأخذ يستعلمها عن الحادث .

وتشقق الحديث وتجاذبوا أطرافه بين إعادة لقص ما حدث وتوقع لما يحدث واقتراح لما ينبغى أن يعمل ، تتخلل ذلك كله ذكريات مؤثرة ، يتبادلون حديثها عن عالية ، فتفيض عيونهم بالدمع ، ماخلا عينى حمدان الحمراوين ، فليس للبكاء إليهما من سبيل!

وهكذا قضى أهل الكوخ ليلة نابغية لم يغمض لهم جفن .

٥

مضى أسبوع منذ اختفت عالية لم يهدأ لحمدان جنب ولم يقر له قرار. وقد شغله هذا الخطب عن كل شئ . فترك عمله فى المزرعة لاثنين من الأجراء يتناوبان القيام به . ولم يدع سبيلاً من سبل البحث عن أخته الضائعة إلا سلكه ، فقد اتصل بعامل قرية الدور فأعلنه بالحادث ليوعز إلى الشرطة بالبحث عنها وأعطاه كل ما عنده من بيان وتفصيل .

وبدا له أن يزور سيده ابن الحطيم ليشكو له ذات أمره ويستعين بجاهه ونفوذه ليحث عامل القرية ورئيس شرطتها على الاهتمام بالحادث . ولم يسبق لحمدان أن زار قصر ابن الحطيم أو رأى له وجها. إذ كان يزهد فى ذلك ويعد السعى إليه ضربا من ضروب التزلف يربأ بنفسه عنه ، حتى إنه كان يتخلف عن الولائم العامة التى يقيمها المالك الكبير فى مواسم خاصة يدعو إليها الجمع الغفير من الفلاحين الذين يعملون فى أرضه الواسعة .

واستأذن عليه فى القصر الكبير الواقع فى الطرف الشمالى من القرية ، فقابله قيم القصر وأخبره أن سيده فى قصره بالكوفة منذ أسبوع ولا يدرى أحد متى يعود ، ثم ساله ماذا يريد منه ، فحكى له حمدان قصة أخته ، وما يلتمس من العون عند سيده ، فتلطف معه القيم فى الحديث وأخذ يواسيه ووعده بأنه سيبلغ رسالته إلى سيده حين يقدم من المدينة . ولكن حمدان قال له إن الخطب لا يحتمل التأجيل ، وإنه عازم على السفر إلى الكوفة ليقابل ابن الحطيم هناك . فجعل القيم يثبطه عن عزمه ويقول إنه لا حاجة به إلى تجشم عناء

السفر ففى استطاعته هو أن يقوم مقام سيده فى هذا السبيل ، فرضى حمدان منه ذلك وشكره وانصرف .

ولم يتكل حمدان على هذا المسعى الذى قام به عند عامل القرية أو عند ابن الحطيم لعلمه أن ذلك قليل الغناء . فماذا يعنى ابن الحطيم المشغول بمجالس لهوه وشرابه بين ندمائه وقيانه ، متنقلا من قصر إلى قصر ومن جوسق إلى جوسق ، من ضياع فلاحة حقيرة تعمل فى بعض أرضه ؟ وأما عامل القرية أو رئيس الشرطة فماذا يحمله على بذل أقصى جهده فى أمر لا مغنم له من ورائه ؟ .

إن عليه أن لا يعتمد فى البحث عن أخته الضائعة إلاعلى نفسه . وإن سبيل الاهتداء إليها لصعب فى هذا الظلام الدامس الذى يحيط بمعالم القضية . بيد أنه لا يعدم بصيصا من النور يشع فى جوانبه فيكشف له عن سواد ثمامة يظهر له ويختفى من بعيد. فليقص أثر ثمامة ، وليقتحم إليه كل عقبة وليركب إليه كل مركب وعر فإنه متى اهتدى إليه فقد وجد السبيل إلى الضاله .

وكان عبدان حريا أن يكون عونا له فى هذا الوجه . ولكن عبدان مازال عليلا منذ تلك الليلة تنتابه الحمى وتعروه البرداء . وكان حزنه الممض لفقد عالية عونا للعلة عليه يزيد فى شدتها ويطيل من أمدها . وقد أراد أن ينتقل إلى دار بالقرية ولكن حمدان أبى عليه ذلك ، وألزمه أن يبقى فى كوخه ليعنى به أهله حتى يبرأ من علته.

وكان حمدان قد تحرى قليلا عن ثمامة فيما مضى حينما تقدم ثمامة يخطب أخته راجية ، فعرف عن سيرته ما دفعه إلى رفض خطبته ، فكان يسيرا عليه الآن أن يستأنف التحرى عنه بالرجوع إلى أولئك الأشخاص الذين سألهم عنه من قبل ، وأشخاص آخرين من أهل

القرية التـي نشـأ فيهـا ثمامـة! واسـتطاع بعـد لأى أن يعـرف عصابـة العيارين التى انضم إليهـا ثمامـة ويعـرف اسـم رئيسـها الشـيخ سـلام الشواف .وكان قد سمع من قبل بهذا الرجل الذى طالما ألقى الرعـب فى قلوب الناس بجرأته وشدة بأسه وكثرة مغامراته فـى السـطو علـى الأمـوال ونهـب القوافـل وتسـور القصـور العاليـة ونقـب حوانيـت التجار. كانت له فى ذلك تدابير محكمة وخطـط عجيبـة أعيـا أمرهـا رجال الشـرطة والعسـس ، حتـى ذهـب كثير منهـم صرعـى بطشـه وحيله .فكانوا يتقون جانبه ويتفادون من لقائه .

وكان على ذيوع صيته قلما رآه أحد رأى العين أو عرف له مقـرا ثابتا ، وإن كـان النـاس يتحدثـون عنـه أنـه يغشـى الأسـواق ويحضـر الصلوات فى المسـاجد ويشـهد المواكـب فـى أزيـاء مختلفـة وهيئـات شتى، حتى قيل إنه قد يندس فى مجامع النساء متخذا زى امرأة.

اغتم حمدان لما علم أن ثمامة من عصابة هذا الشيخ وتضـاءل أملـه فى سهولة الاهتداء إليه بله اسـترداد أختـه منـه . فرجـع إلى كوخـه كسيرا حسـيرا يكـاد ينفـض يـده مـن الوصـول إلى مطلبـه مـن هـذا السبيل، وتعلق أمله بعامل القرية ورئيس الشرطة من جديد عسى أن يأتيه الفرج من قبلهما ، فجعل يتردد عليهما مرة بعـد مـرة فيخبرانـه بأن الشرطة مجتهدون فى البحث عـن ضالتـه وأن عليـه الصبر حتـى يهتدوا إليها .

وبلغه ذات يوم أن ابن الحطيم فى القرية فخـف إليهـا وانطلـق إلى قصره الكبير ليقابله ، فلما استأذن عليه برز له قيم القصـر وقـال لـه إن سيده متعب لا يريدا أن يقـابل أحـدا ، فلمـا ألح عليـه فـى طلـب مقابلته نهره القيم وتأفف منه وقال له إنـه قـد أوصـى العـامل بالاهتمـام

بأمر أخته الضائعة، قائما فى ذلك مقام سيده ولا يستطيع أن يصنع بعد هذا شيئا .

فكظم حمدان غيظه وقال له : « لعل سيدى ابن الحطيم إذا سمع بقصتى يستطيع بجاهه أن يصنع لنا شيئا، وإن لنا لحقا عليه فنحن من خدام أرضه » . فضحك القيم ضحكة ساخرة ثم قال : « إن لكم حقا عليه أن لا يطردكم من أرضه ما قمتم باصلاحها واستثمارها وتأدية حقه فيها إليه وحسبكم ذلك الفضل منه . وليس عليه أن يحرس لكم أخواتكم وأمهاتكم أن يختطفهن اللصوص ، ولا يستنقذهن لكم من أيديهم ! »

فقال حمدان محتدا « لا حق لك أن تسخر بى فى قصر سيدى . إنى ما أطلب منه إلا أن يوصى العامل بالاهتمام بقضيتى وخلاه ذم».

فقال القيم : « هو اليوم متعب لا يقابل أحدا » .

ــ فسأجئ له غدا .

ــ غدا سيعود إلى الكوفة .

ــ فاليوم إذن .

فقال القيم : «ما أبلد الفلاحين ! أما تستطيع ويلك أن تفهم ما أقول؟»

فنفد صبر حمدان ونظر إليه بعينيه الحمراوين وقد زاد احمرارهما فكأنهما جمرتان تتلظيان . ثم قال له بصوت أجش لا أثر للضعف والاستكانة فيه : « لولا بلادة هؤلاء الفلاحين لما استطاع مثلك أن يستمتع دونهم بثمرات كدهم فيقيم فى مثل هذا القصر متقلبا فى أعطاف النعيم ، وهم يكدحون طول نهارهم فى الشمس ويبيتون فى الأكواخ من جوع يتضورون » .

ـ هذا ما يقوله صاحب الزنج لأصحابه العبيد .

ـ إن يكن هذا ما يقوله ذلك الرجل فلم يقل إلا صوابا .

ـ حذار أن يعرف عنك التشيع لمذهبه فيمسك الأذى من السلطان .

ـ مالى ولصاحب الزنج ؟ لا أعرفه ولا أعرف مذهبه . ولكنى أقول الحق ولا أخشى فى الحق أحدا .

ـ خير لك أن تنصرف الآن بعافيتك وتضع الخوض فيما لا يعنيك.

فانتفض حمدان غضبا وصاح قائلا : « ولكن هذا يعنينى ! » .

ـ هل أردت أن تقابل السيد لتقول له مثل هذا ويحك ؟

ـ إننى أعرف ما ينبغى أن أقول له ، وليس من حقك وأنت خادم مثلى أن تمنعنى من مقابلته .

وخشى القيم من بوادر هذا الأكار الذى تقدح عيناه شررا ، فقال له بلهجة لينة :

ـ صدقت ليس ذلك من حقى ، إنى ما منعتك مما تريد وإنما أطيع أمر السيد .

ـ إنك لم تعلمه بمجيئى .

ـ لأنى أعرف أنه متعب .

ـ عجبا ! هل جئت لأكلفه أن يحرث الأرض مكانى ؟ أما يقدر أن يرانى بعينيه ؟

ـ سأبلغه اليوم حاجتك فيحقق ما تريد .

ـ فبلغه الآن رغبتى فى مقابلته . قل له إنى هنا ولا أريم مكانى حتى أراه .

ولم يسع القيم حين رأى من تصميم حمدان ما راعه ، إلا أن يتوجه إلى داخل القصر وهو يقول : « انتظر قليلا ، سأفعل ما تحب» .

وانتظر حمدان في حجرة الاستئذان الخارجية وهو يرى سور القصر وسدته الحديد عن يمينه والباب المؤدى إلى داخل القصر عن يساره ، فوقف يتأمل النقوش البديعة على جدران الحجرة محلاة بماء الذهب ، والزخارف الدقيقة على الباب المنجور من الأبنوس الفاخر المطعم بالعاج الثمين . ترى كم بدرة من الذهب أنفق على هذه التصاوير والتخاطيط التى لا تكسو من عرى ولا تشبع من جوع ؟

وهذه البسط الثمينة التى تطؤها نعلاه الزبتان ما أحوجه وأحوج أمثاله إلى قطعة منها ليفرشها لضيوفه في الولائم والأعياد . فإن كان هذا كله في حجرة الاستئذان الخارجية فكيف يكون داخل القصر وكيف تكون غرفه العليا وماذا يوجد فيها من زينة ومتاع ؟

هذا كله لابن الحطيم الذى ما حمل قط فى حياته فأسا ولا وقف بقدمه على سنة محراث ولا يعرف كيف يؤبر النخل أو يبذر الحب أو يسقى الزرع ، ثم يقال إنه متعب لا يقدر أن يقابل أجدا .وهنا اختلجت بسمة وانية حول شفتيه الغليظتين سرعان ما وأدها بينهما إذ ذكر أن ابن الحطيم قد يقبل فى تلك اللحظة فيراها ويرى من ورائها ما يجول فى صدره . ثم عاد فشك هل يخرج له ابن الحطيم إلى حيث هو أم يأمر فيدخلونه إليه . ثم تذكر أنه ما رأى ابن الحطيم من قبل قط فهو لا يعرفه إذا راه وإنه ليخشى حين يدخل عليه أن يكون معه بعض رجال حاشيته فلا يميزه من بينهم .

وسمع خفق النعال من الداخل فأصلح من هيئته وتوقع أن يظهر له ابن الحطيم أو قيم القصر ليوصله إليه . فما راعه إلا أن برز له رجل

ما رأى في حياته مثله ضخامة وطولا حتى ليكاد الباب الكبير يضيق دون ولوجه . وكان أسود اللون كريه المنظر ، له عينان صغيرتان يؤودهما جفنان ثقيلان ، كأنه نعسان يريد أن ينام . واضطرب حمدان قليلا لرؤيته ولعبت بباله خواطر شتى ولكنه تماسك وتجلد ليرى ما يكون من أمر هذا الهولة . وقد أدرك من هيئته وملابسه أنه أحد خدام القصر ، ولعله الحاجب الخاص لابن الحطيم وقد جاء ليأذن له في الدخول عليه .

وقف الرجل هنيهة يرنو إليه بعينيه الصغيرتين وهو يحرك مشفريه الغليظين كالذى يتلمظ لرؤية الطعام الشهى . وانتظر حمدان أن يبدأه بالتحية أو بالقول ، ولكنه بقى صامتا ثم مشى متثاقلا نحو حمدان حتى دنا منه ــ وحمدان لا يدرى ما يصنع ــ فقبض بيديه الضخمتين على معصمى حمدان فكأنما طوقهما بقيد غليظ . فصاح حمدان قائلا : «ماذا تريد أن تصنع بى يا هذا ؟ »

فلم يقل الرجل له شيئا وإنما جره نحو سدة السور . فأدرك حمدان أن ابن الحطيم أو قيم القصر قد بعث هذا المارد ليطرده من القصر . فثار به الغيظ فدفع بإحدى رجليه فى فخذ المارد فظهر الغضب فى وجهه وشدد قبضته حتى أحس حمدان أن عظام معصمه قد رضت . ورأى أن المقاومة لا تغنى ، فأسلس له القياد ومشى معه فى ممر الحديقة التى تفصل بين السور والقصر ، فرأى الورود والرياحين متفتحة فى ضوء الشمس وكأنها تبتسم شماتة به . والتفت خلفه ــ وهو يسير أمامه فى قياده المارد ــ فلمح بعض النقوش والتصاوير التى كان يتأملها فى حجرة الاستئذان منذ قريب باقية كما هى . ورفع بصره صوب الطبقة العليا من القصر فبصر فى إحدى شرفاتها

بوجه قيم القصر ، وإلى جانبه شاب أبيض الوجه حالك سواد الشعر مرجله ، كأنه من وبيصه يقطر دهنا وهما ينظران إليه ويتضاحكان . حتى إذا انتهى به المارد إلى السدة أرسل معصميه وأومأ له أن ينصرف لسبيله دون أن يقول له شيئا . فخطا حمدان عتبة السدة ثم استدار خلفه ليرى وجه ذلك الشاب المطل من الشرفة كرة أخرى فوجد العملاق قائما دون السدة قد حجبه عن كل شيء داخلها فاتخذ سبيله أمما في الطريق وهو يشعر بالخزى وخيبة الأمل ، ويلعن ابن الحطيم في سره ، ويمسح معصميه ليسكن الألم الذى بقى من آثر قبضة المارد ، ورأى ظل السور ممدودا ، فما مشى فيه إلا قليلا حتى ازور عنه إلى الشمس مؤثرا حرها على برده كيلا يكون لهذا الغنى اللئيم من فضل عليه .

٦

وسار حمدان فى طريقه غضبان أسفا حتى بلـغ سـوق القريـة دون قصد منه ، فتذكر أنه يريد شراء بعض الحوائـج لأهلـه قبـل أن يعـود إلى المزرعة . فأخذ يمشى فى أزقته الضيقــة بـين الحوانيـت الصغـيرة ، وقد بدأت حركة الناس تخف فـى السـوق مـن أجـل الحـر ، وطفـق الباعة يرتبون بضائعهم أو يرشون الماء أمام حوانيتهم ليخففـوا وقـدة الشمس ، وجلس بعضهم قدامها يتحدثون .

ثم وقف أمام حانوت صغير مغلق هو حانوت ابـن عمـه ، فجـاش صدره بالشجون ومر فى خياله عبـدان وعاليـة وتمامـة وابـن الحطيـم وعامل القرية متتابعين فى صف واحد . فـإذا شـخص يناديـه باسمـه . فـالتفت إليـه فوجـده صديقـا لعبـدان تـاجرا يواجـه حانوتـه حـانوت عبدان. فحياه الرجل ودعاه ليستريح قليلا عنــده . فلمـا جلسـا فـى الحانوت سأله صاحبه عن عبدان فأخبره بأنه يتماثل من علته وسيفتح حانوته وشيكا ، وما مضيا فى الحديث إلا قليلا حتى أدرك حمدان من لحن قول جليسه أنـه قـد ألم بطـرف ممـا حـدث لعاليـة ، وإنمـا يمنعـه الإشفاق عليه أو الحياء منه أن يبدأه بحديثها ، فلم ير حمـدان بأسـا أن يقص عليه قصتها لعله يجد عنده رأيا ينفعه . وعجـب حمـدان لمـا رأى الرجل يصغى إلى قصته وهو يتوجع توجعا شديدا ويصعد الزفرة تلـو الزفرة ، فحسب فى أول الأمر أنـه يتصنـع ذلـك مجاملـة لـه وتطييبـا لخاطره ، ولكن الرجل ما لبث أن اغرورقت عيناه بـالدمع ثـم جعـل يبكى بكاءً حارا وينتحب انتحابا حتى أشفق حمـدان عليـه ، وعجـب من نفسه كيف لا يجد الدمع سبيلا إلى مآقيه حتى إنه لم يـذرف دمعـة واحدة علي أخته الضائعة ، وأن حديث مصابها ليبكى الأبـاعد عنهـا

إذا سمعوه .وأحس الرجل بما دار بخلد حمدان فكفكف دموعه وقال له بصوت متهدج :

« لا تتعجب ياحمدان لما ترى مني فإني مصاب مثلك » .

وحار حمدان كيف يجيب الرجل لأنه لما يفهم قصده من هذه الجملة المبهمة . وعاد الرجل ليوضح حديثه فقال : « إن ماوقع لأختك قد وقع لا بنتى من قبلها » .

فصاح حمدان قائلا : « لا حول ولا قوة إلا بالّله . . اختطفت ابنتك ؟ »

ـ نعم . . . .

ـ متى كان ذلك ؟

ـ منذ ثلاثة أعوام .

ـ من القرية هنا ؟

ـ لا يا حمدان بل من ضاحية عمران حيث تقيم عشيرتنا .

ـ أما والّله لقد أحزنني مصابك يا عبد الرؤوف . فقل لى هل وجدتموها بعد ذلك ؟ فزفر الرجل زفرة حارة وقال « لا يا حمدان ما رأينا وجهها منذ ذلك اليوم ولا ندرى أهى الآن من الأحياء أم من الأموات » .

ـ أما بلغت أمرها إلى الشرطة ؟

ـ بلى ولكنهم ما أغنوا عنى شيئا .

ـ ويلهم . . . أما استطاعوا فى هذه المدة الطويلة أن يعثروا على المجرم ؟

ـ ما أشك أنهم عرفوه فستروا عليه وأعرضوا عنه .

ـ أواه . . . أوقد أصبح السلطان عاجزا لا يقدر على شراذم العيارين والشطار ؟ إنها والله لبلبلة كبيرة . .

ـ لكن هؤلاء لا يخطفون بنات الناس ولا يسطون إلا على أموال الأغنياء .

ـ تلك كانت سنتهم فيما مضى وقد كنت مثلك حسن الرأى فيهم ، فلقد تغيروا اليوم فما يفرقون بين غنى وفقير ولا يتذممون من هتك الحرم .

وحكى له حمدان ما كان من ثمامة وانتمائه إلى عصابة الشيخ سلام الشواف ، وأنه لا يشك أن ثمامة هو الذى خطفها انتقاما منه لرفض خطبته لأخته الثانية . فقال له عبد الرؤوف : « إننى أعرف العيارين وخالطت كثيرا منهم حين كنت أبحث عن ريا ابنتى . فأيقنت أنهم لا يمكن أن يأتوا مثل هذه الأعمال الدنيئة . فإن صح أن ثمامة فعلها فبدون علم من جماعته ولا رضاهم »

ـ ولكنهم ركبوا معه وعاونوه على ارتكاب الجرم .

ـ فلابد أنه كذبهم ولم ينبئهم بحقيقة الأمر .

ودهش حمدان لما استطرد عبد الرؤوف فحدثه بأنه ما كشف له عن الذى اختطف ابنته إلا العيارون .

ـ أوَتعلم الذى اختطف ابنتك ؟

ـ نعم .

ـ من ؟

ـ أحد أغنياء القرية .

ـ أيهم ؟

ـ أتحلف لى أنك لا تقول هذا لأحد ؟

ـ نعم أحلف لك .

ـ مالك الأرض التى تعمل فيها يا حمدان ؟

فوجىء حمدان بما سمع حتى شك فى وعيه لما سمع . فاستوضحه قائلا فى حيرة وذهول : « من تعنى ؟ » فنظر إليه عبد الرؤوف مليا ولسان حاله يقول : « أيعز على هذا الرجل البائس أن يكون المجرم سيده » وترقب حمدان الجواب فى قلق عظيم . ولم يقدر أن ينتظر سماعه من صاحبه . فقال له بلهفة وتلعثم :

ـ أتعنى . . . . . ؟ » .

ـ نعم أعنى ابن الحطيم !

فذهل حمدان وشعر برجفة خدرت لها أوصاله . وظل برهة وهو لا يسمع إلا هذا الاسم يطن فى أذنيه ، وكأن أرجاء الأرض وأجواز السماء تدوى به وتردد صداه : ابن الحطيم . . . ابن الحطيم . . . . ابن الحطيم ! وتمثل لعينيه وجه ذاك الشاب المطل من الشرفة بشعره المرجل اللامع ، فى ومضات خاطفة متقطعة تواكب ما يضن بأذنيه ! .

وما أخرجه من ذهوله إلا صوت جليسه يقول له وهو يضرب بيده على كتفه : « لا تعجب يا حمدان فما هذا أول جرم ارتكبه هذا الغنى الفاسق . وله وللهيصم جرائر كثيرة من هذا القبيل » .

فسأله حمدان وهو يبل بريقه ما شعر به من جفاف شفتيه : « هل تحققت أن ابن الحطيم هو الذى . . . ؟ »

ـ نعم لقد سمعت ذلك من بعض خدم قصره بالكوفة ، وسماها لى ونعتها فلم يبق عندى شك أنها ابنتى ريا .

ـ هلا شكوته إلى السلطان ؟

ـ ما أغنى عنى ذلك شيئا . فما كانت لى بينة عليه ، ولا كان فى وسعى أن أحمل الوالى أو رئيس الشرطة على تفتيش قصره وهما من ندمائه وله عليهما أياد وأفضال .

فسكت حمدان قليلا كأنه يوازن بين ما كان من أمر هذا التاجر المنكوب وأمره هو ، ثم قال له : «لماذا لم تشهر به وتفضح أمره فى الناس ؟ وعلام استحلفتنى أن لا أقول هذا لأحد » .

ـ « ويحك يا حمدان لقد دأبت زمنا على التشهير به حتى لقينى بعض غلمانه الأشقياء ذات ليلة فتوعدونى ليقتلننى قتلة الكلب إذا لم أكف عن التشهير بسيدهم . وبعد فماذا يضيره ذلك أو يجدى ؟ لقد رأيت خيرا لى آخر الأمر أن أوارى سوأة ابنتى عن عيون الناس . ولأن يقولوا إنها اختطفت وضاعت أهون عندى من أن يقولوا إنها عند ابن الحطيم يمسكها على سفاح » وما أتم التاجر كلمته حتى انفجر باكيا . ولما مسح دمعه نظر إلى حمدان فبصر بدمعتين تترقرقان فى عينيه الحمراوين ، فقال مشفقا مرتاعا : « ويحك يا حمدان إنك لتبكى دما » !. .

فتبسم حمدان من قول صاحبه ومسح عينيه بطرف كمه فما بدا عليه أثر لدم ، وإنما هو قليل من الدمع . ففطن الرجل لما وقع فيه من الوهم ، فتبسم ضاحكا وما يزال فى عينيه آثار البكاء ، فكان منه ما يكون من الطفل بكى لشئ أغضبه أو لأمر عز عليه فجيء له بغتة بما اشتهى فغلبه الفرح فطفق يضحك وهو بعد على حاله يبكى !

وتذكرا ما هما فيه فعجبا كيف تسلل الابتسام إلى شفاههما .

قال حمدان وهو يتنهد : « يجب أن يثور الناس على هذه الحال ويجب أن ننقذ ابنتك من يد هذا الفاسق » .

فقال عبد الرؤوف بصوت حزين مؤثر :

ـ « هيهات يا حمدان فقد كان آخر ما بلغنى من خبرها عن ذلك الخادم أنها اختفت من القصر منذ عامين فلم يعرف أحد عنها شيئا ؟ ».

ـ فأين ذهبت ؟

ـ لا أدرى ـ لعلها ماتت أوقتلت أو رحلت إلى جهة نائية . . فقد بلغنى أنهم يفعلون بعض هذا بالفريسة حين يستغنون عنها .

قال له حمدان : « أما قلت لى إنه حبسها فى قصر الكوفة ؟ »

فقال عبد الرؤوف وهو يحسب أن حمدان يريد بسؤاله هذا أن ينقلها: « بلى ، ولكن لاتشغل نفسك بأمرها فليست اليوم هناك » .

وتذكر حمدان أن ابن الحطيم قضى الأيام التى تلت اختطاف عالية فى قصره بالكوفة كما حدثه بذلك قيم قصره . فخطر له أن عالية قد تكون هناك . ومن يدرى لعلها تنزل فى نفس الغرفة التى كانت فيها ريا . فأزعجه هذا الخاطر المخيف ، ولكنه سرعان ما طرده من قلبه إذ ذكر ثمامة وجماعته العيارين ، فأنى يصح أن تصير من عند هؤلاء إلى ابن الحطيم . ؟

وما انتهى من هذا الخاطر حتى تذكر أن جليسه قد ظن به الاهتمام بانقاذ ابنته ريا . فخجل حمدان فى سره وأراد أن يدارى هذا الخجل فقال له : « أما نستطيع أن نصنع لابنتك شيئا؟ » .

فقال له عبد الرؤوف : « شكرا لك يا حمدان . لافائدة من محاولة المستحيل . إنى قد يئست من ابنتى ولم يعد لى فيها مطمع وعددتها كأنها لم تكن . فدعنا نهتم الآن بأختك عسى اللّه أن يأذن بردها إليك ويومئذ أشعر بأن ابنتى رجعت إلى » .

فتأثر حمدان من مقالته وجعل يشكره شكرا بليغا ثم قال له : لو أعلم أن أختى عند ابن الحطيم أو عند ابن الهيصم لاقتحمت القصر عليه وليكن ما يكون . ولكنها ـ واأسفاه ـ بأيدى العيارين من جماعة الشيخ سلام الشواف فكيف السبيل إلى هؤلاء ؟ .

فسكت عبد الرؤوف هنيهة ثم قال له : إن تكن حقا عند هؤلاء فأيقن أنها بمأمن من السوء وأنها عما قريب سترد إليك ، بيد أنى مازلت أشك أن يتعرض هؤلاء لفقير مثلك لا يطمعون عنده فى مال أو فدية .

ـ لاتنس ثمامة وانتقامه منى .

ـ إن فعلها ثمامة فلا شك عندى أنه خدعهم .

ـ إنى أراك مصرا على هذا الرأى .

ـ لأنى لا أستطيع أن أومن بخلافه .

ـ فماذا تنصحنى أن أصنع ؟

ـ أن تتصل بهم فترى ما عندهم .

ـ لو كان فى مقدورى ذلك لقد فعلت . ألا تستطيع أن تدلنى على أحد منهم ؟ فارتبك الرجل واعتراه خجل شديد إذ تذكر أنه قد أخبر حمدان آنفا أنه يعرفهم وأنه قد خالط كثيرا منهم . وأحس أن حمدان يستنجد به الآن ويلتمس معونته فى هذا السبيل فكيف يسعه أن يتنصل مما قال ؟ وزاد ارتباكه لما نظر فى وجه حمدان فرأى فى عينيه بريقا ينطق بكثير من الاستعطاف وقليل من العتب الجميل ، فما كان منه إلا أن دنا من حمدان فهمس فى أذنه قائلا : « فى وسعى أن أجمعك بأحدهم ، ولكن حياتى وحياتك ستكونان معلقتين بكتمان هذا السر فهل تحلف لى على هذا يا حمدان ؟ » .

فأقسم له حمدان أغلظ الأيمان أن « لا يخرج هذا السر من صدره أبدا » .

فلما وثق به صاحبه قال له : « فقم بنا الساعة لنشهد صلاة الظهر فى الجامع وليقض اللّه بعدها ما يشاء » .

وما لبث الرجل أن أغلق باب حانوته . فطفقا يمشيان ناحية الجامع ، وحمدان منشرح الصدر طيب النفس يشعر برغبة شديدة فى الصلاة ليشكر اللّه على أن ساق إليه هذا الرجل الطيب يواسيه ويعينه فى مصابه . وما يدريه لعل اللّه أراد بأخته خيرا فقيض له هذا المعين الصالح من حيث لا يحتسب .

وبلغا الجامع فدخلا من بابه الخلفى إلى الميضأة فوجدا خلقا يتطهرون فانتظرا قليلا حتى جاء دورهما فتوضآ للصلاة ، ثم أفضيا إلى صحن الجامع فجازاه إلى الشطر المسقوف منه حيث ألفيا جمعا ينتظرون الصلاة أن تقام وهم بين قائم يتنفل ، وجالس يسبح أو يتلو القرأن ، وداخل مثلهما يبحث عن فرجة يشغلها فى الصفوف . وأومأ عبد الرؤوف لحمدان أن يتبعه فتخللا الصفوف حتى وقفا إلى جنب سارية قد جلس إليها شيخ مهيب الطلعة يرتدى جبة خضراء وعلى رأسه عمامة كبيرة بيضاء كأنها غمامة . فصليا ركعتى التحية، وما أن سلما من صلاتهما حتى التفت عبد الرؤوف إلى الشيخ الجالس عن يساره فحياه وأكب على يده يقبلها . وتوقع حمدان حينئذ أن يقدمه صاحبه إلى الشيخ ولكنه لم يفعل بل أخذ يساره والشيخ يميل أذنه إليه ويسترق النظر إلى حمدان مرتين أوثلاثا فيخفض حمدان بصره كلما وقعت عين الشيخ عليه إذ يحس أن لها شعاعا غريبا نفاذا يكاد يخترق حجاب قلبه . وأدرك حمدان أن صاحبه

يحدث الشيخ عنه دون أن يسمع شيئا مما يقول . وخالطه شئ من الارتباك من جراء هذا الهمس ، فلولا اطمئنانه إلى صاحبه التاجر لظنهما يأتمران به .

وإن حمدان ليدافع هذا الخاطر عن نفسه إذ التفت إليه عبد الرؤوف قائلا : « هذا الشيخ بهلول السمرقندى يا حمدان » وإذا الشيخ يمد يده إليه ليصافحه فأهوى عليها حمدان فقبلها وهو يقول : « ادع اللّه لى أيها الشيخ الصالح عسى أن يرحمنى ببركتك » وجذب الشيخ يده منه فأحس حمدان بثقلها وقوتها وشثانة أصابعها فتعجب منها ، ولكن صرفه عن التفكير فى أمرها ما رأى من أثر السجود على جبهته الواسعة وقد افتر فمه عن بسمة جعلت تضىء من خلال شاربه وعنفقته وعارضيه ، وسمعه حمدان يقول بصوت خافت : « تقضى حاجتك إن شاء اللّه » .

وكان حمدان قد سمع بالشيخ بهلول الذى يعظ الناس فيبكيهم من خشية اللّه ويقص عليهم سير الأنبياء والرسل والصالحين فيشوقهم إلى عبادته ويزهدهم فى الدنيا ويرغبهم فى الدار الآخرة . وطالما اشتاق إلى سماعه ورؤيته فلم يقدر له ذلك لكثرة مشاغله ، وإذا هو اليوم يحظى بمعرفته والاتصال به من طريق صاحبه التاجر . فما أسعده لولا ظل الشك الذى يساوره من جراء مسارة التاجر للشيخ آنفا واستراق الشيخ النظر إليه .

وقامت الصلاة فكبر الناس وكبر حمدان واجتهد أن يتخشع فى صلاته ويتجرد من كل ما يشغله من الخواطر . ولكن عز ذلك عليه فقد ظل التفكير فى أمر الشيخ وما همس به إليه شاغلا باله طوال

الصلاة . فتشاءم من ذلك ووقع فى روعه أن اللّه لـن يظفـره بحاجتـه لأنه لم يستطع أن يخلص له الدعاء .

وأخذ الناس ينصرفون إلى بيوتهم بعد انتهاء الصلاة . وأقبل جماعة منهم فطفقوا يصافحون الشيخ ويلتمسون بركته . ودعاه بعضهم إلى الغداء فى بيوتهم فكان يشكرهم معتذرا بأنه قد وعـد عبـد الـرؤوف التاجر بأن يتغدى اليوم على مائدته ، فلما سمع حمدان هذا منـه خف عنه شعوره بالارتيـاب ، إذ جـوز أن تكـون هـذه الدعـوة إلى الغـداء بعض موضوع المســارة . بيـد أنـه تضـايق مـن وجـه آخـر لأن غـداء الشيخ عند صاحبه سيشغل التاجر وقتئذ عن الأخذ فيما وعده به أن يجمعه بعد الصلاة بأحد العيارين . وتذكر أنه وعد أهله بالرجوع مـن القرية قبل وقت الغداء . فلابد أنهم ينتظرون مجيئه الآن ، وسيقلقون عليـه إذا تـأخر فقـد صـار القلـق لأيسـر الأسـباب ديدنهــم منــذ ألم بساحتهم حادث الاختطاف الأليم .

٧

ونهض الشيخ من مقعده فنهض الرفيقان معه . وخرجوا من بـاب الجامع وهم صامتون . حتى إذا أخذوا فى بعض الطريق وهـم حمـدان أن يستأذن صاحبه فى الانصراف على أن يعود إليه لقضاء مهمته فى وقت آخر ، بدره صاحبه فقال له : « إنك ستـتغدى معنـا اليـوم » . فحاول حمدان أن يعتذر فأخذ عبد الـرؤوف بطـرف كمـه يجـره إليـه وهو يقول : « ويحك يا حمدان أنسـيت الحاجـة التى مضينـا مـن أجلهـا اليوم ؟ » . ولم يسع حمدان إلا الانصياع لأمره الجازم دون أن يراجعه ليفهم ما عناه ولا سيما إذ نظر الشيخ فوجده يبتسم لـه كأنمـا يقـول له: « ألا تريد أن تشهد الغداء معى » ؟

وساروا في طريقهم صوب الجنوب وهم يلوذون بظلال البيوت. فاخترقوا زقاقا ضيقا ، ثم انتهوا إلى شارع متعرج أفضى بهم إلى ميدان فسيح يقوم في جانب منه قصر كبير قد برزت شرفاته من سور الحديقة التي تحيط به فعرف حمدان أنه قصر الهيصم . وما يدرى حينئذ لماذا خطر له أن يدع رفيقيه فينطلق إلى القصر فيقتحمه على حراسه وحجابه عسى أن يجد أخته عالية محبوسة في إحدى غرفه . وكان الثلاثة يعبرون الميدان من الجانب الآخر فلما توسطوه بدا لحمدان فنظر عننا إلى وجه الشيخ ، فإذا عيناه ترنوان جهة القصر من تحت الرداء الذى ألقاه على عمامته ليتقى به حر الشمس ، وإذا شعاع غريب يتطاير منهما تطاير الشرر من الجمر . فطارت من ذهن حمدان معاني الصلاح والتقوى ، وحل محلها ما كان يتخيل في طفولته أن يراه في عيون القتلة والسفاحين .

وما نقله من خاطره هذا إلا صوت عبد الرؤوف يقول له : « هذا قصر الهيصم لعلك تعرفه يا حمدان . ألا تراه أفخم من قصر سيدك ؟ » .

فأومأ حمدان برأسه أن نعم ولم يقل شيئا إذ لمع في ذهنه كالبرق حينذاك قصر ابن الحطيم ووجه الشاب المطل من الشرفة يقطر شعره المرجل دهنا . وما راعه إلا أن التفت الشيخ إليه قائلا : « إن حمدان لراض بكوخه . . . راض بكوخه لو تركوه ! » .

نالت هذه الكلمة من حمدان ما لم ينله أى كلام آخر . فاهتز لها قلبه اهتزازا شديدا . وخيل إليه أن هذا الشيخ يعلم من قصة حياته ومكنون سره مالا يمكن لعبد الرؤوف أن يكون قد ساره ببعضه في تلك النجوى القصيرة بالجامع .

ثم عاد الشيخ فقال وهو يتكفأ فى مشيته الهوينى : « فاز المخفون يا حمدان ! فاز المخفون يا عبد الرؤوف ! » وما زال يرددها حتى انتهوا إلى زقاق طويل فساروا فيه نحوا من ثلثيه ، فانعطفوا يمينا إلى حارة ضيقة مسدودة . فقال عبد الرؤوف حينئذ : « ها نحن أولاء قد وصلنا » . وتقدمهما إلى باب غليظ قد بان عليه القدم ، واسودت زوافره العليا من طول اللمس . فما كاد يضع يده على مقرعته حتى سمع صوت المزلاج . فدفع الباب قليلا ومال برأسه داخله ولبث هنيهة ثم فتحه على وسعه وأذن لضيفيه فدخلا معه . وصعد بهما الدرج حتى قادهما إلى غرفة متوسطة لا بأس بزينتها وأثاثها . فقد كانت مفروشة بطنفستين إحداهما ثمينة هى التى فى صدر الغرفة وفوقها الأرائك والوسائد ، والأخرى دونها قيمة وهى الموضوعة فيما يلى الباب .

فلما استقر بهم المجلس أخذ صاحب البيت يرحب بضيفيه ويؤانسهما ويدنى الوسائد إلى ظهرهما ويقدم لهما المراوح ، ويروح بإحداها عليهما .

وكان حمدان إذ ذاك يقلب عينيه فيما يرى . فيأخذه العجب أن لا ينم منظر الدار من الخارج عما فى داخلها من النظافة والأناقة والمتاع .

وفتح الباب فدخل غلام صغير يحمل مجمرة فوضعها بين يدى سيده ثم انصرف ، فأخذها الرجل فأصلح نارها قليلا ثم رمى عليها قطعة من العود الجيد فجعل يتصاعد منها دخان أبيض ينفح بالعرف الطيب . فقدمها إلى الشيخ فأدناها من أنفه يستنشق دخانها ثم جعل يطيب بها ثيابه وعمامته . فلما انتهى من ذلك وضعها دون صدره

فجعل الدخان يتصاعد إلى لحيته وعارضيه ، ويتسرب خلال الشعر الأبيض ، فيخيل إلى العين أن الشعر يتناثر من لحيته وعارضيه فى الهواء . ثم قدمها إلى حمدان فاستجمر بها مليا ولسان حاله يقول : « أنى لى أن أظفر بمثل هذا غير اليوم ؟ » . حتى عرق جبينه من حر المجمرة فسره ذلك وأسر فى نفسه أن هذا العرق سيكون أعقد للطيب فى جسده .

وحين قضى منها لبانته ، دفعها لصاحب البيت وما كاد أن يفعل، وإن عبق العود ليفعم خياشيمه بعد إذ وسوس له خاطره فتسلل به إلى حيث يرى بعين خياله ربة الدار وقد فرغت من تهيئة الطعام وتسوية شؤون الدار ، فارتدت حلتها الحرير وسوت شعرها وتطيبت وتجملت بحليها من الذهب والفضة والجواهر ، ووقفت على الشباك تنتظر مجيء زوجها لتستقبله عند باب الدار ثم تحضر له الطعام فتواكله لولا وجود الضيف عنده اليوم . ثم طار به الخيال إلى ابن عمه التاجر عبدان ، وكيف كان يأمل أن يعيش معه أخته عالية حين يتزوجها عيشة أرغد وأهنأ من العيشة التى يحياها هو وأهله فى المزرعة . وماذا يمنع عبدان وهو تاجر مثل عبد الرؤوف حين يتقدم فى تجارته أن يسكن عالية فى دار كهذه ويلبسها من الحلل والحلى ما تلبسه زوجة مضيفه فيما تخيلها عليه ؟

ولكن أواه ! أين عالية الآن ؟ لقد خطفها اللصوص قبل زفافها بأيام قلائل . وتذكر ثمامة فتحرق قلبه موجدة عليه . أواه . . . كيف السبيل إلى ثمامة ؟ ثم تذكر أنه ما سار مع عبد الرؤوف إلى حيث سار إلا ليجمعه عبد الرؤوف عقب الصلاة بأحد العيارين عسى أن يدله على ثمامة اللعين . وإذا هو الساعة قاعد فى بيت عبد

الرؤوف ينتظر الغداء مع هذا الشيخ الواعظ . ولا يدرى متى ينصرف الشيخ لسبيله فيفرغ عبد الرؤوف له . وخيل إليه أنه انتظر دهرا دون أن يأتى الغداء . واستبد به الضيق وتذكر انتظار أهله إياه فى المزرعة فندم على أن خضع لعبد الرؤوف ولم يرفض دعوته منصرفهم من الجامع . وحدثته نفسه أن ينهض ساعتئذ مستأذنا للانصراف بعذر يختلقه اختلاقا لكى يذكر عبد الرؤوف بما نسى من حاجته على الأقل . فما راعه إلا الشيخ يميل رأسه إليه ويقول له بصوت خافض لا يكاد يسمعه سواه : « أتعرف ثمامة يا حمدان ؟ » .

فارتبك حمدان لما فوجئ به من سؤال الشيخ من حيث لم يتوقعه ، فسكت قليلا لا يدرى كيف يجيبه ونظر إلى صاحبه التاجر كأنه يستنجد به . فرآه مبتسما كأنه يشجعه على الجواب . فلما أعاد الشيخ السؤال عليه قال له حمدان : « نعم . . . قد جاءنى يوما يخطب أختى الصغرى فلما رفضت خطبته انتقم منى فاختطف أختى الكبرى المخطوبة لابن عمى » . فقال الشيخ : « إذاً فما اختطف تلك التى خطبها ؟ »

فأجابه حمدان قائلا : « لا يا سيدى الشيخ . إنه خطب راجية وخطف عالية » .

ــ فكيف علمت أن الذى فعل ذلك هو ثمامة ؟ .

ــ لا أحد سواه . وقد رأته راجية راكبا فى كوكبة من الفرسان الملثمين على هيئة الشطار . فما لبثت أختها أن اختفت عقب مرورهم .

فنظر إليه الشيخ مليا ثم اقترب منه حتى كاد فمه يلامس أذن حمدان فقال له : « هل رأيتنى أو سمعت بى قبل اليوم ؟ » .



فتعجب حمدان من السؤال . ولكنه أجابه قائلا: « ما رأيتك من قبل، ولكن طالما سمعت الناس يتحدثون عن صلاحك وحسن وعظك . .» وأراد حمدان أن يستطرد في الثناء عليه . فقاطعه الشيخ قائلا : «حسبك يا حمدان . . . . إن عبد الرؤوف حدثني ببعض أمرك . وأخبرني بأنك أهل للثقة وقمين بكتمان السر ، فهل أنت كذلك ؟».

فخفق قلب حمدان ، وتذكر استحلاف عبد الرؤوف له على ذلك. وتوقع أن يسمع الساعة أمرا بالغ العجب من ذاك الشخص الغريب . فقال له : « أرجو أن أكون كذلك . وقد حلفت لعبد الرؤوف ، وإني على الأسرار لأمين » .

ـ هل سمعت بالشيخ سلام الشواف وعصابته ؟

ـ نعم وقد بلغني أن ثمامة منهم .

ـ أرأيت لو أرادوا الفتك بك أيعصمك منهم أحد ؟

ـ لا عاصم من هؤلاء فيما سمعت . ولكن ماذا يحملهم على قتلي؟ اللهم إلا أن يكون ثمامة .

ـ دع عنك ثمامة فإنه لا يقدر على ذلك . . . ولكن إن أفشيت لهم سرا ائتمنوك عليه فلا تلومن إلا نفسك .

ودهش حمدان لكلام الشيخ وعجب من شدة لهجته وهو ينطق بهذه الكلمات الأخيرة . وأيقن أنه أراد بها تهديده . ولكنه رأى أن يمضي في تجاهله لحقيقة مقصد الشيخ حتى يصرح به . فقال له : «وأنى لي أن أؤتمن على سر لهم ؟ » .

فنظر الشيخ نظرة إلى عبد الرؤوف ثم ابتسم لحمدان ابتسامة غريبة دب لها الرعب في قلبه . وقال : « فاعلم يا حمدان أنني منهم.

وقد ائتمنتك على سرى وأوليتك ثقتى فحذار يا هذا أن تخوننى فتخسر حياتك » .

ولم يدهش حمدان كثيرا لسماع هذا القول العجيب . فقد توقع أن يسمع شيئا كهذا منذ ألقى عليه الشيخ أسئلته الغريبة . بل أحس الآن بالطمأنينة إليه والقرب منه بعد ذاك الارتياب الخفى الذى ظل يساوره منذ رأى عبد الرؤوف يساره فى الجامع . وتذكر ما رابه من صلابة يده وشثانة أصابعه وما أنكره من ذاك الشرر الذى تطاير من عينيه عند مرورهم بقصر الهيصم . . فاستراح الآن قلبه من كل حيرة كانت تنوء به .

قال حمدان وقد تطلق وجهه وانطلق لسانه : « اطمئن ياسيدى ، فسرك فى قلبى لا يجيزه حلقى ولو جازت الشفار عليه » .

وسمعت حركة من خلف الباب فوضع الشيخ يده على فمه إشارة السكوت ، وقام صاحب البيت فخرج من الباب ثم عاد فقال : « هلما إلى الطعام فقد أعد » فقاما معه إلى قائمة الطعام فى وسط الدار ، فإذا خوان كبير ممدود قد صفت عليه أطباق الطعام أصنافا وألوانا . فطفقوا يأكلون وصاحب البيت يباسطهما ويقدم لهما اللون تلو اللون. وكان حمدان قد اطمأن قلبه فتفتحت شاهيته ، ورأى طعاما لا عهد له بمثله فجعل يأكل ويأكل حتى كاد يعجز عن النهوض شبعا . وقد لوحظ أن الشيخ يأكل أكلا ذريعا لا يكاد يستقر على طبقه شئ حتى يأتى عليه ، فلم يعجب من صنيعه بعد إذ عرف حقيقته . وإنما أخذه العجب من جمال القاعة وازديانها بالأمتعة والرياش والستائر والبسط الثمينة ، ومن ذلك الخوان وما عليه من الآكال المتنوعة والأطباق البديعة والأكواب الفاخرة ، فتفكر فى أمر

هذا التاجر كيف يكون عنده كل هذا المتاع والزينة ، وكيف يتيسر له الإنفاق على كل هذا الترف ، وإن حانوته الصغير وما فيه من البضائع القليلة لا يعقل أن يدر عليه ما يقوم ببعض ما رأى عنده . فلابد أن يكون لديه مورد آخر للرزق . وما لبث أن ذكر صلته بالشيخ بهلول الذى اتضح له الآن أنه أحد العيارين من أتباع الشيخ سلام الشواف ، وقد اتخذ عبد الرؤوف موضع سره . فماذا يمنع عنده أن يكون عبد الرؤوف عيارا فى صورة تاجر كما كان الشيخ بهلول عيارا فى صورة واعظ ؟ حقا إن أمر هؤلاء القوم لعجيب وعسى أن يطلع غدا من أمورهم على ما هو أعجب وأغرب . ومما قوى عنده صدق ظنه هذا ما اطرد عنده من أن ما يظهر للناس من حال عبد الرؤوف يقل دائما عما يخفى منه ، فحانوته أقل من داره ، وخارج داره أقل من داخله ، وغرفة الضيوف أقل من قاعة الطعام ، وهكذا دواليك . فلما اقتنع بصحة ما ذهب إليه أو كاد ، انبثق له سؤال آخر : ترى ما الذى حمل التاجر والشيخ وهما ما هما — على الاهتمام بأمره كل هذا الاهتمام حتى أفضيا بسرهما إليه دون غيره من الناس ؟ وحاول جاهدا أن يجد جوابا يستريح إليه فأعياه ، ولكنه موقن أن هذا السر لا يلبث أن ينكشف له غدا . ولعله لا يبرح الدار اليوم حتى يكون قد عرفه فإن الشيخ لما يقل كل ما أراده ، إذ حضر الطعام فقطع حديثه ، فلينتظر قليلا ولا يتعجل .

ولما فرغوا من طعامهم دار الغلام عليهم بمغسلة فضية فجعل يفرغ الماء على أيديهم من إبريقها الرشيق اللامع كأنه أوزة مصنوعة من الفضة . وقد أحس حمدان وهو يغسل يده ويتمضمض بالإشفاق على ذلك الإناء الثمين أن يغسل الوضر عليه أو ينفث الماء فيه .

وكان يتوقع أن يعودوا بعد الطعام إلى الغرفة التى كانوا فيها . فإذا بصاحب البيت يقودهما فى ممر طويل ينتهى بدرج ضيق نزل بهما فيه حتى دخل بهما إلى حجرة واسعة تفوق فى زينتها وأثاثها ورياشها كل ما رأى فى الدار من قبل . ولها ثلاثة أبواب من داخلها مرخاة عليها ستائر من الحرير الأسود ، رفعها عبد الرؤوف وفتح الأبواب فإذا صحن واسع فى وسطه فسقية يتفجر الماء من نافورتها ، ومن حولها أصص مختلفة الأحجام والأشكال تحمل أشجار الورد والريحان والفل والياسمين وغيرها من الزهور .

وما أفاق حمدان بعد من دهشته حين أقبلت جارية كهلة لا تخلو من آثار الملاحة ففرشت أمامهم بساطا من الجلد الأصفر الناعم عليه نقوش بديعة وتصاوير . ثم خرجت وما لبثت أن عادت تحمل أكوابا وأباريق فصفتها على البساط . ووقفت قليلا كأنها تنتظر أمر سيدها، فأومأ سيدها لها فانصرفت وأغلقت الباب من خلفها . ولم يدر حمدان ماذا يضطرب فى قلبه من الخواطر إذ ذاك ، ولكنه ازداد يقينا بصدق ما ظن فى حال عبد الرؤوف .

قال عبد الرؤوف حين خرجت الجارية : « الآن نستطيع أن نتحدث فيما نشاء كما نشاء دون رقيب إلا هذا الشراب » .

فقال الشيخ :« قد يكون الشراب رقيبا عليك حين تأذن له أن يلعب برأسك » .

فقال عبد الرؤوف وقد ملأ ثلاثة أقداح وضعها أمامهم : « أما إنه ليعلم أنا لا نأذن له بذلك أبدا » . ورفع الشيخ قدحه فجعل يتحساه تحسيا . وكذلك فعل عبد الرؤوف . واعتذر حمدان بأنه لا يشرب الخمر أبدا . ولكن الشيخ نظر إليه مبتسما وقال له : «

ويحك يا حمدان إنه شراب منعش يزيل عنك الهم ، ولا يبلغ بك حد السكر ، فاستمتع به ولا تخف » .

فرأى حمدان أن ينتهز هذه الفرصة فيذكره بأمره ليصل ما انقطع من حديثه ، فقال : « إن همى لا يزول يا سيدى حتى أسترد عالية أختى » .

فقال الشيخ : « سنتحدث الساعة فى أمرها فاشرب » .

ونظر فرأى وجه عبد الرؤوف تجلله غاشية من الكآبة فقال فى نفسه: « لابد أنه ذكر ابنته الضائعة » وهم أن يقول للشيخ : « فما بال عبد الرؤوف لم يزل الشراب همه ؟ ! » ولكن عبد الرؤوف ما لبث أن سرى عنه وعاد إلى حاله من البشاشة والارتياح . . .

فرفع حمدان القدح إلى فمه فلما ذاق مرارته عبه عبا حتى أفرغه كما يشرب المريض الدواء على كره منه . فلما انتهى منه نظر فإذا صاحباه ينظران إليه ويتضاحكان .

وعرض عليه عبد الرؤوف أن يملأ قدحا آخر ، فشكره حمدان واستعفاه .

فقال الشيخ : « دعه يا عبد الرؤوف فحسبه اليوم قدح واحد ».

ثم التفت إلى حمدان قائلا : « أرجو ألا يتغير حسن رأيك فينا بعد ما عرفت حقيقة أمرنا يا حمدان » . فقال له حمدان متأثرا : « إنكما واسيتمانى وأطعمتمانى ووعدتمانى بمساعدتى فى أمر أختى . فكيف يتغير فيكما حسن رأيى ؟ هذا لا يكون أبدا » .

ــ فما تقول فى العيارين ؟

ــ قوم يقسون على الأغنياء ويرحمون الفقراء .

ــ أتقول هذا مجاملة لنا ؟

- لا واللّه لقد كنت حسن الرأى فيهم ، ولا أدرى إلا أن اللّه سلطهم على الأغنياء عقابا لهم على منعهم الزكاة والإحسان وهضمهم حقوق أمثالى من العاملين فى أرضهم : فاستنار وجه الشيخ وطرب عبد الرؤوف فقال : « زه ! لكأنك ياحمدان ولدت عيارا » فقال الشيخ : « كلا يا عبد الرؤوف . إنه ما صار عيارا بعد. العيار مظلوم يشعر بظلمه فينتصف لنفسه من ظالمه بيده . وهذا مظلوم ولكنه لا ينتصف ، فهو نصف عيار » .

فقال عبد الرؤوف : « فليس بينه وبين أن يصبح عيارا إلا خطوة واحدة »

فسكت الشيخ قليلا ثم قال لحمدان : « فما يمنعك يا حمدان أن تكون عيارا ، فإنى لأراك تصلح أن تكون معنا ؟ » .

قال عبد الرؤوف مؤيدا كلام الشيخ : « إى والله إنك لذو أنف حمى وقلب ذكى وساعد قوى !» فتردد حمدان قليلا ثم قال : « لكنى لا تطوع لى نفسى أن أسطو على أموال غيرى »

فقال الشيخ : « ويحك يا حمدان إنا نسطو على أموال غيرنا ، ولكنا لا نسطو أبدا على حقوقهم » .

فقال حمدان : « أليست أموالهم حقوقا لهم ؟ » .

فالتفت الشيخ إلى عبد الرؤوف قائلا : « أرأيت يا عبد الرؤوف إنه ما صار عيارا بعد ؟ » .

ثم قال لحمدان : « أهيصمى أنت أم حطمى ؟ » .

- بل حطمى .

- أرأيت قصور ابن الحطيم وما تحوى من أموال ومتاع ؟ .

- ما رأيت إلا قصره الذى هنا بالقرية .

ـ فحسبى هذا فاعلم أن ما فيه ليس كله حقا له ، فإن فيه حقوق الفقراء والمساكين فى الزكاة والصدقة ، وإن فيه حقك يا حمدان وحقوق أمثالك من الأكارين الذين يستثمرون له أرضه ، وهو قاعد يلهو ويلعب ، فيستأثر دونكم بثمراتها ولا يترك لكم منها جزاء عملكم وكدكم إلا نزرا يسيرا لا يكفيكم ، فذلك ماله وملكه فيما يقول الناس . ولكن ليس حقه فيما يقول الله.

ـ وليس حق العيارين كذلك ، فكيف يحل لهم أن يأخذوه ؟ .

ـ ما تقول فى القوم المحتسبين ؟ .

ـ رجال تطوعوا لله ! ألا يروا معروفا إلا أمروا به ، ولا منكرا إلا نهوا عنه ، لا تأخذهم فى ذلك لومة لائم .

ـ فكذلك العيارون ، بيد أن العيار يعتمد فى ذلك على الفعل إذا اعتمد المحتسب على القول .

ـ ولكن المحتسبين لا يأخذون شيئا لأنفسهم .

ـ فذلك شأنهم ، لاضير عليهم أن يحتسبوا عند الله ثواب ما يعملون. ولكن ما تقول فى العاملين على الصدقات ؟ . ألم يجعل الله لهم فيها حقا فهم يأخذونه ؟ .

ـ بلى .

ـ فنحن معشر العيارين كهؤلاء فى هذا السبيل ، نأخذ حقنا فيما نغنمه من أموال الأغنياء بقوتنا واقتدارنا ، ثم ننفق ما يفضل عن حاجتنا على المستحقين من الفقراء والمساكين وذوى القربى واليتامى وابن السبيل .

ـ ولكن العيارين فيما أعلم لا يأخذون نصيبهم من ذلك المال بالمعروف ، بل يسرفون فى الإنفاق على أنفسهم ولا يقتصدون .

ـ حسابهم في ذلك على الله ، إن شاء عاقبهم وإن شاء غفر . وما هم إلا بشر ولا يدعون العصمة ، ومثلهم في ذلك كمثل من يغل في الصدقات من العاملين عليها وهم كثيرون ، وقد جاء في حقهم وعيد شديد في الكتاب والسنة ، وإنا بعد لنطمع في عفو الله وتجاوزه ، من حيث إن لنا في أخذ النصيب بالمعروف مجالا للتأويل وسعة في التقدير .

وكان حمدان قد عجب من نفسه كيف جرؤ على محاورة الشيخ ومناظرته . وكيف انطلق لسانه في هذه الشؤن العلمية الدقيقة بذلك اليسر وهو أكار جاهل حتى لكأنه يلهم ما يقول إلهاما . ترى أكان ذلك من فعل ذلك القدح من الشراب المر ؟

ولم تبهره بلاغة الشيخ كثيرا لأن الشيخ كان رفيقا في جداله لطيفا معه ، ولأن حمدان كان مأخوذا بما وفق هو إليه في الحوار من المنطق الصائب والقول السديد . أما عبد الرؤوف فقد كان يصغى إليهما بلذة وشغف ، وقد ملكه العجب من براعة حمدان في القول وقوة حجته حتى ساءل نفسه مرارا : أفلو كان مكان حمدان كان يقدر أن يقول مثله ؟ .

انقطع حمدان آخر الأمر عن مجاراة الشيخ إذ لم يستطع أن يعقب على كلامه الأخير بشيء . ولكنه لم يجد في نفسه غضاضة من هزيمته ، ولم ينقص ذلك من زهوه بما أعجبه من توفيقه في جولاته الأولى إلا قليلا . لا بل شعر حمدان في دخيلة نفسه بالارتياح لهزيمته ، فقد كانت بعض تلك المعاني التي أفصح عنها الشيخ تجول في فكره من قديم ولكن على حال من الغموض والإبهام . فكان موقفه وهو

يجادل الشيخ موقف من يعارض فى الرأى ليستوضحه ويزداد به اقتناعا .

وسر حمدان كذلك إذ خيل له أنه قد أدرك الآن السبب الذى دفع هذين العيارين إلى الإفضاء بسرهما إليه . فقد أرادا أن يدخلاه في جماعتهما لما توسما فيه من الاستعداد لذلك : أليس هو مظلوما ثائر النفس ؟ فهو الآن نصف عيار كما قال الشيخ ، فإذا انتصف لنفسه من ظالمه بيده صار عيارا .

بيد أنه سرعان ما اغتم حين ذكر أنهما لم يعطفا عليه لوجه اللّه ، بل لمنفعة يبتغيانها من ورائه باجتذابه للانضمام إلى العصابة . وتذكر أخته عالية وكيف نسيا ما يشغله من أمرها وما اهتما إلا بما يعنيهما من أمره . وإنه ليهم بأن يذكرهما بذلك إذ قال عبد الرؤوف وقد رأى انقطاع حمدان عن التعقيب على كلام الشيخ : « لعلك اقتنعت الآن يا حمدان بأن العيارين قوم صالحون لا ينبغى لمثلك أن يتحرج من الانتساب إليهم ».

فرأى حمدان الفرصة قد سنحت ليدلى بما أراد فقال : « إنى إن اقتنعت بحجة الشيخ فيما قال فقد بقى فى نفسى شئ من الانتساب إلى قوم يتخطفون نساء الناس »

فتمعر وجه الشيخ قليلا وقال : « من قال لك هذا ؟ حاشا للعيارين أن يأتوا مثل هذا العمل الدنيء » .

فقال عبد الرؤوف : « إن حمدان يا سيدى يعنى خطف أخته »

فقال الشيخ : « لا حق له أن يرمى العيارين بما يخالف ما درجوا عليه قبل أن يتثبت من الأمر » .

قال حمدان عند ذلك : « لا يغضبك قولي يا سيدى الشيخ ، فما زلت أعتقد أن العيارين لا يتعرضون لنساء الناس حتى كان ما كان من ثمامة . وما كان ثمامة ليجرؤ أو يقدر على ما فعل لولا انتسابه إلى جماعتكم » .

فقال الشيخ : « لو تريثت قليلا حتى أحدثك بأمر ثمامة ، لعلمت أننا برآء مما فعل ، وأنه فعل ذلك من أجل غيرنا لا من أجلنا ، وأن الفرسان الذين كانوا معه ليسوا من جماعتنا » .

فقال حمدان متلهفا : « فمن كانوا ؟ » .

فأجابه الشيخ بهدوء : « كانوا نفرا من غلمان سيدك ابن الحطيم!».

فذهل حمدان من هذا النبأ الذى لم يتوقعه قط . وأراد أن يقول شيئا فوقف الكلم في حلقه الذى أصابه جفاف شديد ، وأحس كأن الحجرة تدور به . وفى هذه الغمرة تمثل لعينيه فى مثل ومضات البرق وجه ذلك الشاب المطل من شرفة قصر ابن الحطيم بشعره المرجل المدهون . وأشفق عبد الرؤوف على حمدان مما غشيه من الكرب حتى جعل العرق يتفصد من جبينه في مثل حبات البرد ، فقدم له شيئا من الشراب شجه بقدره من الماء ، فشربه حمدان دون أن يقول شيئا وما هى إلا هنيهة حتى بدا حمدان كأنما أفاق من غشية ألمت به ، وأخذ يمسح العرق عن وجهه بأطراف ثيابه ثم نظرإلىالشيخ فقال : « إننا نعرف كل شئ . لنا عيون فى كل مكان تنقل إلينا الأخبار » .

ـ أليس ثمامة من جماعتكم ؟ فكيف اتصل بغلمان ابن الحطيم ؟

ـ لم يبلغ ثمامة أن يكون من الجماعة ، وإنما كان من غلماننا الذين نستعين بهم في صغار الأمور . وقد اختفى عنا منذ ارتكب حادث أختك ، ونحن فى طلبه حتى نبطش به جزاء خيانته لنا وإفشائه سرنا.

ـ ويله . . . أوقد أفشى سركم ؟ .

ـ لا ترع ! فما كان لا يعرف إلا نفرا من غلماننا الذين هم فى مثل درجته ، وقد قبض على اثنين منهم بسعيه ووشايته .

ـ أفليس عليكما منه خوف ؟ .

ـ لا يا حمدان فليس يعرفنى ولا يعرف عبد الرؤوف ولا أحدا من الجماعة غير الغلمان .

ـ أليس يعرف الشيخ سلام الشواف ؟ .

ـ ويحك يا حمدان ، ذاك رئيسنا لا يعرفه إلا سبعة منا ليس عبد الرؤوف أحدهم . فدهش حمدان وقال: «حتى عبد الرؤوف لا يعرفه!»

فابتسم الشيخ وقال : « حتى عبد الرؤوف ، إنما يتصل به من طريقى ، وستكون أنت معى مثل عبد الرؤوف ، ليس بينك وبين الرئيس إلا شخص واحد هو أنا . فانظر يا حمدان كيف نلت من ثقتنا من أول ما عرفناك ما لم ينله سواك ».

وحينئذ قال له عبد الرؤوف : « فهل بقى فى نفسك شئ بعد يا حمدان ؟ » فقال حمدان : « لا والله ما بقى فى نفسى شئ ، ولكنى لا أجدنى أستطيع أن أنفعكم فى شئ حتى أجد أختى عالية أو أعرف مصيرها » .

قال الشيخ : « فقد عرفت مصيرها الآن . إنها فى قصر ابن الحطيم بالكوفة ، وإن ثمامة هو الذى اختطفها له لمعتصم هناك فى القصر » .

فجن جنون حمدان وصاح وهو يتميز من الغيظ : « والله لأسرين الليلة إلى الكوفة فلأقتحمن القصر وأستنقذن أختى ! » .

ـ خفض عليك يا حمدان ، فليس ذلك بـالأمر الهين . إن للقصـر لحراسا أشداء .

ـ فلأشكونه إلى السلطان !

ـ افعل إن شئت ولن تجديك الشكوى شيئا ، إن للمـال لسـلطانا على السلطان .

ـ فماذا أصنع ؟ قولوا لى ماذا أصنع ؟

ـ كن عيارا . حـارب معنـا طغيـان المال . كـن معنـا حربـا علـى الأغنياء ، تنقص أموالهم فتنقص من قوتهـم وطغيـانهم . انتقـم منهـم لنفسك ولآلاف المظلومين أمثالك . اسلب منهـم مـا اسـتطعت كمـا يسلبون الفلاح ثمرة كده ، والأجير جـل أجـره علـى جهـده والفقـير معلوم حقه .

فصـاح حمدان حينئـذ : « ويـل للمـال ! ويـل للأغنيـاء ! خذونـى معكم . أنا منكم ! أنا منكم ! »

فبسط الشيخ له يده فصافحه ثم ضرب بها على صدره وقال : « أبشر يا حمدان فلن تجوع بعد اليوم ولن يهضم حقك ، وهـذا أخـوك عبد الرؤوف سيلقنك دستورنا ثم يبلغك ما يجب عليك عمله » .

ـ والمزرعة أعلى أن أتركها ؟

ـ لا بل تبقى فيها كما أنت . . ستكون عيارا فى صورة فلاح .

فسكت حمدان قليلا ثم قـال وفـى صوتـه رنـة الحـزن : « وأختـى عالية يا سيدى الشيخ ؟ » .

فقال الشيخ : «سنبذل جهدنا فى استنقاذها إن كان إلى ذلك سبيل ».

ـ إن كان إلى ذلك سبيل !

ـ أجل يا حمدان . لسنا جيشا يقاتل للفتح والغلبة فى وضح النهار ، وإنما نحن جماعة تعمل فى الخفاء وتغير على أهدافها فى الظلام .

ـ فما يمنعنا أن نكون جيشا ؟

ـ ويلك يا حمدان أتريد منا أن نحارب السلطان ؟

ـ لم لا ؟ ألسنا نحارب طغيان المال ؟ فمن ذا يحميه من بأسنا إلا السلطان ؟ .

فنظر الشيخ مليا إليه ثم التفت إلى عبد الرؤوف قائلا : « أرأيت يا عبد الرؤوف إن أخاك ليس عيارا إنما هو ثائر » .

فقال عبد الرؤوف : « اعذره يا سيدى فإنما به هم أخته ، فهو يحلم بغزو الكوفة لتخليص أخته من قصر ابن الحطيم . وقد كنت فى مثل حاله يوم اختطف هذا اللعين ابنتى وعلمت أنها فى قصره ولم أجد إليها سبيلا . وغدا تهدأ ثورته ويستمر مريره ويكون عيارا صالحا » .

٨

خرج حمدان من عند عبد الرؤوف ، واتخذ سبيله راجعا إلى مزرعته ، وقلبه مفعم بالخواطر والشجون تذهب به كل مذهب ، وشعر بالشوق الشديد إلى لقاء أهله بالكوخ ، كأنما غاب عنهم دهرا طويلا ، لكثرة ما مر به من الحوادث فى يومه هذا وما رأى وما سمع من الغرائب والعجائب ، حتى لم يكد يصدق أنه ما فارقهم إلا فى صباح ذلك اليوم .

وكانت الشمس قد مالت للغروب ، فنفضت على رمال الطريق، وعلى السهول والتلال عن يمينه وشماله ، وعلى المزارع وما فيها من

أكواخ وجواسق ، وعلى غضون الأشجار وفروع النبات ذلك اللون الذهبي الرائع ، فخيل إلى حمدان أنه يسير في عالم جديد غير ذلك العالم الذى سار فيه حين خرج من كوخه يؤم القرية في حاشية الصباح .

وما كان هذا المنظر بجديد على حمدان ، فطالما رآه في ساعة الأصيل وهو يسير على هذا الطريق عينه من القرية إلى المزرعة ، دون أن يثير في نفسه هذا الإحساس الغريب على هذا الوجه من القوة والوضوح . ولكنه كان يشعر حينئذ بأنه قد استحال شخصا جديدا منذ اتصل بالشيخ والتاجر وعرف منهما من أسرار الحياة وأحوال الناس ما عرف ، فلعل شعوره بهذا التبدل العجيب في نفسه هو الذى فتح عينيه ساعتئذ على ما في منظر الكون في وقت الأصيل من الغرابة والروعة .

وكان عبدان قد وجد في نفسه شيئا من القوة والنشاط ، فنهض عن فراشه وخرج يتفقد عمل الأجيرين في المزرعة ، فلما رأى حمدان قادما أقبل يسعى إليه . فعنفه حمدان على خروجه وهو بعد واهن القوة . فقال له عبدان : « كلا يا حمدان إنني الآن بخير ، وما عدت أشكو شيئا » . فسر حمدان لما رأى من برئه وخفته ، وانطلق معه صوب الكوخ ، واستقبله أهله فرحين مستبشرين بمقدمه كأنما كان ضائعا فوجدوه .

وما كاد يخلع جبته حتى أقبلت عليه أمه وزوجته وأخته يسألنه هل وجد أثرا لعالية أو سمع عنها نبأ جديدا . فجعل يقص عليهن وعلى عبدان ما وقع له في ذلك اليوم حتى إذا وصل إلى خبر التاجر والشيخ أمسك عنه ، واكتفى بأن حدثهم أنه اتصل بجماعة من العيارين ، وعرف منهم أن عالية في قصر ابن الحطيم بالكوفة قد

اختطفها ثمامة له ، وأن الذين كانوا مع ثمامة ليسوا من العيارين بل من غلمان ابن الحطيم ، وأن العيارين وعدوه بمساعدته في استنقاذ أخته .

وقد تألموا جميعا لمصير عالية ، وطفقوا يلعنون ابن الحطيم ، ويدعون عليه وعلى ثمامة إلا أنهم وجدوا شيئا من الطمأنينة لما تجدد عندهم من الأمل في استرداد عالية ، فباتوا تلك الليلة يحلمون برجوعها.

إلا راجية فإنها أرقت وباتت تتقلب على فراشها والهواجس تلعب بها، فقد آلمها ما ظهر من ثمامة من الخسة والنذالة ، إذ اشتغل قوادا لابن الحطيم حتى تبرأ منه العيارون ونذروا دمه . ولكنها تشعر بنسمة من الارتياح تتسلل إلى قلبها لأن ثمامة ما اختار عالية دونها لحب أو إعزاز . ثم انتقل خاطرها إلى عبدان فجعلت تتحسر إذ خاب أملها في اجتذابه إليها ، فما زاده غياب عالية إلا تعلقا بها ونفورا من راجية على فرط تحببها إليه . وعنايتها به في أيام مرضه . فلتعد عالية على الرحب والسعة فما في غيابها أى نفع لها ، وإنها بعد لفي شوق إلى رؤية أختها الجميلة .

وطار بها الخيال إلى قصر ابن الحطيم ، وأخذ يصور لها ما فيه من نعيم ومتاع فقالت لنفسها : « إن عبدان مستهام بعالية يذوب شوقا إليها وينفر مني ولا يطيق وجهي . فلولا كنت مكانها في قصر ابن الحطيم فيجتمع شملها بشمل حبيبها وليكن مصيرى هناك ما يكون ، فداء لأختي وقل لها الفداء ! » .

وما كاد عبدان يشعر بالإبلال من علته حتى عاد إلى القرية ليقيم في داره ويفتح حانوته ، إلا أنه كان يلتقي بحمدان دائما ولا ينقطع

عنه يوما واحدا . وظل حمدان أياما يكتم عنه قصة انضمامه إلى العيارين ثم لم يجد بدا من إخباره بذلك دون أن يفضي إليه بسر الشيخ بهلول ولا بسر صديقه التاجر عبد الرؤوف . وإن عبدان ليرى اتصال حمدان بجاره عبد الرؤوف واجتماعهما بحضوره تارة وفي غيابه أخرى ، فلا يعدو ذلك عنده أنها صداقة قد تولدت بينهما من سابق الصلة التي بين عبدان و عبد الرؤوف ، ثم قواها ما يبديه عبد الرؤوف من التألم لخطب عالية والاهتمام بأمرها . أما أهل بيته فظلوا يجهلون حقيقة أمره ، وإن نكروا شيئا من التبدل في طباعه وعاداته ، ولحظوا كثرة خروجه ليلا وتأخر مجيئه إلى ما بعد منتصف الليل ، وأحيانا إلى قرب طلوع الفجر ، ونكروا كذلك وجود الأسلحة الماضية عنده ، وتقلده بعضها عند الخروج ، وإن كان يوهمهم أنه يفعل ذلك كله سعيا لاستنقاذ عالية . ولحظوا امتلاء يده بالمال وسخاءه في الإنفاق عليهم ، حتى رفع عيشهم وحسن ما يأكلون وما يلبسون ، وكثر اعتماده على الأجراء والأجيرات في عمل المزرعة دون أن يشترك معهم أو يشرك أخته وزوجه في العمل إلا قليلا ، فإذا قيل له في ذلك من غير أهله قال لهم إنه أصبح شريكا لعبدان في تجارته فلذلك نصيبه في ربحها . أما أهله فكان يقول لهم : « هذا رزق ساقه اللّه إلينا من فضله ، فكلوا واشربوا ولا تسألوا عما لا يعنيكم » فكانوا يتعجبون من أمره ويسكتون .

وكان يحسن إلى أجرائه ويعطف عليهم ويعطيهم أجورا أفضل مما يجدونه عند غيره ، فكانوا يحبون العمل عنده ويجتهدون فيه ، فكان إذا رأى منهم ذلك تنهد وقال في نفسه : « ويحكم ، ما يجني من اجتهادكم هذا إلا اللعين ابن اللعين » .

وما انقضت ثلاثة أشهر منـذ اشـتغال حمـدان بالعيـارة حتـى صـار يعرف سننها وأسرارها وحيلها وخططها ، وبرع في ركوب الخيـل كرا وفرا ، وأتقن الرماية وسائر فنون القتال . وسرعان ما تقدم عنـد جماعته وعرف بينهم بالبطولة والإقدام ، فكـانوا يعتمـدون عليـه فـى المهمات . وكأنما وجد في هـذه الحيـاة الجديـدة الحافلـة بالمغـامرات العظيمة والمفاجآت العجيبة تعزية له عن مصـاب أختـه ، فيهـا مضـى الهارب من شر يطارده إلى أى ملاذ يصل إليـه ، لا يخـاف فـى طريقـه شيئا لعلمه أنه لن يكون أهول مما خلفه ، فكان ذلك سر نجاحه الباهر في هذا اللون الشاق من ألوان الحياة ، وبـه اسـتطاع أن ينسـى همـه إلى حين .

٩

أما عبدان فلم يجد مهربا مـن همـه غـير عملـه الممـل فـى حانوتـه الصغير ، لا يحصى ما يخرج منه وما يدخل إليه ، ولا يدرى كم يربـح وكم يخسر ، ولا يبالى أكثر الشارون منه أم قلوا ، ويقضى جل وقتـه بالجلوس إلى جاره عبد الرؤوف يسـتريح بالشـكوى إليـه ، حتـى إذا لقى حمدان فى حانوته أو حانوت جاره أو فى المزرعة سأله ما فعل فى شأن عالية ، وماذا تم من سـعيه فـى اسـتنقاذها . فيعللـه حمـدان بـأن ذلك سيتم وشيكا ، ثم يشرح لـه مـا يقـوم دون ذلـك مـن العقبـات ويوصيه بالاصطبار قليلا حتى ينجح التدبير الذى يريد القيـام بـه مـع جماعته لمباغتة حراس القصر واقتحامه . أو مغافلتهم والتسلل إليه ثـم الفرار بعالية . فكان عبدان يطوى صدره علـى ألمـه ولا يقـول شـيئا . حتى عيل صبره من الانتظار وضاق صدره بمطاولة حمدان فقـال يومـا

وقد اختليا فى دار عبدان وليس معهما أحد : « بل نسيت أختك يا حمدان وشغلك عنها هؤلاء العيارون وما تغنم من كسبهم الحرام » .

فهم حمدان أن يثور على ابن عمه لهذه الكلمة الجارحة ، ولكنه آنس من شدة التياعه ونفاد صبره ما جعله يشفق عليه فقال متلطفا : « لا والله يا ابن عمى ما نسيتها ، وما خالطت هؤلاء القوم إلا من أجلها لعلى أستنقذها بعونهم وبربحهم » .

ـ فأين هذا العون وهذى الربح ؟ .

ـ أحسبنى قد حدثتك بكثير مما فعلنا ، لقد حملنا حملات موفقة على ذلك اللعين ابن الحطيم فنهبنا دوره ونقبنا مخازن غلاله وسطونا على قوافله ورزأناه أموالا جسيمة ، ولن ندعه حتى نلصق أنفه بالرغام .

ـ فهل أفردتم ابن الحطيم بذلك ؟ إنكم لتسطون على غيره كما تسطون عليه .

ـ نعم فكل أولئك من طغاة المال ، وقد آلينا أن نحارب طغيان المال حيث كان .

ـ فما صنعت شيئا ما تركت أختك قاعدة فى قصر ابن الحطيم ، يفعل بها ما يشاء من المنكر وأنت لاه عنها بالسطو على أمواله مع عصابتك . ووالله ما ترزأون من ماله بما تفعلون إلا مقدار ما يرزأ الطائر من النهر العظيم يغمس منقاره فيه . إن هؤلاء العيارين إنما غرضهم المال ، فلتجعل أختك ليلة واحدة غرضك ! .

ـ إن اقتحام القصر ليس هينا كما تظن .

ـ إن عجزتم عن ذلك فدعنا نشكه إلى السلطان .

- لن يجدينا ذلك شيئا ، فوالى الكوفة وعامل القرية ومن دونهما من أولى الأمر كلهم صنائع لابن الحطيم .

- فلنفضحه ولنعلن سوء عمله فى كل مكان .

- إن نحن فعلنا هذا فسيأخذ ابن الحطيم حذره وينقلها من قصر الكوفة إلى مكان مجهول فلا يبقى لنا إليها سبيل ، ولكن أمهلنا بضعة أيام أخر فسترى ما يسرك .

كان حمدان قد تأثر من كلام ابن عمه وشعر بأنه قد فرط حقا فى جنب أخته ، فكلم جماعة العيارين كلاما شديدا فى هذا المعنى ، وهددهم بالانفصال عنهم إذا لم يعجلوا باستنقاذ أخته ، فرفعوا أمره إلى رئيسهم فتولى تدبيره بنفسه ، فبث عيونه لرصد حركات ابن الحطيم حتى علم أنه سيخرج بحريمه إلى جوسق له بقرب النجف ، فندب فرقة من أشد رجاله وأمهرهم فيهم حمدان ، فاقتحموا الجوسق ولم يكن معه إلا قليل من الحرس فكتفوا أيديهم وقتلوا واحدا منهم هم بالمقاومة والبطش ، ثم اندفعوا فى البيت فوجدوا ابن الحطيم سكران بين قيانه لا يكاد يعى ما يدور حوله وهن يسقينه ويرقصن بالدفوف والصنوج بين يديه .

وما وقع بصر حمدان على وجهه الأبيض وشعره اللامع المرجل حتى عرفه ، فرفع سيفه وهم بقتله فاعترضه جماعته ومنعوه من ذلك وذكروه بأوامر الرئيس القاطعة بألا يقتلوا إلا من قاوم ولا يتعرضوا للنساء ، فأطاع حمدان على مضض .

وتصايح النسوة حين رأينهم واستولى عليهن الذعر فتكأكأن على سيدهن يلذن منه بركن ضعيف . فصاح فيهن قائد الفرقة بأن يسكتن وألا خوف عليهن ما بقين فى مكانهن ولزمن السكوت ، فخضعن

للأمر طائعات وجلات . وقام أحدهم بالسيف على رأس السيد المخمور وقد أيقظه الذعر من خماره فجعل ينظر إليه فاغرا فاه وفرائصه ترعد .

وتفقد حمدان أخته فما وجدها بينهن ، فانطلق ببعضهم إلى الغرف الأخرى يتفقدونها ، ووجدوا إحداها مغلقة فاقتحموا بابها فإذا مخدع وثير الفراش يتضوع الطيب فيه، وإذا امرأتان إحداهما جالسة وعليها حلة لا زوردية والأخرى قائمة على رأسها تمشطها وتزينها ، فهبتا مذعورتين ووقف حمدان لحظة كالمذهول ، ثم تقدم إلى أخته فتراجعت خائفة فحسر لثامه فاندفعت إليه وهمت أن تصيح باسمه لولا أنه أشار إليها بالصمت . ونظر حوله فوجد عباءة من الخز فألقاها عليها وانطلق بها . وما هي إلا لحظات حتى فرغ القوم من نهب ما في الجوسق من النفائس وسلب ما على القيان من الحلي ، فقفزوا على جيادهم فانطلقوا بها كالريح في جنح الظلام . وخشي ابن الحطيم من افتضاح أمره فلم ينه إلى السلطان إلا أن جماعة من العيارين قد اقتحموا جوسقه فنهبوا ما فيه . وقد غلب على ظنه أن حمدان هو الذي أوعز إلى العيارين باسترداد أخته عالية ولكنه لم يشأ أن يتعرض له لئلا تنكشف فضيحته .

١٠

رجعت عالية إلى أهلها ففرحوا بها أشد الفرح كأنما ماتت فبعثت من قبرها حية ، ولكنها كانت تبدى الفرح معهم وتخفى فى نفسها هما لاعجا لا انفكاك لها عنه ولا حيلة لها فيه . وكذلك كان عبدان فما كاد يقضى حظه من فرحة اللقيا حتى دب إليه الهم وساورته الريبة ولعبت به الظنون والوساوس فأخفى كل ذلك جهده عمن حوله ، بيد أن هذا الهم المكنون ما لبث أن تسلل من قلبهما فدب فى قلوب الآخرين حتى خيل إلى بعضهم أنهم كانوا قبل رجوعها أسعد منهم بعده .

وانتبهوا ذات صباح فلم يجدوا بينهم عالية ، فكأنها كانت حلما سنح لهم فى المنام ثم انطوى عند اليقظة . وكان حمدان غائبا تلك الليلة عن داره فى إحدى خرجاته البعيدة مع العصابة ولم يعد إلا فى الليلة التالية ، فذهب يبحث عنها فى كل مكان فلم يجد لها أثرا .

واتفقوا جميعا فى التألم لاختفائها ، ولكنهم اختلفوا فى تقديره وتفسير ما دفعها إليه ، بين رفيق بها يلتمس لها المعاذير ، وشديد عليها يرميها بأشنع التهم ، ومتردد بين بين لايدرى ماذا يقول . وكان يجمعهم من وراء ذلك إحساس غريب بأنهم قد فقدوها هذه المرة إلى الأبد فلن يروا لها وجها آخر الدهر .

وكان عبدان يشعر دونهم بأن بعض التبعة فى اختفائها واقع عليه ، فهو يذكر أن عالية جلست إليه ذات عشية فأخذت تتلطف معه وتسأله عن حال تجارته كأنها تقول له متى زواجنا ، وأنه رد عليها بأجوبة مقتضبة تنم عما فى قلبه من التردد فى قبولها زوجة له بعد انثلام شرفها فكأنه بذلك يؤاخذها بأمر لا ذنب لها فيه . وإنه

ليعلـم أن عاليـة دقيقـة الحـس تنفـذ عيناهـا إلى ما يجـول فـى خـاطر جليسها فتستغنى به عن كلامه . فـلا ريـب عنـده أنهـا لما رأت منـه ذلك آثرت الفرار بنفسها خشية أن يتزوجها على غير رغبتـه مجاملـة لأهلها وسترا لعرضها . كان هـذا الشـعور بالتبعـة ثقيـل الوطـأ علـى عبدان ، وكان مما يزيد عذابه به أنه لا يستطيع أن يكاشف به أحدا .

واشتد الحزن بأمها فأسلمها إلى مرض لم تقـو شـيخوختها الواهنـة على احتماله ، فمـا لبثت أن قضـت نحبهـا دون أن تعـرف أن ابنهـا حمدان الأكار قد انقلب عيارا . ولم يجد حمـدان بعـد وفـاة أمـه التقيـة الصالحة من سبب يدعوه بعد إلى كتمان مهنتـه الجديـدة عـن أهلـه ، فباح لهم بسرها فما عجبوا له ولا دهشوا منه كأنما كانوا علـى علـم به من قبل .

١١

وتنوسى أمر عالية شيئا فشيئا كأنما ماتت مع أمها فـي يوم واحـد فحزنوا عليهما ، ثم ما لبث الحزن أن بلى بعد حين . ولكن الأيـام لم تستطع أن تبلى حقد حمدان وعبدان على ابن الحطيم ، فظلا يفكـران كيف ينتقمان منه وكان عبدان أشدهما في ذلك . وكانا يعلمان أن الناس في قرية الدوار وما حولها يعرفون كثيرا من فضائح ابن الحطيم وقبح سيرته ، ولكنهم لا يجرءون على الجهر بإنكارها خوفا مـن قـوة جاهه واتقاء لأذاه . فاتفقا على أن ينتـدب عبـدان لإعـلان فضائحـه على رؤوس الأشهاد وتأليب الناس عليه ويبقـى حمـدان ردءا لـه مـن ورائه .

فطفق عبدان يستعدى الناس على ابن الحطيم وينشر فضائحه فـي كل ناد ومجمع ، فكـان يقـف علـى بـاب الجـامع فيصيـح : يامعشـر المصلـين ـ!أيرضيكـم أن يعمـد هـذا الغنـى الفـاجر فيخطـف بنـاتكم وأخواتكم ليفجر بهن في قصـره ؟ إن هـذا الفـاجر قواديـن يطوفـون بالقرى والدساكر يستجيدون له الفتيات فإذا عثروا على فتاة وضيئة أوعز إلى غلمانه فاختطفوها وحملوها إليه . أيها المسلمون ! واللّه لـو كنا في دار الكفر لما فعل بنا شر من هذا . ويلكـم لا تكونـوا كمـن قال الله فيهم : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئـس مـا كـانوا يفعلون » . وكان يقف على باب حانوته ويصيـح : « أيهـا النـاس ، هذا ابن الحطيـم يرسـل غلمانـه فيخطفـون لـه حرائـر المسـلمين مـن رحالهن ، ألا فليحذر كل امرىء منكم أن يعود إلى رحله فيجد أختـه أو ابنته قد اختطفها غلمان ابن الحطيم » .

وتناقل الناس أخبار ابن الحطيم وتجاهروا بحكايتها عن عبدان التاجر فصارت حديث المجالس و الأسمار . وشق ذلك على ابن الحطيم فأوعز إلى رجال السلطان فضربوا عبدان وعزروه وتوعدوه بالعقاب الشديد إن عاد إلى التشهير بابن الحطيم . فكف عبدان عن التشهير به جهارا ولكنه استمر يحرض عليه ويندد بعمله سرا ، وبلغ ذلك ابن الحطيم فأرسل إليه من غلمانه من هدده بالفتك فما بالى عبدان بذلك إلا أنه أخذ حذره فصار يحمل السلاح دائما فى ثيابه . وكان ابن الحطيم قد صب نقمته على حمدان أيضا لقرابته من عبدان فطرده من العمل فى مزرعته ، فانتقل حمدان بأهله إلى قرية الدور فسكنها وابتاع له أثوارا فكان يحمل عليها غلات السواد إلى القرية ، متخذا ذلك عمله فيما يظهر للناس ليخفى به عنهم أنه عيار ، فإذا كان الليل ارتدى زى العيارين وخرج مع عصابته كعادته . وكان كثيرا ما يعرج على دار عبدان فيتحدث معه قليلا قبل انطلاقه إلى جماعته .

وإنه لفى دار عبدان ذات ليلة فإذا أحد أتباع ابن الحطيم طرق الباب ومعه شرطيان ليقبضا على عبدان بدعوى أنه قذف ابن الحطيم على مشهد منهما ، فأخذا يجرانه وهو يتأبى عليهما ـ وكان حمدان قد اختبأ فى الدار لما سمع الطرق ـ فلما سمع المشادة برز لهم وهو شاكى السلاح وقد ثار غضبه فجرد سيفه وأهوى به على التابع فأرداه . فلما رأى الشرطيان ذلك أرسلا عبدان ودلفا إليه فما أمهلهما أن فلق هامة أحدهما بالسيف ووثب على الآخر فطرحه على الأرض ثم ذبحه .

ووقف حمدان وعبدان على الجثث الثلاث ملقاة أمامهما فخشيا المغبة وحارا ماذا يصنعان . ولبثا برهة يتشاوران ويقلبان وجوه الرأى حتى استقر عزمهما آخر الأمر على أن يتركا الجثث مكانها ويبرحا الدار ، فأما عبدان فيختفى ويترك القرية إلى بلد بعيد لا يعرفه فيه أحد ، وأما حمدان فيبقى عند أهله يعولهم ويرسل لعبدان سرا بعض ما يحتاج إليه من نفقة إن تيسر له ذلك .

وأسرع حمدان فانطلق بابن عمه إلى بيت أحد أصحابه العيارين ، فأخذ من عنده ثيابا مما يتزيى به طلاب العلم فأمر عبدان فلبسها ثم انطلق به خارج القرية فانتظرا عند تل هناك ، فإذا بصاحبهما العيار قد وافاهما على جواد مطهم فانتبذ حمدان بعبدان ناحية فتناجيا قليلا ثم عانقه حمدان وودعه . ثم دنا من الفارس العيار فقال له : هذا ابن عمى فأردفه معك وانطلق به فى طريق واسط حتى تنزله حيث يبلغ بك السير عند الثلث الأخير من الليل فتدعه هناك وتعود . فلم يقل العيار شيئا وإنما مد يده إلى عبدان يساعده على امتطاء الجواد خلفه ، فلما استقر عبدان فى موضعه همز العيار جواده فاضطرب فى عينى حمدان ثم اختفى .

السفر الثانى



﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه * فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ .

(قرآن كريم)

١

في ليلة من ليالي بغداد الشاتية ، وقد خلت الشوارع من المارة ، وأطفأت مصابيح البيوت ، وأوى الناس إلى مضاجعهم وهم يرتجفون من تحت الأغطية واللحف الغليظة فلا ينجيهم من عذاب البرد إلا أن تثقل جفونهم فيناموا ـ كان نور ضئيل ينبعث من مصباح تخفق ذبالته في غرفة صغيرة بخان كبير يقيم فيه الغرباء من طلاب العلم ببغداد على مقربة من جامع أبي جعفر المنصور ، وقد جلس اثنان من الطلاب يتدارسان الفقه ويتباحثان في مسائله بهمة وحماسة ، لا يكترثان بذلك البرد القارس تضاعف من شدته الريح البليلة التي تتسرب إلى غرفتهما من خصاص بابها ونوافذها ، كأنما يستدفئان بلهب ذلك المصباح الضئيل، أو يجدان في حماستهما المتوقدة للعلم ما يرد عنهما مس الزمهرير .

وإنهما لكذلك إذ اختلفا في مسألة فاشتد الجدل بينهما دون أن يقدر أحدهما على إقناع أخيه بصواب رأيه وسداد حجته ، ثم اتفقا على أن يحتكما فيها إلى جارهما الأهوازي لحسن رأيهما فيه واعترافهما ببراعته وسعة اطلاعه ونفاذ ذهنه في الفقه ، ولا سيما في ذلك الباب الذي اختلفا فيه .

ولما عزما القيام إليه استدرك أحدهما قائلا : « ولكن عبدان قد نام فكيف نزعجه من نومته ؟ » فأجابه الآخر مصمما على عزمه :

« إنه يحب المناقشة فلا بأس إن أيقظناه »

ـ لم لا تؤجل سؤاله إلى الصباح ؟

ـ لا واللّه لا أستطيع الليلة أن أنام دون أن أسأله وأعرف رأيه .

ـ أما إذا صممت على الذهاب إليه الآن فهيا بنا .

وقام الطالبان فألقيا عليهما بعض غطائهما من الوبر ثم خرجا من باب غرفتهما ووقفا على باب الغرفة المجاورة فقرعاه قرعا لطيفا ، فلم

يجيبهما أحد ، ثم قرعاه أشد من الأول فما سمعا حسا ، فهما أن يتراجعا لولا أن فتح الباب وأطل وجه صاحبهما يتأملهما دون أن يقول شيئا ، فقال أحدهما : « هل أزعجناك من نومك يا عبدان ؟» وإذا صوت عبدان يقول : « خالد ومحمد ! ما خطبكما ؟ خير إن شاء ا لله » فأجابه أحدهما : « إنا اختلفنا فى مسألة فى باب الزكاة فأردنا أن نرى رأيك فيها » . فقال عبدان : « مرحبا بكما . . . سأ وقد لكما المصباح » .

فقال أحدهما : « كلا بل تأتينا أنت إلى غرفتنا فما زال المصباح فيها مضيئا » .

ذلك ما كان من عبدان بعد أن قضى زهاء عام يطلب العلم ببغداد ، وقد تغير زيه وسمته وطريقته فى المشى وفى الكلام ، فلو رآه أحد معارفه فى قرية الدور لما عرفه إلا أن يدله عليه صوته الذى ظل كما كان لم يتغير فيه شىء .

وكان قد قضى عامين فى واسط حيث استقر به المقام عقب فراره من قريته متنكرا فى زى طلاب العلم ، فاشتغل بطلب العلم محمولا عليه فى أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن لذ له ذلك فلازم شيوخ العلم بها وجد واجتهد فى الدرس والمطالعة يساعده فى ذلك فرط ذكائه وتوقد ذهنه وصفاء قريحته ، فما تم له عامان حتى ظهر نبوغه وتقدمه على الأقران فى كل ما اشتغل به من فروع العلم ولا سيما فى الفقه . وعجب إذ ذاك كيف اشتغل قبل ذلك بالفلاحة ثم بالتجارة وعنده هذا الاستعداد القوى للتبريز فى العلم ، وحمد تصاريف الأيام التى دفعته إلى هذا السبيل من حيث لم يقصده ولم يعلم أن فيه الخير له وقال فى نفسه : « حقا إن الله فى كل ما قضى لحكمة » وقد أنساه تلهفه على العلم كل شىء سواه ، ولولا خوفه أن يحال بينه وبين العلم إذا انكشف أمره وقبض السلطان عليه أخذا بجريرته ، لنسى احتراسه فى التخفى والتنكر . بيد أنه لم يستطع أن ينسى ابن عمه حمدان ، إذ كان دائم

التذكر له والتفكير فيه ، لا لأنه يحبه أكثر من سواه من أحبابه ومعارفه ، بل لما يذكره به من المسائل والآراء التى كان حمدان يقابسه بها ويناقشه فيها كلما اختلى به عن الناس ، فقد أدرك اليوم أن تلك المسائل والآراء كانت أول زاده من العلم .

وإنه ليقرأ اليوم فى باب الزكاة أو باب المزارعة والمساقاة أو باب الأجير أو باب الجعالة أو باب الإقراض أو غير ذلك من الأبواب التى تبحث فى معايش الناس ومعاملاتهم وترشد إلى تنظيمها على وجه يكفل العدل والخير لجميع الناس على اختلاف طبقاتهم ويقطع دابر الظلم عنهم ، فيرى وجه حمدان يطل عليه من خلف السطور ، ويكاد يسمع أقواله وهو يشرح ما يلقى الفلاح من ظلم مالك الأرض واستئثاره بثمرات كده ، والعامل أو الصانع الأجير من ظلم صاحب العمل ، والفقير من قسوة الغنى وامتناعه عن أداء حقه إليه ، وعندهم كتاب الله يأمر بالعدل والإحسان ، فأين العدل والإحسان ؟ وقد التزم السلطان تنفيذ أحكامه على الغنى والفقير والقوى والضعيف ، فأين ما التزمه ؟ وهل يبقى له حق الطاعة على الناس وقد أخل بما أوجب الله عليه من رعاية مصالح الناس وضمان حقوقهم ودرء الظلم والمفاسد عنهم ؟ وما كان حمدان إلا فلاحا جاهلا ولكنه فقه معنى العدل فى مختلف صوره فذهب يلتمسه بين الناس وبين الراعى والرعية فلم يجده ، فكيف به لو قدر له أن يتفقه فى الدين ويقرأ هذه الأبواب التى تفصل العدل الذى أمر الله به تفصيلا ؟ وقد أحس عبدان من أول ما بدأ يدرس العلم بانجذاب قوى إلى هذا الفرع من فروع الفقه فكان أشد به اهتماما وأمضى فيه ذهنا وأحفظ لمسائله وقضاياه مما سواه ، حتى كاد يختص به دون غيره ، وحتى لامه بعض شيوخه على ما رأوا من قلة اهتمامه بالفروع الأخرى ، فكان يقول فى سره : « مالى ولأبواب الحيض والاستحاضة والطلاق والعدة أضيع فيها وقتى وأشغل بها قلبى عن فهم

القسطاس الذى عليه مدار حياة الناس وبه قوام سعادتهم ؟» ولما ضاقت به واسط ولم يجد فيها ما يرضى طموحه ويشفى غليله رحل عنها إلى بغداد كما كان يفعل ألوف من أمثاله فى كل عام ، يأتون من الآفاق ويقطعون الفراسخ سعيا على أقدامهم ، أو يضربون أكباد الإبل ليتعلموا فى مدينة العلم والعلماء أو يستزيدوا علما.

٢

ولم يكد يخالط الطلاب المقيمين فى الخان وفى غيره ، ويجالس العلماء فى حلقات التدريس ويباحثهم فى المعضلات ، حتى عرفوا عبدان الأهوازى ـ وكان هذا هو اللقب الذى انتحله لنفسه منذ جاء إلى واسط ـ واشتهر بينهم بعلو الهمة والجد فى التحصيل والفطنة الخارقة والذكاء النادر . وكان أول مقدمه إلى بغداد قد بهرته وفرة حلقات العلم فى مساجدها العامة ، فكان يختلف إليها كلها ليحضر جهد ما استطاع منها، فيأخذ عن هذا العالم وعن ذاك ، وكلهم من الفطاحل الذين طالما سمع من قبل بأسمائهم وتواليفهم حين كان فى واسط ، ثم أدرك بعد ذلك أن المعارف والعلوم أوسع من أن يحاط بها وأن السعى إلى ذلك عمل ضائع وجهد غير نافع . وتمثل له خيال حمدان وأخذت أقواله ترن فى أذنيه فيقول لنفسه « لم لا أقصر جهدى على القسطاس الذى عليه مدار حياة الناس وبه قوام سعادتهم ؟» فصار بعد ذلك ينتقل فى الحلقات ولا يشهد إلا الدروس التى تتصل بما يريد عند هذا الشيخ أو ذاك وكان الشيخ من هؤلاء يعجب بحسن تلقى عبدان وغوصه على الدقائق وبراعته فى المناقشة . فكان كثيرا ما يشفق على غيره من الطلاب أن يستأثر عبدان بانتباهه دونهم ، ثم أخذوا يضيقون بمناقشاته حين بدأ يميل عن النقاش النظرى فى المسائل إلى السؤال عن مدى تطبيقها فى أحوال الناس ومعاملاتهم . فكان يقول لهم مثلا « ألا ترون

أن الأغنياء لو أدوا حق الزكاة فى أموالهم لما بقى فى أرجاء الدولة من يجوع أو يعرى ؟ »

فيقولون له : « بلى » فيقول لهم « ففيم يعرى الفقراء ويجوعون ؟ لم ترك هذا الركن معطلا ؟ » فيقولون له : « ماذا نصنع ؟ قد فسد الزمان. إن علينا تبيان الأحكام وعلى غيرنا تنفيذها ، فإن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » فيقول لهم « فلم لا يقوم أولو الأمر بتنفيذه وعقاب من يخالفه ؟» فيقولون له « هذا سؤال يوجه إليهم لا إلينا . نسأل الله أن يخمد نيران الفتن فى أطراف الدولة حتى يتفرغ رجالها للنظر فى إصلاح أحوال الناس » فإذا قال لهم : أليس عليكم أن تنكروا هذا الفساد وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ؟ » قالوا له : « حسبك ياعبدان دعنا نمض فيما نحن فيه من درسنا هذا » .

وذات يوم استبقاه أحد الشيوخ ليكلمه وحده بعد انصراف الناس من درسه ، وكان قد بعل بمناقشات عبدان تلك ، فلما اختلى به قال له: ويلك يابنى أتريدنا أن نفعل ما تقول فيحبسنا السلطان وإن لنا لأولادا فمن ذا يعولهم إذا حبسنا الخليفة ؟

فقال عبدان: «لكن علام يحبسكم »؟

ـ كما حبس صاحبنا أبا البقاء البغدادى . ألم تسمع بأمره ؟.

وكان عبدان قد سمع شيئا عن هذا العالم واشتاق إلى معرفة خبره ، ولكنه وجد الناس يجتنبون الكلام عنه خيفة السلطان ، فأحب أن يسمع قصته من الشيخ فقال له : «لا والله ما أعرف قصته »

ـ متى قدمت إلى بغداد ؟.

ـ منذ عام .

ـ إذن فما شهدت أيامه . إنه حبس قبل مجيئك.

ـ فيم حبسوه؟

- كان يجمع الفقراء ويسير بهم للمطالبة بحقهم من الأغنياء، ويجمع العمال والصناع والأكارين ويحرضهم على المطالبة برفع أجورهم وزيادة نصيبهم من ريع الأرض أو ريع العمل .

- وماذا يغضب السلطان فى مثل هذا ؟

- إن الموفق أخا الخليفة رجل قوى ، وقد وجد الدولة مضطربة فوضى فأراد أن يرجع إليها قوتها واستقرارها ، فعنى بكسر شوكة الأجناد الترك، وبالقضاء على فتنة يعقوب الصفار فى سجنستان وفتنة صاحب الزنج فى البصرة ، فأغضبه أن يثير أبو البقاء شغبا فى العاصمة يشغل الدولة عن التفرغ لمهامها ؛ ولذلك حبسه الموفق وفرق جموعه .

فسكت عبدان قليلا ثم قال : « قد كان على الموفق أن ينصف هؤلاء من ظالميهم ، إذن لبطل الشغب ولكانوا قوة معه ». فحرك الشيخ رأسه متعجبا من ذكاء عبدان وقال له : «كانوا يطالبون السلطان أيضا بتخفيف الضرائب والرسوم وإسقاط بعضها جملة . ولا يستطيع الموفق أن يوافق على هذا وهو محتاج إلى الأموال للقضاء بها على الفتن . ثم لا تنس أن الأغنياء ذوو نفوذ ولا بد له من مصانعتهم ». فتمثل له وجه حمدان حينئذ وتذكر ما كان يقول دائما عن سلطان المال ووجوب محاربته إذا أريد إصلاح الأحوال وذلك لعظم سيطرته حتى على السلطان نفسه . وا لله لقد صدق حمدان فيما كان يقول .

ثم شكر الشيخ على بيانه ، ولما أراد الانصراف قال له الشيخ : «هذا حديث خاص بينى وبينك ، فإياك يابنى أن تقول لأحد إننى حدثتك به »

وقد كف عبدان منذ ذلك اليوم عن مناقشاته المحرجة للشيوخ ، ثم انقطع عن حضور حلقاتهم إلا قليلا ؛ فقد رأى قلة غنائها ، واشتاقت نفسه إلى غزو ميادين أخرى للنشاط العلمى ببغداد . وكان يسمع أن للعلماء والأدباء وعشاق الحكمة مجالس خاصة يتسامرون فيها ،

ويتقابسون نفائس العلم وطرائف الحكمة ، وقد يتذاكرون أخبار الخاصة والعامة ، ويخوضون في شئون الدولة وسياسة الخليفة وأعمال الوزراء والقواد ، وفي الفتن القائمة وما يبلغهم عنها من جديد الأخبار ؛ فسعى عبدان طويلا يلتمس السبيل إليها فعزت عليه حتى اتصل به رجل من الأهواز تدل ملامح وجهه على أنه فارسي الأصل ، وتنم هيئته وثيابه عن السراوة وحسن الحال . وكان عبدان يراه أحيانا يشهد بعض حلقات الدرس ، ويجلس في أخريات الناس ، ويصغى إلى الدرس ، وبيده سبحة يحرك حباتها وهو مطرق قلما يرفع عنها رأسه . وربما التفت إليه عبدان فرآه ينظر إليه . فإذا التقى بصراهما ظهر في عينيه كأنه يريد أن يقول له شيئا ، ثم لا يلبث أن يخفض بصره .

وإنه لجالس في غرفته بالخان ذات يوم إذ حضر الرجل إليه ، فسلم عليه باسمه ، وعرفه بنفسه قائلا : « أنا جعفر بن أحمد الكرماني ، جئت أزورك لأنك أهوازي مثلي » .

فرحب به عبدان وأوسع له . ولما استقر بهما المجلس سأله الرجل : « من أي حي في الأهواز أنت ؟ » فتردد عبدان قليلا . فاستدرك الرجل قائلا : «أستغفر الله .. أردت أن أسألك: متى عهدك بالأهواز؟» فأجابه عبدان متلعثما : « إني مارأيت الأهواز قط ، و إنما هذا لقب أسرتنا » فأظهر الرجل الاقتناع بجواب عبدان . وقال له : « لاضير. فأحد آبائنا إذن كان من الأهواز . لقد سمعت بعض مناقشاتك في حلقات الدرس فأعجبت بذكائك ، ثم علمت أنك أهوازي فتملكني الزهو بك ، فرغبت منذ ذلك اليوم أن تكون بيننا صلة ومعرفة » فخجل عبدان من ثناء الرجل عليه وشكره على حسن ظنه به . قال الرجل : « إنك لأهل للثناء ، وإني لأرجو أن تكون لك في العلم النافع شأن! بيد أني افتقدتك في حلقات الدرس منذ حين ، فما الذي قطعك ؟ »



فشرح له عبدان خبره ورغبته فى حضور المجالس الخاصة وامتناعها عليه ، فإذا الرجل يقول له : « إنى سأوصلك إليها فلن يمتنع عليك منها مجلس » فسر لذلك كثيرا وعده من بسمات الحظ ، ولما دعاه الرجل لزيارته فى بيته لم يتردد عبدان فى قبول دعوته .

وما خطر لعبدان حين وعد الرجل بالزيارة ، ولا حين وافاه الرجل عشية ذلك اليوم عقب صلاة المغرب ليستصحبه إلى بيته ، أنه سيجد هناك مجلسا من تلك المجالس التى يشتاق إليها قلبه ، فقد رأى قوما من أسنان متفاوتة وفى هيئات مختلفة ، متكئين على الأرائك يتجاذبون أطراف الحديث ، فلما رأوه داخلا مع صاحب البيت سكتوا فحياهم صاحب البيت وقال لهم:

« قد جئتكم بعبدان الأهوازى وهو أخ لنا ، نير الذهن ، مرجو النفع، ولا شك عندى أنكم ستسرون بمجالسته » .

فقالوا : « أهلا به ومرحبا » .

ثم سماهم له واحدا واحدا ، فإذا فيهم الشاعر والأديب والعالم والفيلسوف والموسيقى و الشطرنجى والطبيب و الكحال ، ونفر من أهل الصناعة والحرفة .

وأديرت عليهم أكواب بعضها من النبيذ وبعضها من شراب الورد ، فأخذ كل واحد منهم ما يروق له ، ثم أصابوا من النقل المنثور أمامهم فى أوان جميلة من الصينى الفاخر .

ودار الحديث بينهم، فأخذوا يتباحثون مليا فى قدم العالم و خلود المادة ، وعبدان يصغي إلى آرائهم المختلفة باهتمام ، وقد أعجبه أدبهم فى الجدل والمناظرة ، إذ كان أحدهم يدلى بحجته وينقض مذهب صاحبه دون أن يصخب أو يثور . وقد جلس واحد منهم خارج الحلقة فى ركن من الغرفة وبين يديه الكاغد والمحبرة وهو منهمك فى الكتابة لا ينقطع عنها كأنه يدون أحاديثهم . ثم انقطعوا عن حديث الفلسفة ، وأخذوا

في قص الملح والنوادر ورواية الأشعار ، وما زالوا كذلك حتى جاء أوان انصرافهم قبيل منتصف الليل .

وعرف عبدان من صاحبه الكرماني أن هذا المجلس يعقد في بيته ليلة الأربعاء من كل أسبوع ، ودعاه للحضور فصار لا ينقطع عنه! وظل زمنا يكتفي بالإصغاء إلى القوم حتى زال عنه تهيبه فصار يشاركهم في الحديث .

ولم يقتصر عبدان على هذا المجلس وحده ، إذ أوصله الكرماني إما بنفسه أو من طريق أحد أصحابه إلى مجالس أخرى ذات مشارب مختلفة وصبغات متعددة ، ثم مالبث أن جره ذلك إلى الاتصال بطوائف الصناع والعمال وأهل الحرف والكناسين وغيرهم ، يخالطهم ويحدثهم في شئون أنفسهم وشئون غيرهم . وكان الكرماني يدفعه إلى ذلك ، ويشجعه عليه ويقول له : « إن العلم ليس في بطون الكتب ولا حلقات الدرس ، وإنما يوجد حيث يضرب الناس في مسالك الحياة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » وقد أفاد عبدان من ذلك علما كثيرا ، وبصرا بأحوال الناس في عصره من خاصة الخاصة إلى عامة العامة. ولم ينس عبدان أن يذكر ابن عمه في هذا الصدد فكان يقول في سره :

«ماقرأ حمدان كتابا واحدا! وما تعلم ماتعلمه إلا من هذا السبيل ...»

٣

توثقت فى خلال ذلك صلة عبدان بالكرمانى ، وزاد تعلقه بـه فصـار يكثر التردد عليه فى منزله ويتغدى أو يتعشـى علـى مائدتـه . وإنـه لعنـد الكرمانى ذات صباح وكان يوما من أيام الربيع وقـد رق النسـيم وفـاح عرف الزهر والرياحين من حديقة المنزل ، إذ قال لـه صاحبـه : هلـم بنـا ياعبدان ننزل الحديقة فإن الجلوس بها لأمتع .

وصارا إلى الحديقة فجلسا على مقعد مفروش ببساط مـن المخمـل ، فى ظل أيكة ملتفة الغصون على هيئة الأريكة يتدلى منها الزهر ، وأمامها بركة لطيفة مملوءة بالماء تحيط بها أشجار الحديقة من كـل جـانب . وبينـا عبدان يسـرح طرفـه فيمـا حولـه ويعجـب لجمـال الحديقـة وتنسـيقها ، وصاحبه ينظر إليه كالمسرور بإعجاب عبدان بحديقته ، إذ سمعـت حركـة من خلـف الأريكـة بـرزت لهمـا علـى أثرهـا فتـاة بـاهرة الحسـن رشـيقة الحركة، فلما لمحتهما أجفلت فـارتدت إلى الـوراء . فخفـق قلـب عبـدان وتحرك فى مقعده وقد بان الخجل فى وجهـه ، فـإذا الكرمـانى يقـوم مـن مقعده وينادى الفتاة قائلا « هلمى ياشهر . . ليس عندى أحد غريب .. إنما هذا ابن عمك الأهـوازى عبـدان » واختفـى لحظـة ثـم أقبـل بالفتـاة تتهادى فى مشيتها وقد تورد خداها وهى تقول بصوت رقيق : «ماكنت أعلم أن أحدا هنا فى الحديقة» . فقال لها الكرمانى : « إنمـا هـذا عبـدان الأهوازى وهو منا ولا يستحى منه » ثم التفت إلى عبدان ــ وكان واقفا قد غلبه الحياء فأرخى بصره إلى الأرض ــ وقـال لـه « هـذه أختـى شـهر ياعبدان جئت بها لتسلم عليك » . فرفع عبـدان بصـره ومـد إليهـا يـده المرتعشة فصافحها . وقال الرجل لأخته : « اجلسى معنا قليلا يا شهر». فجلس الثلاثة وبقى عبدان صامتا مطرقا لا يدرى ماذا يفعل أو يقول .

قال الكرماني وهو يضحك : « انظر ياعبدان إلى وجه شهر لترى جمال الأهوازيات لعلك أن تشتاق إلى بلدك فتتزوج إحداهن هناك » .

فما سمع عبدان ذلك حتى غلبه الضحك ، وحاول جاهدا أن يمنعه فلم يقدر ، وما كف الضحك عنه إلا حين سمع الكرماني يقول : « انظر.. أليست جميله رائعة ؟ » .

فنظر عبدان إلى الفتاة فرآها تبتسم وعيناها متطلعان كأنما تنتظران جوابه فقال : « بلى وا لله إنها لكما وصفت وأكثر » .

فاستضحكت الفتاة وقالت له وهي تكسر من جفنيها : « لو آثرت الحق لقلت إنك لن تتزوج أهوازية أبدا بعد ما رأيتني » .

قال عبدان وقد انبسطت أساريره وحلت عقدة لسانه : «صدقت».

وإذا بسحابة من العبوس بدت في وجهها ثم اختفت فى مثل لمح البصر فقالت وهى تبتسم :

ـ لأنى عنوان سيىء لنساء بلادى!

ـ كلا . . . ما هذا قصدت .

ـ فماذا قصدت ؟

ـ لم يبق لى فيهن من أرب .

ـ من أين تعلمت هذا كله يا نزيل الخان ؟

ـ من عي. . . . .

ولم يكمل عبدان كلمته إذ تذكر أنه فى مشهد أخيها فخجل وتلعثم.. ولكن الكرماني ابتسم يشجعه وقال: « ويلك إن الكلمة التى ما أكملت نطقها هي أجمل شيء فى هذه الحورية الأهوازية ! » فتشجع عبدان وقال: « فلقد صنتها عن الابتذال فى لسانى » .

قالت شهر : « هلا قلت صنتهما فهما اثنتان » .

فقال عبدان : « لكن واحدة منهما تكفى لفتنة ألف نزيل خان !»

فضمت فمها الأرجوانى الصغير بقوة لئلا يبض بالابتسام ، فجعل الابتسام يتفيض من عينيها وأسارير وجهها ثم ما لبث أن طغى على فمها فتدفق ثم سال !

والتفتت إلى الكرمانى تقول : إن صاحبك الطالب يا . . . . . يا أخى ليجيد الغزل !

فقال الكرمانى : كما يجيد المناظرة والجدل يا حبيبة قلـ ....ه ب أخيك .

ورجع عبدان إلى خانه وهو متبول القلب ، وظل باقى يومه وشطرا من ليلته لا يفكر إلا فى شهر ولا يغيب عنه خيالها . وكان عبدان قد زهد فى النساء منذ فقد ابنة عمه عالية ، ووجد فى انصرافه لطلب العلم وانهماكه فى الدرس ما أنساه ما بقى من ذكراها الأليمة فى قلبه وما شغله عن التطلع إلى غيرها بعد ذلك .

ولم يخطر بباله قط أنه سيغرم يوما بإحداهن ؛ وأنى يخطر له ذلك وشتان بين سبيل العلم وسبيل الغرام ؟ ولكن هذه الحورية الأهوازية قد قعدت له فى وجه الطريق الذى يسلكه ، وجاء أخوها الذى ما جمعه به إلا هذا الطريق فجلاها عليه ، وأتاح له أن يحادثها وتحادثه ، فأين المهرب من قدر كان مقدورا عليه ؟

ها هى ذى تتخطر فى قلبه فارعة القوام ، ممشوقة القد ، مشرئبة الصدر ، ناضجة تكاد تقول لرائيها : كلنى! لقد عرف حب عالية من قبل ، وإنها لمن أجمل من رآهن من النساء ، ولكنه ما كان يجد فيها هذا الشىء الذى يتلهب فى وجنات هذه الأهوازية ويتوقد فى عينيها ويتسعر فى كل جارحة فيها فيتضرم لها ما بين جوانحه نارا . . .

وكثر تردده على بيت الكرمانى أو بالحرى بيت شهر ، فقد صار يؤم بيتها لا بيته ـ فكانت تلقاه كلما جاء، وتجلس إليه مع أخيها ، وإذا حضر وقت الطعام شهدته معهما على المائدة .

ثم صار الكرمانى بعد ذلك لا يرى بأسا أن يخرج لبعض حاجته فيتركهما فى البيت وحدهما .

وفى غمرة هذا الشاغل الجديد لم يجد عبدان وقتا للتفكير فى أمر الكرمانى وتساهله معه فى لقاء أخته والاختلاء بها ، فاكتفى بأن حمل ذلك محمل الثقة من الكرمانى بدينه وتقواه والرغبة فى تزويجها له إذا طلب منه ذلك ، وما يدريه لعل تلك عادة الأهوازيين قبل الزواج . وبعد، فهذه متعة قد ذاقها ولم يعد يستطيع الصبر عنها ، فعلام يحاسب من ساقها إليه ؟

بيد أنه خشى على نفسه يوما أن تخون الأمانة ، وإن النفس لأمارة بالسوء ، وإن السبيل إليه لمهيأ ، وإن الإغراء به لشديد . وقد امتدت يده إلى بعض مالا يرضاه من نفسه ووجد من الفتاة مقاومة ولكنها مقاومة تغرى بالهجوم ! ! فأيقن عبدان أنه هالك لا محالة إن لم يتدارك أمره ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يتزوجها ، وقد أحبه الرجل ووثق به فلم لا يطلب يدها منه ؟ وليس بضاره أن يكون أبوها غنيا وهو فقير ، فلولا أن أباها يرغب فى مصاهرته على علاته لما خلى بينه وبينها على ذلك الوجه الغريب .

وتشجع يوما فقال له : فى نفسى حاجة أريد منك قضاءها ويمنعنى من الإفضاء بها حيائى منك .

فقال الكرمانى : « قلها ياعبدان، فوا لله إن تكن فى وسعى لأقضينها لك »

قال عبدان « فما يقدر عليها غيرك ».

ــ فأخبرنى ما حاجتك ؟

ــ أختك شهر .

ــ فهى بين يديك .

ــ أريد أن أتزوجها .

ـ لم تريد أن تتزوجها ؟

فتردد عبدان قليلا ثم قال :« لأنى أحببتها !»

فقال الرجل : « فهل منعتها عنك ياعبدان ؟ » فدهش عبدان لقوله ولم يفهم مراده فأطرق واجما .

وعاد الرجل يقول : « أليست بين يديك تراها كل يوم وتراك ؟»

فسرى عن عبدان قليلا وقال : « ولكن ذلك لا يكفينى » .

فبدره الرجل قائلا : « إن كان ذلك لا يكفيك فخذ منها ما يكفيك!».

فما سمع عبدان هذا منه حتى احمر وجهه خجلا وعراه الدهش فظل هنيهة صامتا لا يدرى ما يقول ، ثم عاد إليه صوابه فقال « إن ما يكفينى منها لا سبيل له إلا الزواج »

فضحك الرجل وقال : « ما يدعوك إلى الزواج وهى ميسرة لك بدونه ؟ »

فتغير وجه عبدان وقال له : « كأنك يا سيدى تسخر بى وتهزأ بطلبى ! ! »

فقال الرجل بلهجة جادة : « كلا وا لله ما أسخر بك ، وإنى لأعنى ما أقول » .

ـ فكيف تقول هذا الذى لا يعقل ؟

ـ لقد عقلته ولا أقول إلا ما أعقل .

ـ وا لله مافهمت مقصدك .

ـ ولكنى فهمت مقصدك ياعبدان ، إنك لا تريد شهرا وإنما تريد أن تستأثر بها دونى !

ـ ماذا تقول ؟

ـ ليس لى غيرها فمن ذا يقوم بشئونى إذا أنت أخذتها منى ؟

فقال عبدان وقد انبسطت أساريره : « فسأبقيها عندك إذا شئت ، وأنت تعلم أن هذا سيكون أحب إلى لما لا يخفى عليك من رقة حالى».

فقال له الرجل : « ما يضمن لى ألا يبدو لك يوما فتقاضينى بما فى يدك من وثيقة الزواج فيحكم لك بما تريد ؟ »

قال عبدان « أفهذا هو الذى يمنعك من تزويجى ؟ »

فقال له الرجل : « إن أردت الحق فليس هذا فحسب هو الذى يمنعنى !»

ـ لقد فهمت ما تريد . إنك تعنى فقرى .

ـ كلا: ما هو بذاك ولكنى ظننتك حرا تنشد إصلاح أحوال الناس وتبغى سعادتهم ، ولا تخضع إلا لحكم العقل ، فإذا أنت كسائر الناس ترسف في أغلال العقائد الموروثة وقيودها .

نسى عبدان عند ذاك مسألة الفتاة واستحوذ عليه حبه للجدل العلمى فقال :

ـ ولكن لا غنى عن بعض هذه القيود التى فرضها الدين لصلاح البشر واستقامة أمورهم .

ـ متى صلحت أحوال الناس بالدين ياعبدان ؟ لقد وجد الدين من قديم وما برح الفقير يموت من الجوع ، والغنى يموت من البطنة، والقوى يسطو على الضعيف ، والسلطان يجور على الرعية ، والرعية تخضع لهذا الجور .

ـ ولكن الدين لا يرضى بهذا .

ـ فأين الدين ؟ أليس فى صدور حملته من العلماء ؟

ـ بلى . . .

ـ فهل كانوا إلا أعوانا للظلم ، يتأولون نصوص الدين بما يرضى السلطان لكيلا ينالهم أذاه ، وبما يرضى ذوى الجاه والمال لينالوا نصيبا من جاههم ومالهم ، ويوصون الفقراء ومهضومى الحقوق بالصبر على ما

يلقون والقناعة بما يجدون والرضا بقضاء الله وقدره لئلا يثوروا على ظالميهم ، فيأمن هؤلاء جانبهم ويعيشون مطمئنين وادعين ؟

ـ ليسوا جميعا كما وصفت ، فذاك أبو البقاء البغدادى مثلا قد قام بما أوجبه الدين عليه ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وجمع المظلومين من الفقراء والفلاحين والعمال والصناع ليطالبوا بحقوقهم ورفع الظلم عنهم.

ـ لا يخدعنك هذا وأمثاله ، فإن أبا البقاء لأخطر على العدل الشامل الذى ينشده الأحرار للناس جميعا وأعون على بقاء الظلم والفساد من غيره من العلماء المتقاعدين . فقد رأى النفوس المظلومة تغلى بالحقد على ظالميها، وتتحفز للوثوب بهم فى قومة واحدة لاتبقى منهم ولا تذر، فجاء يقودها إلى المطالبة ببعض حقوقها فى لين وهوادة لكى يكسر من شرتها ويخفف من غليانها فلا تنفجر . وها هو ذا قد قام بما قام فلم يصنع شيئا.

ـ إن لم يصنع شيئا فلأن السلطان حبسه فحال بينه وبين ما أراد .

ـ والله لهذا خير عمل قام به السلطان ، فلو قد أفلحت حركة أبى البقاء لقضى على الثورة التى تضطرم فى نفوس المظلومين فضاع كل أمل لنا فى تحقيق العدل الشامل ؟

ـ ماذا تعنى بالعدل الشامل ؟

ـ أن تكون الأرض كلها لله يشترك فيها الناس جميعا لا يحتجنها أحد دون أحد ، فلا يكون بينهم غنى ولا فقير ، إذ يصيب كل امرئ حاجته وحاجة عياله بالمعروف دون إسراف ولا تقتير .

ـ إن فى الناس القاعد والمجتهد ، وليس من العدل أن يتساويا فيأكل القاعد من كد المجتهد وعمله .

ـ كلا بل سيكون الناس جميعا عاملين مجتهدين ، كل يعمل على قدر طاقته ويأخذ حسب حاجته ، ولن يبقى فيهم قاعد عن عمل يقدر عليه إذ لا يؤذن لمثله بأن يعيش .

ـ والمال ؟

ـ حكمه حكم الأرض ، لا يأخذ منه أحد إلا قدر حاجته .

ـ هذا حسن، ولكن كيف السبيل إليه ؟

ـ لاسبيل إلا هدم الدولة القائمة على الظلم وتأسيس دولة جديدة على أساس العدل الشامل .

ـ فمن يتولى أمر الدولة الجديدة ؟

ـ يتولاها الرجال الذين يؤمنون بهذا الأساس .

ـ فكيف تضمن ألا ينحرف هؤلاء الرجال عنه إذا صار في أيديهم النفوذ والسلطان ، فيستمرئوا ظلم الرعية كما استمرأه سلفهم من قبلهم ؟

ـ سوف تسن قوانين صارمة لعقاب من ينحرف عن النهج ، ولتعلم ياعبدان أن الطغيان مصدره النفوذ ، وأن النفوذ مصدره امتلاك الأرض والمال ، وحيث لا امتلاك لهذين فلا نفوذ ولا طغيان . ثم إن وجد الطغيان بعد هذا فلا بقاء له إلا ريثما ينزع النفوذ من يد من طغى ويسند إلى ما هو أصلح منه من السائرين على المنهج المتمسكين بالعدل ، ولن يستطيع الطاغي أن يقول حينذاك : هذا حقي أو إرث ورثته عن أبي .

ـ إن حجتك لقوية وإن منطقك لسديد ، بيد أنه لو كان هذا المنهج مما يستقيم عليه أمر الناس ويصلح به حالهم لجاء الدين به .

ـ أما تزال تحتج على بالدين ؟ فلم لا تقول : لوكان الدين صحيحا لجاء بهذا الذي قد أقررت أنت بحسنه ؟؟.

ـ إن الدين لا يجيء بشئ لا يمكن تحقيقه مهما كان حسنا ..

- فقد جاء دينك بأشياء ما أمكن تحقيقها كذلك . خذ مثلا لذلك أنه فرض الزكاة على الأغنياء فهل أدوها ؟ وأوجب العدل الجزئى على ولاة الناس ورعاياهم فهل قاموا به ؟

- ليس هذا ذنب الدين وإنما ذنب الذين قصروا فى تنفيذ أحكامه .

- فكذلك هذا النهج لا يعيبه إلا أن يسير الناس عليه مادام العقل قد حكم بحسنه وصلاحه .

فسكت عبدان قليلا ثم قال : «مالى ولهذا الجدل ؟ إنما جئتك فى أمر شهر لتزوجنى بها ، فما تقول في طلبى ؟ »

فقال الرجل :« عد إلى رحلك الآن ففكر فيما حاورتك به ، فإذا رأيت عقلك قد عتق من رق التقليد والوهم فاستطعت أن تدرك صواب ما بينت لك ، فجئنى حينئذ لتكلمنى فى شهر » .

٤

لبث عبدان أياما وليالى لا ينقطع عن التفكير فى أمر هذا الأهوازى العجيب الذى يتكشف له كل يوم من سره ماهو أعجب وأعجب . إنه ليعرف له الفضل فيما سلف من إحسانه إليه وعطفه عليه ، وإنه ليحبه حبا صادقا منذ استولى عليه حب أخته شهر ، ولكنه أصبح يشعر نحوه الآن بشىء من الكراهية ، لأنه عمد إلى ما يدين به من المثل العليا فهدمها، وإلى ما يحلم من رؤى جميلة وأطياف محببة فأطارها ، وجاءه بآراء جديدة كان بدنه يقشعر لمحض سماعها ، ففرضها عليه بقوة حجته وحسن بيانه ، وأحلها محل الإيمان من قلبه . نعم قد كان الشك يدب إلى عقيدته إذا حضر مجلسا من المجالس الخاصة ودار به النقاش فى الإلهيات وأمور الغيب أو فى خلق العالم ومباحث الروح والمادة ، أو فى حقيقة الوحي وعصمة الأنبياء والموازنة بينهم وبين الفلاسفة أوما أشبه ذلك ، ولكن الشك لا يلبث أن يزول عنها ، فمثله كمثل الريح تهب على

سطح الماء دون أن تبلغ إلى قراره ، فتثير أواذيه وتتلاعب بأثباجه حينـا ، ثم لاتلبث أن تركد فإذا هو والبساط سواء .

أما هذا الذى جاء به الكرمانى فقد عصـف بعقيدتـه مـن الأعمـاق ، فقلب عاليها سافلها ، فكأنه إعصار قلب سفينته قلبا وحطمها تحطيمـا ، ثم أسلمه إلى دوامة شـديدة تـدور بـه وبحطـام سـفينته علـوا وسـفلا فـى حركة دائبة لا تنقطع ، وبعض الحطام يصدم رأسه أو ظهره أو بطنه فـلا يجد وقتا للتوجع والتألم من فرط إلحاح الدوامة عليه ، ولامهرب له منهـا إلا أن يتعلق بحبل قد مد له من سفينة أخرى فى معزل عن الدوامة يصـل إلى سمعه من ظهرها صوت صاحبه الكرمانى ينادية «الحبل ! الحبل ! ».

وما أشبه هذا الذى عصف بعقيدته من إعصار الشك إذ فتنـه كـلام الكرمانى بذاك الذى عصـف بقلبـه مـن إعصـار الحـب حـين فتنـه جمالُ أخته ! وما يدريه لعل الإعصارين كانـا متظـاهرين عليـه أو لعلهمـا كانـا إعصارا واحدا هب فى موضعين !

وجعل خيال شهر الجميلة يتشفع لأخيها عنده ، ويعاتبه على ما تحول من وده عنه وتغير من قلبه عليه ، لغير ذنب جناه أخوهـا إلا أنـه أراد ان يهديه من ظلمـة الجهـل إلى نـور العقـل ، وأن يهـدى إليـه الحوريـة التـى يتمناها قلبه ويذوب إليها شوقا . ومـا زال بـه خيالهـا الحبيـب حتـى لان واستعتب ثم خضع واستسلم .

وغدا إلى الكرمانى بعد ما انقطع عنه بضعة أيـام ، فرحـب بـه وبـالغ فى تكرمته ثم سأله متلطفا: «ليت شعرى ماذا فعـل ا لله بـك يـاعبدان ؟ لعلك اهتديت إلى سبيل الرشد وآمنت بالعدل الشامل ».

فقال عبدان : «نعم، قد شرح ا لله صدرى لهذا المذهب الحق ، فوا لله لأكونن من دعاته المخلصين حتى يزول الظلم ويتحقق العدل الشامل ».

فقام إليه الرجل فاحتضنه وقبل بين عينيه وقال له : «بأبى أنت وأمى لقد علمت أنك ستستجيب لدعوة الحق يوما بما رزقت من رجاحة العقل وقوة التمييز وسلامة الإدراك .

فتأثر عبدان تأثرا شديدا وقال له : «إنما كان ذلك بفضل إرشادك وهدايتك »ولو أنه قال : «بفضل جمال أختك »لكان أدنى إلى قول الصواب .

ولعل هذا المعنى اختلج فى خاطره إذ دخلت عليهما شهر حينئذ لتقدم لهما قدحين من شراب اللوز ، فلما رأته حيته وقالت له : «تغيبت عنا أياما ياعبدان أفتراك نسيتنا ؟ »

فقال عبدان والقدح يضطرب فى يده : «لا.وا لله ما نسيتكم . وكيف أنساكم ؟ ».

قال الكرمانى : «إنما غاب ليؤامر نفسه . وقد جاء اليوم مهتديا ».

فلم تقل شهر شيئا وإنما نظرت إليه نظرة تنطق بالفرح والتيه ويرنق فيها ظل من السخرية الناعمة كأنها تقول : «ويحكما .. إنما آمن هذا بالمذهب من أجلى ! »

وتناولت القدحين الفارعين فانصرفت بهما .

قال عبدان عقب انصرافها :«فهل لى أن أكلمك الآن فى أمر شهر ؟»

فقال الكرمانى : «حبا وكرامة ».

ـ ألا تزوجنى بها ؟

ـ علام هذا العناء؟ لقد صارت اليوم حلالا لك، فافعل بها ماتشاء!.

ـ ولكن هذا يخالف ...

ـ الدين؟ أما برحت تؤمن بالدين ؟ أتريد أن تعود إلى حالك القديم؟

ـ لا بل أردت أن أقول إنه يخالف العدل الذى ندين به .

ـ كيف ؟

- سيكون ذلك عدوانا منى على ما ليس لى بحق .

- إنما ذلك حق شهر وحقى ، فمتى سمحنا لك به فهو حقك !أما أنا فقد علمت رضاى! وأما هى فالتمس رضاها ولن يعجزك !

- ولكنى أجد من ذلك فى نفسى شيئا بعد .

- ويحك يا عبدان، ألست قد جلست إليها كثيرا وحادثتها ؟

- بلى .

- فهل كان ذلك يتاح لك لولا رضاها ورضاى ؟

- لا دون شك .

- أفما قبلتها قط ؟

فاحمر وجه عبدان خجلا ولم يجب . وأصابه كرب عظيم . فعاد الكرمانى يقول : «قل الحق ياعبدان ولا تخف . أما قبلتها يوما قط ؟»

فقال عبدان بصوت مرتجف : «بلى ،وأعتذر إليك . فوا لله ما كان ذلك عن قصد منى ،وإنما غلبتنى نفسى فزللت . فبا لله عليك إلا ما عفوت عنى وأغضيت ».

- دع عنك هذا فلست من يؤنبك على مثل ما فعلت ، وإلا لما خليت بينها وبينك . وحسبى أنك اعترفت بالقبلة واعتبرتها زلة منك لجهلك برضاى . فما يمنعك منها الآن وقد أذنت لك ؟.

- لكنى لا أريد التقبيل فحسب ؟

- التقبيل وما وراء التقبيل سواء وقد سمحت لك بكل شيء ، فكل ما عليك ألا تكرهها على ما لا تريد .

- ولكن ...

- ويلك ياعبدان ، لقد فهمت مرادى . فحرام عليك أن تحوجنى إلى التصريح بما لا يجمل بكرام الناس ذكره .

* * *

كان هذا في وقت الضحى ؛ فما غابت شمس ذلك اليوم حتى ذاق عبدان الثمرة التي حرمها الله وأحلها قوم كانوا يبغون أن ينشروا العدل الشامل بين البشر ! وماذا على عبدان أن يجدها تذوب في فمه لينا دون أن تحوجه إلى خضم وقضم ؟ وقد كان اليسر بركة عليه في بداية الأمر ونهايته؛ ففيم يتوخى العسر أو يحزن عليه ؟ وإنه لسعيد بالحاضر الموجود. فعلام يسأل عن الماضي المفقود؟ وما يفصل بين هذين إلا ليلة فما أهونها من فرق!

بيد أنه ذكر المستقبل فانتفض قلبه رعبا . ماذا يكون الحال لو طرق باب الجنة طارق جديد؟ أيكون رضا الحورية وحارسها كافيا لفتح أبوابها الثمانية له يدخل من أيها شاء؟ ولكنه عاد فقال لنفسه:«إن من العبث أن يشغلني خوف الغد عن نعيم اليوم »ثم عن له خاطر ما أعمل فكره فيه حتى استراح إليه . لقد أصبح رضاه شرطا ثالثا لدخول الطارق الجديد وإنه لن يرضى أبدا. فما خوفه من أمر يملك هو ألا يقع؟

ثم هيئت لعبدان غرفة في دار الكرماني لينزلها ، فودع الخان ونزلاء الخان وأقام مع الكرماني يأكل مما يأكل ويلبس مما يلبس ، فتبدل حاله وبدت عليه سمات النعمة واليسار حتى إنه ليصعب على من يراه أن يعرف أنه يعرف عبدان الأهوازي نزيل خان الغرباء . وقد وثق به الكرماني فأفضى إليه بسر حركته، فإذا هي حركة واسعة المجال دقيقة النظام، يرأسها في ذلك العصر أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح ومركزها (سلمية) بالشام بعد أن كان (الأهواز) . ولها شعب منتشرة في أمهات المدن وسائر أصقاع الدولة . وما الكرماني في بغداد إلا أحد دعاتها. وقد اختير ليدير شعبة العاصمة لسعة حيلته وعظم مقدرته وغزارة علمه فضلا على إخلاصه للحركة ونشاطه في خدمتها .

وعلم عبدان أن أموالا ترسل إليه من سلمية لينفقها في سبيل الدعوة ، وأنه يتسلمها من تاجر يهودي كبير في العاصمة ، وأنه قد اجتذب إلى

مذهبه خلائق كثيرين من طبقات مختلفة ومشارب متعددة ، وعقد أواصر الصداقة مع رجال كثيرين من الرؤساء والعلماء والفقهاء والأدباء ، يجارى كلا منهم فى مشربه وعقيدته ولا يعرفون من حقيقته شيئا ، وهو يستعين بهم فى تحقيق أغراضه من حيث لا يعلمون . وما جماعة إخوان الصفاء الذين يجمعهم فى داره مرة فى كل أسبوع إلا بعض هؤلاء. وقد آثرهم بالعناية فتعهدهم بألطافه ووصل ذوى الحاجة منهم ببره لأنهم من دعاة التفكير الحر، فحسبه من عملهم أنهم يشككون الناس فى عقائدهم الموروثة ، فيمهدون بذلك سبيل النجاح للقداحيين إذا ثاروا على النظام القائم ليعصفوا به ويقيموا مكانه نظامهم الجديد .

وهكذا أفضى الكرمانى بكل أسراره إلى عبدان ما خلا سرا واحدا لم يره أهلا لاحتماله بعد، فطواه عنه إلى حين .

وانقضت شهور تذوق عبدان فيها أفانين السعادة فى ظل حبيبته الجميلة ، وتجدد له بدخوله المذهب حلم كبير يسعى فى تحقيقه بكل ما أوتى من قوة ، فكان له فى ذلك حافز يدفعه إلى الحركة والنشاط ، ويعصم همته من شر الركود والإخلاد إلى النعيم .

وقويت به حركة الكرمانى فى بغداد وتعاظم خطرها . وصار لها أنصار متحمسون فى مختلف الهيئات والطبقات ، ولم يقتصر نشاطها على الرجال ، بل امتدت إلى النساء أيضا . فكانت شهر تزور بيوتهن، وتتخير منهن العوانس والمطلقات والنواشز من أزواجهن والمعلقات ، فتدعوهن إلى بيتها حيث يجتمعن فيتشاكين ما يلقين من ظلم الأزواج والآباء لهن واستبدادهم بهن ، فتفضى إليهن شهر عند ذلك بأن عهد الظلم والاستبداد قد أوشك أن يزول ، وأن عليهن أن ينضوين إلى لواء المهدى المنتظر الذى سينقذ النساء من ظلم الرجال وينقذ الرجال من

ظلم بعضهم بعضا فيسألنها: متى يظهر هذا المهدى ؟ فتقول لهن : إن وقت ظهوره قد حان أو كاد .

ثم تصطفى من هؤلاء من تثق بهن ، فتشككهن فى دينهن وتدعوهن إلى الانطلاق من قيوده الثقيلة عليهن والاستمتاع بمباهج العيش ولذات الشباب . وتقول لهن إن الرجال هم الذين وضعوا تلك الحدود والأحكام ليخضعوا بها النساء لسلطانهم فيتقيدن بها وهم لا يتقيدون ، ويخشين الله وعذاب الآخرة وهم لا يخشون .

ثم صارت تجمعهن ببعض الرجال والفتيان من أنصار الدعوة ، فيبالغ هؤلاء أمامهن فى استنكارهم ظلم النساء ، ويقسمون لهن الأيمان لا يقر لهم قرار حتى يرد إليهن ما استلب الرجال من حقوقهن ، وحتى يصبح الرجل والمرأة سواء فى كل شئ .

وتسامع الفتيان والفتيات بنبأ هذا المنتدى الشائق العجيب فأخذوا يهرعون إليه . وسرعان ما نشأت له فروع فى مختلف أحياء العاصمة كان الكرمانى يتعهدها جميعا بالإنفاق ويتخللها عبدان وشهر بالزيارة والتوجيه .

٥

ولكن أنباء الحركة ما لبثت أن وصلت إلى سمع الخليفة المعتمد فهاله أمرها ، واستشار وزراء دولته فأشاروا جميعا بألا بد من تطيير الخبر إلى أخيه الموفق وانتظار مايشير به فى هذا الصدد .

وكان الموفق غائبا عن العاصمة منذ شهور .. إذ كان يتنقل فى البلاد يتفقد حصونها ، ويستطلع أخبار يعقوب بن الصفار والحملات التى وجهها إليه لإخضاعه ، ويهتم فى نفس الوقت بإرسال القواد والجنود جنوبا ليناوشوا صاحب الزنج ويعوقوا من تقدمه وتقدم رجاله إلى الشمال صوب العاصمة ريثما يتفرغ لحربه بعد القضاء على فتنة يعقوب . وكان أخوف مايخاف الموفق أن يتصل صاحب الزنج بيعقوب فيكونا إلبا عليه؛ ومن أجل ذلك جعل وكده أن يضرب سدا بين الشمال والجنوب أقام على طوله المسالح والجنود وتعهدها بنفسه ليحول دون اتصال الفتنتين .

وكان الموفق نازلا فى «عسكر مكرم» حين بلغه أن يعقوب قد مات فخلفه عمرو أخوه ، فكانت وفاة يعقوب بشرى عظيمة للموفق . وما غض من سروره بها إلا قلة ماعنده من المال إذ ذاك لانقطاع المدد من بغداد وعجزه لذلك عن الإفادة من موت يعقوب والقيام بحملة كبيرة للقضاء على خلفه . وما شعر ذات يوم إلا بتاجر كبير من يهود تلك المدينة قد تقدم إليه فأخبره أن صديقه عزر بن صمويل قد كتب إليه من بغداد يأمره أن يقرض الموفق ما يحتاج إليه من المال حين يشاء . فلم يبق للموفق حينئذ عذر فى الإحجام .

وكان عمرو بن الصفار يميل إلى مسالمة الخليفة ، فأرسل إلى الموفق يفاوضه فى ذلك على شروط بينها له ، فتردد الموفق فى قبولها ورأى الفرصة سانحة للقضاء على الصفارين واستئصال شأفتهم حتى يتوجه بحملته بعد ذلك لمحاربة صاحب الزنج ، لولا أن الأنباء وردت إليه بأن الزنج قد تقدموا من واسط وهدفهم بغداد ، وجاء أيضا بريد بغداد يحمل إليه كتاب الخليفة الخاص بحركة الكرمانى ؛ فلم يجد الموفق بدا من قبول شروط عمرو بن الصفار فعقد الصلح معه ومضى يغذ السير قافلا إلى بغداد .

وكان أهل بغداد قد روعهم أخبار الزنج وما يرتكبونه فى الناس من الفظائع ، إذ يقتلون الشيوخ والأطفال ، ويعتدون على أعراض النساء ، ويبقرون بطون الحوامل ، وينهبون المتاجر والأموال ، ويأتون على الأخضر واليابس ، وصاروا يترقبون أنباء تقدمهم بخوف وقلق . وبلغ بهم الهلع مبلغه إذ انتشرت بينهم شاعة بأن طلائع الزنج قد وصلت إلى جرجرايا وماهى إلا أيام حتى يغيروا على العاصمة . فعرض كثير من الناس أملاكهم للبيع بأبخس الأثمان ليغادروا بغداد فرارا بأنفسهم وأولادهم ، فما رضى بشرائها إلا نفر من تجار اليهود .

أما الكرمانى فقد انتهز فرصة اضطراب الناس وجزعهم ، فضاعف نشاطه ودفع أنصاره إلى الاجتهاد فى حركتهم، وأفهمهم أن الله قد آذن بظهور الحق على أيديهم ، فسلط على الناس صاحب الزنج وأصحابه ، عقابا لهم على ماسكتوا على الظلم ، ورحمة بهم لأن صاحب الزنج سيقوم لهم بهدم هذا النظام القائم على الجور والطغيان ، حتى إذا

فرغ من ذلك أهلكه الله بظلمه وأتاح لأنصار الدعوة أن يبنوا نظامهم الحديد القائم على العدل الشامل .

وأسند إلى عبدان أمر الاتصال بسواد العامة من الفقراء والعمال والصناع وأرباب الحرف . فمضى عبدان يبث فيهم هذه الفكرة بنفسه وبواسطة دعاته ، ويؤكد لهم أن عهد شقائهم وفقرهم قد آذن بالزوال ، وأنهم عما قريب سيسكنون قصور الأغنياء ويقاسمونهم أموالهم .

وكثر اتصال الكرمانى بتجار اليهود ولاسيما كبيرهم عزرا بن صمويل الذى كان يمده بالنقود المحالة له من سلمية عليه . فتواطأ معهم على نشر الشاعة المقلقة بالمدينة لكى يبيع الناس أملاكهم بأثمان بخسة فيشتروها منهم . وكانوا قد أكثروا من شراء الحبوب والأطعمة من الأسواق ليحتكروها ، فانتظروا أن ترتفع أثمانها كلما زاد قلق الناس وخوفهم وانقطع ورود الميرة من خارج بغداد إليها ، فيبيعوها للناس حينئذ بأغلى الأسعار . ومن أقدر على نشر الشاعة المقلقة فى طبقات الناس من الكرمانى الذى يملك جيشا من الأعوان والأتباع منبثين فى كل مكان ، ويهيمن عليهم جميعا بفضل نظامه الدقيق ؟ فلاغرو إن اتفق التجار اليهود معه على ذلك التدبير وقبلوا أن يعطوا الكرمانى وأتباعه ثلث مايجنونه من الأرباح .

وبينما كان الناس على هذه الحال فى بغداد . إذ وصل الموفق إليها عند الفجر ، فتباشروا بمقدمه ، وشعروا بشىء من الطمأنينة ، ورجوا أن يشفع به الله عنهم هذه الغمة . وماكذب رجاؤهم فى الموفق ، إذ ماكاد يتصل بالخليفة ورجال الدولة ويستوعب ماعندهم من أنباء الحال حتى

خرج بجنوده ليقودهم بنفسه ، فغادر بهم العاصمة مغرب ذلك اليوم ، وتوجه بهم جنوبا صوب جرجرايا .

وكان أهل العاصمة يترقبون أنباءه بنافد الصبر ، فقد أيقنوا جميعا أنه إن هزم فى هذه المعركة فلا مناص من سقوط العاصمة فى أيدى الزنج ، وباتوا يبتهلون إلى الله ويتضرعون له فى البيوت والمساجد أن يؤيد الموفق بالنصر ويقطع به دابر الزنج .

إلا الكرمانى وأصحابه ، فقد اكتأبوا لقدوم الموفق ، وتطيروا من خروجهم السريع لمناجزة الزنج ، ولكنهم تجلدوا ومضوا ينشرون الشاعة فى الناس بأن الموفق سيهزم لا محالة ، وأن قوة الزنج أضعاف قوته ، فلم يأبه الناس كثيرا لهذه الشاعة . ثم أشاعوا أنه قتل ، فجزع الناس واضطربوا وتجهز كثير منهم للرحيل . واضطر الخليفة أن يخرج بموكبه فى شوارع العاصمة لينعى للناس ما شاع بينهم أنه قد برح بغداد مع أهله ورجال حاشيته

وإنه ليطوف بموكبه فى الشوارع إذ جاءته البشرى بأن الزنج قد كسروا كسرة منكرة فى جرجرايا وارتدوا على أعقابهم منهزمين ، وأن جيش الخلافة يتعقبهم ويوسعهم قتلا وتشريدا ، وأن الموفق عقد لابنه أبى العباس لواء الجيش المطارد ، وأنه هو عائد إلى بغداد بعد غد . فأمر الخليفة رجاله فأعلنوا البشرى للناس ، ومضى بالموكب لساعته إلى المسجد الجامع فصلى بالناس صلاة الشكر .

وكان أول عمل قام به الموفق بعد عودته بالموكب إلى بغداد أن أمر بإطلاق أبى البقاء البغدادى من سجنه . وذلك أن الموفق عقب هزيمة الزنج فى جرجرايا قد انطلق مع نفر من خاصته فوصلوا بغداد ليلا دون

أن يعرفهم أحد إذ كانوا متنكرين فى زى الأجناد. فلما وصل بهم الموفق إلى داره أمرهم فارتدوا زيا مما يلبسه العامة فى بغداد . وفعل هو مثلهم فخرجوا معه إلى بعض أطراف المدينة واختلطوا بالصناع والعمال وهم فى منتدياتهم يسمرون . فأدرك الموفق فى جولته الليلية هذه أن أغلب أنصار الكرمانى هم من الصناع والعمال الذين كانوا أنصار أبى البقاء من قبل . فرأى قبل أن يقبض على الكرمانى وخاصته أن يفرق عامة أنصاره عنه ، وأن خير سبيل لذلك أن يطلق أبا البقاء من سجنه ليعود أنصاره إليه ، وذلك ما كان .

ولما بلغ الكرمانى إطلاق سراح أبى البقاء توجس شرا، وأدرك أن ذلك تدبير من الموفق موجه إليه ، فأوصى خاصة أتباعه بالتيقظ والانتظار لما يسفر عنه ذلك التدبير .

وما خرج أبو البقاء من سجنه حتى انطلق إلى مجلس الموفق فاستؤذن له عليه ، فظن أهل المجلس أنه جاء ليسلم على الموفق ويشكره على إطلاق سراحه ، فماراعهم منه إلا أن حيا الموفق تحية مقتضبة ثم جعل يعنفه على سوء تدبيره وحمله تبعة خروج صاحب الزنج وفتنته. إذ ما كان ذلك ليكون أو لينجح لوأنه عمل بنصائحه فى إنصاف الفقراء والعمال والصناع والفلاحين من ظالميهم الأغنياء . وخشى الموفق أن يمضى أبو البقاء فى توبيخه إلى حد يغض من مقامه فى مجلسه ، فأمر جميع من فى المجلس بالانصراف . واختلى بأبى البقاء ، فلما انتهى أبو البقاء من توبيخه اعتذر له الموفق عما كان من حبسه بأن سياسة الدولة قد اقتضت ذلك منه . ثم أخذ يحادثه فى أمر الكرمانى وبدعته التى تعاظم خطرها فى الناس . وكان أبو البقاء يجيبه بأن تبعة ذلك أيضا واقعة عليه،

وأنه المسئول عنها أمام ا لله وأمـام الأمـة ، فقـد خشـى سـلطان الأغنيـاء فظاهرهم على الفقراء ، فعرضهم بذلك للافتتان بمثل هذه الدعوة التـى قام بها الكرمانى وجماعته .

وكـان مما قـال لـه أبو البقـاء : «الآن أطلقتنـى مـن السـجن لينضـم أنصارى القدماء إلى وينفضوا عن الكرمـانى ، حتـى إذا تم ذلـك أعدتنـى إلى السجن وفرقت شملهم ، فلا وا لله ماأنا بتاركك تخدعهم أبدا ».

فجعل الموفق يحلف له بأنه لن يفعل ذلك أبدا ، ووعده بأنه سينفذ لهم مطالبهم بعد أن يقضى على صاحب الزنج حـين تهـدأ الأحـوال ، وتقـل حاجة الدولة إلى المال ، فيسـتغنى عـن مجاملـة أربابـه . ومـازال بـه حتـى رضى أبو البقاء منه ذلك وانصرف .

وأثمر تدبير الموفق حقا ، فما كاد أنصار أبى البقاء يتسامعون بإطلاق سراحه حتى عادوا إليه زرافات ووحدانا ، وأعلنوا له توبتهـم مـن بدعـة الكرمانى ، فقبل توبتهم وأعاد تنظيم نقاباتهم وتوحيد صفوفهم .

ولما رأى الكرمـانى انفضـاض أتباعـه العـوام عنـه وانحيـازهم إلى أبـى البقاء، أيقن أن الموفق سيقبض وشيكا عليـه . فعهـد برئاسـة الدعـوة فـى بغداد إلى رجل من أتباعه المستورين يدعى أبا هاشم بن صدقة الكـاتب . وأوصاه بالتربص إلى أن تصفو الأحوال ويهدأ القلب ليقوم بتدبير الحركة من جديد . وأسرع هو وعبدان وشهر ففروا خفيـة مـن بغـداد وغـايتهم مركز الدعوة فى الشام .

السفر الثالث



﴿ إن ا لله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾

(قرآن كريم)

١

لما وجدت الجثث الثلاث في دار عبدان صبيحة ليلة فراره من قرية الدور جد الشرطة في البحث عنه ، ففتشوا دار حمدان والتمسوه في كل مكان فلم يقفوا له على أثر ، فاكتفوا بمصادرة ماوجدوه في حانوته .

واجتهد ابن الحطيم أن يثبت أن لحمدان يدا في الجريمة ولكنه لم يستطع ، فأصدر أمره بمنع حمدان من ممارسة عمله الجديد في جميع تلك الناحية الداخلة في ملكه! ولم يكن حمدان بحاجة إلى ذلك العمل فقد كان يكسب من العيارة ما يغنيه عنه ، ولكنه اغتاظ لتعنت ابن الحطيم عليه وقصده إياه بالمكروه ، فحلف لينتقمن منه انتقاما مرا .

وكان قد صار قوى النفوذ لدى جماعته العيارين مسموع الكلمة بينهم ، فدفعهم إلى تشديد الغارات على أملاك ابن الحطيم وموالاتها . فكانت لا تمر ليلة أو ليلتان دون أن يصاب ابن الحطيم في ماله أو يرزأ في ملك من أملاكه . وكان حمدان يقود جل تلك الغارات بنفسه ، وقد أظهر في ذلك شدة ومهارة عظيمتين .

وكان لابد له من الاستمرار في عمل يغطي به اشتغاله بالعيارة ، وإذ لم يستطع أن يجده في تلك الناحية الخاضعة لنفوذ ابن الحطيم فقد اضطر أن يلتمسه في الجهات الدنيا من بطائح الكوفة شرقي القرية . وتلك بطائح كانت قبل عشر سنوات خلت إن هي إلا أراض غامرة لا يملكها أحد ولا يستثمرها أحد ، حتى اضطر الخليفة إلى استقراض المال من عزرا اليهودي في بغداد لاستخدامه في القضاء على فتنة ابن الصفار وغيرها من الفتن الناشبة في أطراف الدولة ، فأقطعه هذه البطائح في مقابل ذلك المال . ومالبث اليهودي أن وكل أمرها إلى صاحب له من كبار تجار اليهود بالكوفة يدعى إسرائيل بن اسحاق ، فجزأها هذا قطعا ثم جعل يطمع أغنياء الكوفة وكبار ملاكها في استصلاح تلك الأراضي



واستثمارها ، فباعها لهم بأثمان طيبة تدفع له منجمة على بضع سنوات . ثم بدأوا فى شق الترع والجداول إليها من النهر ، فما مضت خمس سنين حتى انقلبت أراضى صالحة يجود فيها الزرع ويكثر فيها الضرع ، وصارت عامرة بالسكان بعد أن كانت يبابا مقفرة ، فاشتغل حمدان حراثا فيها يحرث الأرض على أجر معلوم ، فكان يبكر لعمله فى الصباح ثم يعود من المساء إلى بيته بقرية الدور . وكان الفلاحون حين دعوا للعمل فى إصلاح تلك البطائح قد وعدوا بأجور مغرية ، وأعطيت لهم تلك الأجور فى بداية الأمر فتكأكأوا عليها من كل فج . ولكن اليهودى مالبث أن ضغط على الملاك فى تقاضى أقساطه السنوية ، فاضطر الملاك إلى الضغط على الفلاحين وإرهاقهم بالعمل والتقليل من أجورهم ، فصار حال الذين يعملون فى تلك الأراضى الجديدة مثل حال إخوانهم فى غيرها أو أسوأ ، وإن حمدان ليرى مايلقى الفلاحون هناك من ضروب القسوة والتسخير ، على سوء الغذاء وطول العناء وانتشار الداء ، فما يسعه إلا أن يتنهد ويقول فى نفسه: «مادام سلطان المال قائما فلا خلاص من الظلم ولا مطمع فى عدل أو إنصاف».

وإنه ليرى ابن الحطيم خاصة عنوانا لطغيان هذا السلطان ؛ فإذا نجح فى هدم هذا الجانب المشمخر من بنيانه فربما يتيسر للناس أن يأتوا على سائر جوانبه من القواعد .

أما ابن الحطيم فقد اعتراه القلق منذ اقتحم العيارون عليه الجوسق فى ظاهر النجف واختطفوا منه عالية . ثم تزايد قلقه وخوفه لما توالت الغارات على أملاكه بشدة لم يعهدها أحد من قبل ، فأيقن أن العيارين لا يأتون ذلك من أجل الحصول على المال فحسب ، بل لديهم خطة مدبرة للنكاية به خاصة من دون غيره من الأغنياء . ووقع فى نفسه أن ذلك قد يكون بتدبير من خصمه الهيصم يريد إضعاف مركزه ثم القضاء عليه

ليتخلص من منافسته . فأفضى بما يساوره من الظن إلى والى الكوفة ليبحث له هذا الأمر سرا عسى أن يكشف للهيصم يدا فيه . فحقق الوالى رغبته ثم أخبره بأنه لم يجد أى صلة بين الهيصم والعيارين ، فلم يرض ذلك ابن الحطيم وعده ممالئا للهيصم لرشوة أخذها ، فتغير مابينه وبين الوالى من يومئذ .

وشق على الوالى أن يتغير قلب صديقه ابن الحطيم عليه ، ويحرم بذلك منافع جمة كان يفيدها منه ، فبقى يتحين الفرص ليعيد سابق الصفاء بينهما بخدمة كبيرة يؤديها لابن الحطيم ، إلى أن جاءت الفرصة المطلوبة إذ روع ابن الحطيم بنبأ عظيم طار له صوابه وجن جنونه : أن العيارين قد خطفوا أخته من قصرها .

فاهتم الوالى بهذه الجريمة اهتماما عظيما، وأقام الدنيا وأقعدها ، فحشد رجال الشرطة حشدا وعززهم بفرق من جنود الدولة ليقوموا بحملة على العيارين ؛ فانطلقوا فى كل مكان يبحثون عن أوكارهم ومخابئهم فى أحياء مدينة الكوفة وما حولها من القرى والدساكر ، يأخذون كل من يقع عليهم أى ظل من الشبهة فيسوقونهم إلى السجون. وقد دارت بينهم وبين العيارين معارك حامية قتل فيها كثير من الفريقين . واستمرت الحملة أياما وليالى ولم تقف إلا حين أيقن الوالى أن قد تبدد شمل العيارين فى تلك المنطقة وذهبت ريحهم بعد ما قتل زعماؤهم وأبطالهم ، وقد عرف مصارع جماعة من رؤسائهم ، ولكنه لم يستطع أن يتحقق هل كان الشيخ سلام الشواف بين أولئك الصرعى . وكان حمدان عسيا أن يقتل أو يؤسر لو أنه اشترك فى تلك المعارك ، ولكنه كان قد انطلق إلى البصرة إذ ذاك فى نفر من أصحابه ليهدوا الفتاة المخطوفة إلى طاغيتها صاحب الزنج .

وكان الإعصار قد هدأ حين عادوا إلى منطقة الكوفة خفية . فلما رأوا ما أصاب جماعتهم من القتل والتمزيق أخلدوا إلى السكينة ولزموا الصمت .

وكان ابن الحطيم حريا أن يشتبه فى حمدان ويتجه فكره إلى أن خطف أخته كان انتقاما منه لما خطف أخت حمدان من قبل ـ وقد يعزز هذه الشبهة عنده أن العيارين قد اختطفوا عالية من جوسقه فى ظاهر النجف ـ إذاً للفت نظر الشرطة إليه فقبضوا عليه . ولكنه كان قد التاث عقله من هول الصدمة فأصبح لا يعى شيئا ولا يدرى ماذا يأتى وماذا يدع .

وألقى فى قصره يوما كتاب مختوم ، فلما فضوه له إذا هو من صاحب الزنج وإذا فيه بعد الديباجة : «إن أختك عاتكة قد أهديت لى فبنيت بها ، وإنها مكرمة معززة عندى مفضلة على حظاياى الأخريات . فلا تقلقن عليها فسآتى بها معى حين أفتح الكوفة بجنودى وشيكا وأخلصها من ظلم الخليفة الرافضى دعىبنى العباس حامى الأغنياء ومذل الفقراء...»

فلما قرئ الكتاب عليه اشتد به جنونه، فصار يهذى كالمحموم ويحطم كل ماتناله يده فى قصوره من الأمتعة والآنية ، ويضرب كل من يدنو منه من خدمه وحاشيته حتى اضطروا إلى تقييده وحبسه خوفا منه وخشية عليه .

وانتهز وكلاؤه وقيمو قصوره ومديرو أملاكه هذه الحالة فصاروا ينهبون لأنفسهم كل مايقدرون عليه من أعلاقه ونفائسه . فلما حجز عليه السلطان لم يجد شيئا من العين عنده ، ووجد عليه ديونا عظيمة فبيعت معظم أملاكه وقصوره لقضائها، فانتقل كثير منها إلى ملك الهيصم خصمه القديم ومنافسه .

٢

استمر حمدان يزاول عمله فى البطائح وهو يرى ما وصلت إليه حال ابن الحطيم حتى كاد يشفق عليه . وقد هدأت فى نفسه ثائرة الانتقام منه، فلم يعد يحمل له أى ضغينة . ولولا مايرى من سوء حال الفلاحين الذين يغاديهم ويراوحهم لربما خبا فى نفسه ماكان يضطرم فيها من الحقد على الأغنياء جملة .

وتذكر عصابته العيارين فساءه ماأصابهم من البطش والتمزيق . وعز عليه أن يكون هذا جزاءهم بعد ما أفلحوا فى هدم ذلك الركن العظيم من سلطان المال وتسويته بالأرض . وكبر عليه أن يحال بينهم وبين هدم أركانه الأخرى . وخطر بباله أنهم لم يصنعوا شيئا مابقيت تلك الأركان قائمة إلا أن شفوا ذات نفسه من ابن الحطيم ونقلوا سلطانه من يد ظالمة إلى يد ظالمة أخرى .

أواه ! أين الشيخ سلام الشواف وأين أصحابه ؟ لقد قتل منهم من قتل ، ومن بقى إما فر وإما استتر ، فقد خلا الجو إذا لسلطان المال يظلم ويبغى كما يشاء دون أن ينتقم للمظلومين منه أحد . كلا وا لله لا يكون هذا وحمدان حى يرزق لم يمسسه سوء . فلم لا يسعى فى تأليف العصابة من جديد ؟ إنه على ذلك لقدير وبه لزعيم . ولم يكن رأى أحدا من العصابة بعد ، إذ كان كل منهم حريصا على أن يتجنب الاتصال بأحد من إخوانه خشية أن يثير الشبهة على نفسه . فلما عزم حمدان على استئناف تأليفها التمس صاحبيه القديمين الشيخ بهلول وعبد الرؤوف التاجرَ ليشاورهما فى الأمر ، فوجد الشيخ بهلول فى الجامع يعظ الناس كعادته لم يتغير من سمته شىء ، ثم وجد التاجر فى دكانه كدأبه ، فاتعد الثلاثة على أن يذهبوا فرادى بعد صلاة العشاء ليجتمعوا فى دار عبد الرؤوف.

وما كان أشد دهش حمدان حين أفضى إليهما بعزمه فوجدهما قد كرها العيارة وأعلنا له أنهما قد تابا عنها توبة نصوحا . وجعل يحاورهما طويلا ليقنعهما برأيه . فما أصاب منهما شيئا ، بل انقلب الشيخ يعظه وعظا مؤثرا ويدعوه إلى التوبة كما تابا ، عسى الله أن يغفر لهم ما سلف من ذنوبهم . وأفاض الشيخ فى حديثه فبين أن لإنصاف الفقراء المظلومين سبيلا آخر غير هذا السبيل ، وأن قصارى ما يفعله العيار إذا أخلص نيته أن يأكل الحرام ، ويفسد النظام ، ويروع الأنام ، دون أن يعطف الظالم على المظلوم ان لم يزد من قسوته ليعوض ما رزئه من قبل العيار . ثم أجمل كلامه فى آخر الحديث قائلا : « إن الظلم لا يرفعه الظلم وإنما يرفعه العدل » .

ولم يسع حمدان أمام الحجج القوية التى أدلى بها الشيخ فى بيان رصين وبلاغة متدفقة إلا أن ينقطع عن محاورته وإن لم يبد منه أنه اقتنع بصواب رأيهما وخطل رأيه . ولما أراد الانصراف قال الشيخ : « إن كنت مصرا على معاودة هذا العمل يا حمدان فثق أننا سنبقى دائما على العهد فى كتمان سرك وحفظ مودتك ، حتى يهديك الله إلى وجه الحق فيه فتتوب منه كما تبنا ، وإنك لفاعل إن شاء الله » .

وصمم حمدان على تنفيذ عزمه، فأخذ يتصل بغيرهما ممن بقى مستترا من أفراد العصابة فلقى من بعضهم قبولا وارتياحا . وبينما هو منهمك فى تدبير ما أراد إذا زوجته أم الغيث تحم فى نفاسها ، وقد ولدت طفلا ميتا ، ثم ما أمهلتها الحمى أن ذهبت بها على أثره ، فشغله موتها عن الأمر الذى بدأ يعد العدة له .

وكانت أم الغيث امرأة ورعة طالما نصحت زوجها بالإقلاع عن العيارة تقول له فى ذلك : « ما أغناك يا حمدان عن أكل المال الحرام » وطالما حاول هو أن يقنعها بمنطقه العيارى فما سمعت له قط . ولما يئست من هداية زوجها أصابها هم ثقيل أضوى جسمها و أنضب بشاشة

وجهها . وكان حمدان يحبها حبا عظيما ، فعز عليه ماتكابده من الهم الدفين ، فصار يجاملها ويعالمها بالكف عن العيارة حينما يتم له شفاء غليله من ابن الحطيم .

حزن حمدان لوفاة زوجته حزنا شديدا ، وشعر لأول مرة فى حياته بعزلة قاسية فانطوى على نفسه وتذكر دنو الموت وحقارة الحياة ، ومسه فيض من الخشية والندم فمال إلى النسك والتزهد ، فصار يواظب على الصلوات لأوقاتها ويحرص على شهودها فى الجامع ما استطاع ؛ فما صعب على الشيخ بهلول بعد هذا أن يقنعه بالإقلاع عن العيارة والتوبة منها .

وجعل حمدان يكثر من الصدقة على الفقراء يكفر بها عن سيئاته ويهدى ثوابها إلى روح زوجته حتى أتى على كل ما ادخره من المال . فاعتمد على أثواره فى كسب قوته وقوت عياله إلا أنه ترك الحراثة بالبطائح وعاد إلى حمل غلات السواد على أثواره بعد أن ارتفع عنه خطر ابن الحطيم .

واستمرت الصداقة بينه وبين الشيخ بهلول وعبد الرؤوف وقويت أواصرها بعد توبته فكانوا يتزاورون . وبقوا على ذلك حتى اعتزم الشيخ بهلول حج بيت الله الحرام وسافر إلى الحجاز ثم انقطعت أخباره بعد ذلك .

أما عبد الرؤوف فما لبث أن احتوى المقام بقرية الدور فعزم على أن ينتقل إلى بلد آخر يبتدئ فيه صفحة جديدة من حياته ، فوقع اختياره على بغداد فرحل إليها بأهله وتجارته .

ولم يبق لحمدان من أهل بيته إلا أخته راجية وولداه الغيث وفاختة . وكانت راجية تظهر الزهد فى الزواج بعد اختفاء أختها ، وفى نفسها أنها لا تتزوج إلا عبدان أو ثمامة لغير سبب إلا أن كلا هذين قد رغب عنها وآثر عليها عالية.

وقد أنساها تقادم الأيام كثيرا من الحوادث الماضية ولكنها لم تستطع أن تنسى هذه الحقيقة ، كأنما لاتزال عالية أمامها وعبدان يؤثرها بالحب ، وثمامة يطريها من دونها ، ولايخطبها هي إلا لأن عالية قد عزت عليه .

وكانت على ماتظهر من الزهد فى الزواج عارمة الشهوة ، قليلة الحظ من حياء العذارى واستمساكهن ، مفتونة بماتسمع من غزل الرجال ومعابثتهم ، لايسرها شئ مايسرها أن يكثر حولها عدد المعجبين من شباب القرية ؛ فما لبث ذلك أن أزلقها إلى الاتصال بمن تهوى منهم، فكانت تتسلل لذلك فى الليالى التى كان حمدان يتغيب فيها مع عصابته . وقد نصحتها أم الغيث كثيرا أن تقلع عن هذا السبيل ، فكانت تجيبها : « أليس أخى عيارا فما يمنعنى أن أخلع عذارى وأستمتع بما أريد »

وتهددها أم الغيث بإعلان الحقيقة إلى زوجها إن لم ترعو عن غيها ، فلا تعبأ راجية بتهديدها ولا ترتدع . ولم تشأ أم الغيث أن تخبر زوجها بسلوك أخته اتقاء لإيلام شعوره ، فظلت تكتمه ذلك حتى ماتت . وكان هذا السلوك من راجية من أسباب همها وكآبتها وشدة استيائها من عمل زوجها ، كما كان خوف راجية من افتضاح أمرها إن هى تزوجت من أسباب صدوفها عن الزواج ورغبتها عن الخطاب .

أما حمدان فكان شديد الرغبة فى تزويجها ، وطالما لامها على إعراضها عمن يتقدم لخطبتها ، فكانت تنتحل لامتناعها شتى المعاذير ، بيد أنه انقطع عن الإلحاح عليها بعد ما ماتت زوجته ، حين شعر بحاجته إلى بقائها عنده لتقوم بشئون ولديه .

ولما رأت راجية أخاها قد تاب من العيارة ومال إلى النسك والتزهد ووكل إليها الاضطلاع بشئون بيته وولديه، أدركت أن من العسير عليها أن تستمر فى غوايتها دون أن ينكشف أمرها يوما لحمدان ، فتحدث له كارثة تقوض بيته تقويضا . وعز عليها أن يشق بها أخوها المنكوب المثقل بالهموم ، وقد اتكل عليها كل الاتكال ، فلا تحفظ له

هـذه الثقـة . وقـد وجـدت فـى تدبير شئون البيت والعناية بـالولدين ماصرفها عن بدوات الشباب ونزغات الشيطان .

٣

انقضت شهور على حمدان وهو على حاله مـن التزهد والإكثار مـن الصلاة والاستغفار ، ومايزال مكلـوم الفؤاد مـن مـوت زوجتـه ، كثير التذكر لها والترحم عليها . وكان قد عرف بقالا فى القرية ، يقع دكانـه على رأس الزقاق الذى يقيم فيه ، فأحبه لصلاحه وتقواه ، ونشأت بينهم صداقة متينة . فكان حمدان لا يشترى حوائج بيته إلا منه ، وكـان كثيرا مايعرج عليه حين يعود من عملـه فـى المسـاء، فيقـف علـى بـاب دكانـه يحادثه . وقد يسوق أثواره إلى الحظيرة ثم يعود إليه فيجلـس عنـده حتـى يؤذن لصلاة العشاء ، فيذهبان معا إلى الجامع .

وكان البقال شديد الاعتقاد فى الصالحين ، يزعـم لحمـدان أن بينهـم قومـا مسـتورين لا يعرفهـم أحـد ، لـو أقسـم أحدهـم علـى الله لأبـره ، فطوبى لمن وفقه الله للاتصال بأحد هـؤلاء . ولـما أكـثر مـن ذكـر ذلـك لحمـدان وقـع فـى نفسـه أن صاحبـه البقـال يعـرف واحـدا مـن هـؤلاء الأبدال ، وأنه يكتم سره عنه حتى يستوثق منه . فقال له يوما وقد ظهـر العتب فى وجهه : «إننى كنت أظن يا ابن السماك أن قد كان بيننـا مـن المعرفة والصداقة مايجعلك تثق بى وبأمانتى ، فإذا أنا مخطـئ. إنـك تعـرف أحدهؤلاء ولا تأمننىعلى سره».

فاضطرب البقال قليلا ثم قـال لـه : «مـن أخـبرك بهـذا يـاحمدان ؟» فأدرك حمدان أن ماظنه كان صحيحا فقال له : « قـد عرفـت ذلـك مـن لحن قولك ، فوالله لئن كتمتنى أمره بعد اليوم ليكونـن هـذا فـراق بينـى وبينك ».

فما وسع البقال حينئذ إلا أن أخبره بأن رجلا صالحا من الأهـواز قـد ورد القرية منذ ثلاثة أشهر، وأنه اتصل به واستكتمه سره ريثما يؤذن لـه

بالظهور للناس ، وأنه يصلى فى اليوم خمسين صلاة ، وأنه متقشف يسف الخوص ويأكل من كسبه ويتصدق بكل مافى يده ..

- لقد شوقتنى إلىهذا الرجل ، فأين هوالآن ؟ - فى داخل هذا الحائط الذى تراه.

- هذا حائط آل العدوى ، فماذا يصنع فيه ؟

- جاءونى يوما فسألونى أن أطلب لهم رجلا يحفظ عليهم ماصرموا من النخل ، فدللتهم على هذا الرجل الصالح ، فناظروه على ذلك ، فأجابهم إلى حفظه بدراهم معلومة ، فهو هناك يحرس تمرهم.

- هل من بأس فى أن نذهب إليه الساعة فنزوره؟

- قلت لك إنه لما يؤذن له بالظهور للناس ، فأرى أفضل أن أحدثه عنك أولا وأستأذنه فى تعريفك به ، فإذا أذن ذهبت بك إليه .

فلما كان المساء من ذلك اليوم ترك البقال غلامه فى الدكان وذهب هو وحمدان فدخلا حائط آل العدوى ، فانتهيا إلى بيت صغير مبنى بالمدر، فبصرا بالشيخ الأهوازى قائما يصلى فى فناء البيت على حصيرة بالية . فوقفا بعيدا عنه حتى سلم من صلاته فأقبلا نحوه وسلما عليه ، فرد عليهما السلام ثم قام ليصافحهما فقبلا يده ودعاهما للجلوس فجلسا معه على طرف الحصيرة البالية وهو يرحب بهما .

قال ابن السماك : « هذا يا سيدى الشيخ صديقى حمدان قرمط الذى حدثتك عنه قد جاء ليستمد من بركتك » فقال الشيخ « أهلا بك وبصديقك الصالح . إنى لأرجو أن يرزقه ا لله الإخلاص وأن ينفع به » . وكان حمدان يحدق فى وجه الشيخ يتأمل صورته فى نور السراج الخافت الموضوع على رف محفور فى جدار البيت خلف مقعد الشيخ ، فلما سمع هذا القول منه غض من بصره خشية أن يكون الشيخ إنما دعا له بالإخلاص لما رآه يحدق فيه كالمرتاب فى أمره ، على أنه استطاع باختلاسه النظر إليه أن يأخذ صورة مجملة منه ، فهو طويل القامة

مستطيل الوجه واسع العينين رقيق الشفتين فى نبرات صوته غنة محببة . وعلى رغم تشعثه توحى هيئتـه العامة إلى حمدان أنه كان ربيب نعمة خالية، وتذكره بما سمع عن بعض ملوك الهند فى قصص العامة أنه ترك عرشه وهرب من دار ملكه وأوى إلى صومعة فى أحد الكهوف حيث انقطع للعبادة والتأمل .

ومالبث الشيخ أن تكلم فى الزهد والتقوى فسمع حمدان منه كلاما لم يسمعه من أحد من قبل . ولما بلغ من كلامه إلى ذكر الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وضرب لذلك أمثلة شتى ، لم يملك حمدان أن خشع قلبه فغلبه البكاء ، إذ وقع فى نفسه أن الشيخ قد عرف سره من طريق الكشف ، فهو يوبخه ويدعوه للتوبة والاستغفار . وإلا فكيف ذكر العيارين فى هؤلاء ؟

ولما كفكف دمعه لم يشعر إلا وهو يقول للشيخ : « أجل يا سيدى قد كنت عيارا فيما مضى، ولكنى تبت إلى الله فادع الله أن يتوب على ». وعجب البقال لما سمع من حمدان ، فما كان يخطر بباله قط أن هذا الأكار الصالح كان يشتغل بالعيارة . ولكن سروره بشهود هذه الكرامة الظاهرة من الشيخ طغى على عجبه فجلس ينصت إليه لعله أن يسمع منه كرامة أخرى .

قال الشيخ لحمدان : « لا تبتئس يا أخى فمن تاب تاب الله عليه . وإن هؤلاء الذين يعملون السيئات وهم يقصدون الخير ويتوهمون أنهم يحسنون صنعا لأقرب الناس إلى فعل الخيرات إذا هدوا إليها وبين لهم سبيل الخير من سبيل الشر ، لأن الله قد فطرهم على حب الخير ولم يبق إلا أن يهديهم إلى طريقه » .

ثم استطرد إلى الكلام فى القضاء والقدر فوعى حمدان منه أن الله لا يحاسب الناس إلا على قدر ما يسر لهم من الأسباب لسلوك الخير والبعد

عن الشر . فالفقير الذى تدفعه الفاقة إلى سرقة ما يقتات به لا يكون حسابه كحساب الذى يسرق ليتنعم فى مأكله أو مشربه ، إذ يقع شطر من تبعة الأول على جاره الغنى الذى حرمه بعض حقه فى العيش بما احتجنه عنه ، فقد خلق الله الأرض وجعل فيها من الرزق ما يكفى أهلها جميعا ويزيد عن حاجتهم ، ثم هيأهم للسعى فى طلبه ، لتنشيط أجسامهم وعقولهم ، وليبلوهم أيهم أحسن عملا . فيحسن الغنى إلى الفقير ، ويأخذ القوى بناصر الضعيف ، لا ليجعل الغنى ماله ذريعة لإجاعة الفقير وتضييق مذاهب العيش عليه ، ولا ليتخذ القوى قوته وسيلة لإذلال الضعيف واضطهاده .

وبينما حمدان وصاحبه البقال يصغيان إلى كلام الشيخ إذا بالشيخ ينهض بغتة فيستقبل القبلة ويكبر للصلاة . فأومأ البقال لحمدان أن ذلك علامة الإذن بالانصراف فانصرفا بهدوء .

رجع حمدان إلى بيته وهو يردد ما وعاه من أقوال الشيخ ، ويستذكر ما عزب منها عن ذاكرته . وأرق ليلته لما شغله من أمره فلم ينم إلا غرارا .

ثم أخذ يتردد عليه بعد ذلك مع صاحبه البقال أو وحده فما يزداد إلا إيمانا به وحبا له وإعجابا بعلمه . وقد أحس — لا يدرى كيف أحس — كأنه أصبح اليوم بعد اتصاله بالشيخ أقرب إلى نفسه الأولى قبل التوبة منه إلى نفسه بعدها . فقد أخذ حمدان التائب المنكسر يتضاءل ، ويعود إلى مكانه حمدان الثائر العنيف الذى يشعر أن له رسالة فى الحياة عليه أن يؤديها لخير البشر .

وإنه لراجع من عمله ذات مساء ، فلما أقبل على دكان البقال إذا جلبة وضوضاء وجمع غفير من الناس متجمهرون حوله وإذا اثنان من آل العدوى يأخذان بتلابيب الشيخ ولحيته ويدفعان فى صدره ويسبانه بقبح الكلام ، والبقال يحاول أن يدفعهما عنه وأن يكلمهما فى أمره ،

وهما ماضيان فى الإيذاء والشتم لا يريدان الاستماع إليه . فربط حمدان أثواره ناحية ثم اخترق الجميع حتى نفذ إلى حيث وقف الشيخ أمام باب الدكان، فنحى يدى الرجلين عن لحيته وعنقه بقوة ، وصاح فيهما قائلا : «ويلكما ! ألا تخجلان أن تصنعا هذا بهذا الرجل الصالح ؟ »

فقال أحدهما « إن هذا الرجل إنما هو دجال يظهر التقوى والورع وهو لص كبير » . فسكت حمدان قليلا ولمع فى ذهنه بسرعة البرق خيال صاحبه القديم الشيخ بهلول فأسرع يقول : « كلاهذا غير ذاك!»

فاستغرب القوم كلامه ، وأدرك هو أن لسانه قد زل بما لم يقصد ، فاستدرك يقول : «لوتعرفان حقيقة هذا الرجل لتعضان البنان ندما على ما قلتما فيه » .

فقال أحدهما : «كيف لانعرفه وهو أجيرنا وقد بلوناه ؟ إنما أنت الذى لاتعرفه ».

وقال الآخر : «ويل له ، لم يرض أن أكل تمرنا حتى باع النوى؟»

فتنحنح البقال وقال : «يامعشر القوم ،إنما جاء هذا الأمر من خطأ فى الظن وقع فيه هذان التاجران ، ولو أصغيا إلى لشرحت لهما حقيقة ماحدث ».

فقال حمدان : «ماذا حدث »؟

فقال البقال : «كان هذا الشيخ الأهوازى يحرس لهذين تمرهما فى هذا الحائط ، وكان يصوم كل يوم ويأخذ عند إفطاره منى رطل تمر فيفطر عليه ويجمع نوى ذلك التمر . وقد حملا تمرهما اليوم فجاءا عندى ليحاسبا أجيرهما هذا على أجرته لأننى أنا الذى دللتهما عليه لما عرفت من أمانته وصلاحه ، فلما دفعا إليه أجرته جعل هو يحاسبنى على ما أخذ منى من التمر أيام حراسته للحائط ، وحط من ذلك ثمن النوى الذى كان دفعه إلى . وسمع هذان مادار بينى وبينه فى حق النوى فوقع فى

ظنهما أنه كان يأخذ من ثمرهما ثم يبيع لى نواه ، وأردت أن أبين لهما حقيقة ما جرى فما أمهلانى أن وثبا عليه فكان الذى كان» .

فندم التاجران على مابدر منهما فى حقه من السب والأذى ، واعتذرا إليه وقبلا رأسه وسألاه أن يجعلهما فى حل مما ارتكباه .. فقال لهما :«أنا الذى عرضت نفسى لسوء الظن فلا تثريب عليكما ، سامحكما الله وغفر لكما ولى ». فسرا من كلامه وعرضا عليه قدرا من المال هدية له تعويضا لما أصابه من المكروه ، فأبى أن يقبله وشكرهما وقال لهما : «لاآخذ إلا أجرتى التى استحققتها بعملى ». وكان الناس ينظرون إلى ذلك متعجبين من زهد الشيخ وأمانته ،فلما انفضوا من ذلك المكان جعلوا يروون لغيرهم ماشهدوه من هذا الحادث العجيب ، ونشروه فى كل مكان ، فصارت أخبار هذا الأهوازى الصالح حديث القرية كلها ، ثم لم تمض إلا أيام حتى عمت أخباره سائر تلك الناحية.

أما الشيخ حسين الأهوازى فقد اتخذ الجامع مقامه بعد ذلك، وكان الناس يهرعون إليه من كل مكان يتبركون به ويلتمسون منه الدعاء ، وكانوا يأتون إليه بالطعام والمال فيفرق كل ذلك على من يحضر عنده من الفقراء والمساكين ، ويأبى أن يصيب إلا من طعامه الخاص من كسب يديه فى سف الخوص يبيعه له صاحبه البقال فيشترى له بثمنه شيئا من الخبز والتمر .

ولبث على ذلك مدة حتى وجدوه يوما عليلا لا يستطيع الحركة ، فعرض بعضهم عليه أن يحملوه إلى بيوتهم ليعالجوه فأبى ، وسألهم أن يحملوه إلى صديقه البقال . فلما صاروا به إليه فرش له البقال حصيرا على أرض الدكان فأرقدوه عليه وانصرفوا وكلهم يحسد البقال على مااختصه الشيخ به من رفيع المنزلة عنده .

وكان البقال يريد أن يحمله إلى داره ليعنى أهله بتمريضه، ولكن الشيخ كان يستأنيه فى ذلك حتى أقبل حمدان يسوق أثواره راجعا من

عمله ، فلما رأى ماحدث للشيخ أقسم عليه ليحملنه إلى داره ، فتنازع هو والبقال على ذلك والشيخ بينهما ساكت لايقول شيئا . ثم قال لهما:«أنتما أخواى لافرق بينكما عندى ، ولكن حمدان قد أقسم فلا بأس أن نبر قسمه ». ثم جعل يطيب خاطر البقال حتى رضى .

٤

وأنزله حمدان منزلا كريما فى داره ، وأوصى أخته راجية بأن تبذل غاية جهدها فى تمريضه والعناية به ، وشدد عليها فى ذلك وأمرها ألا ترد له طلبا يسألها إياه . فضاقت راجية بمقدم هذا الرجل الغريب ، وثقل عليها ما تلقى من العناء فى علاجه وتمريضه ؛ فعليها أن تدلك رجليه كل يوم وتدهنهما بزيت النعام ثم تلفهما بخرق الصوف ، وإذا أراد القيام لقضاء حاجته أو للاغتسال أو التطهر وطأت له كتفها فتحامل عليها حتى توصله إلى المستراح أو المغتسل ثم تعود به إلى مرقده . وعليها أن تغسل ثيابه وترفوها وتهيئ له طعامه وتصلح له فراشه فوق ماكانت تقوم به من علاج شئون الولدين . ولكنها لم تلبث أن أنست إليه فقد وجدته — لا كما تخيلته من قبل ، إذ وصفه لها أخوها شيخا زميتا لاعمل له إلا الوعظ والإرشاد والتوبيخ ويهتك أسرار الناس من طريق الكشف ــ بل كهلا جميل الصورة لطيف المعشر غزل العينين فى حكمة وتبصر، جياش القلب فى سكينة وهدوء ، ولما يعد سن الشباب إلا قليلا ، وإذا خرج من المغتسل ومشط شعره وسوى لحيته وشاربه وتكحل وتطيب انقلب فى عينيها فتى آنسا تلتذه أكباد النساء.

وإنه ليصلى جالسا فلا ترى بأسا أن يقطع صلاته إذا أقبلت عليه ليبتسم لها ابتسامته العذبة ، ويقول لها إن العلة التى ابتلى بها كانت نعمة من الله عليه إذ قيض له وجها جميلا يؤنسه ويعطف عليه ويشم أنفاس العافية من ردنيه ، أو يسألها عن حال الغيث وفاختة ويحدثها أنهما

أصبحا يحبانه ويتعلقان به . وقد يقول لها إنه يتمنى على ا لله أن يطيل أمد علته ليبقى له أنس هذا المكان .

وقد ظهر لها جليا أنه يغازلها بأسلوب خفي ، ولكنها ظلت تتحفظ أمامه وتتجاهل قصده خشية أن يكون ذلك منه إنما هو من باب تطييب الخاطر والاعتراف بالجميل ، فهي لاتراه إلا مصليا أومسبحا، وهويكثر الصوم ويقول لها لولا العلة لواظب عليه . بيد أنه كان يريبها من أمره أنه يستلذ مس راحتها حين تدلك له رجليه ، ويهفو إلى جسمها حين يتحامل عليها في قيامه لحاجته . وعيناه الغزلتان : كيف يخطئها أن تفهم ما تنطقان به؟ إنها قد رأت شيئا من ذلك في عيون عشاقها الأولين . وخطر لها ذات مرة أن تطالع حمدان بما رابها من أمره ، ولكن هل يصدق حمدان مثل هذا في حقه ؟ وتذكرت ماضيها الذى تطويه عن حمدان فعجبت كيف خطر لها ذلك الخاطر السخيف . وعلام تسيء إلى رجل يلاطفها ويطايبها ولم يسئ إليها قط؟

مكثت راجية برهة يصطرع في قلبها عقيدة الناس في هذا الرجل الغريب وعقيدتها فيه ؛ يعزز الأولى عندها إجماع الناس وماتشهد من صلاته ونسكه، ويؤيد الثانية مايحس به قلبها وماتشهد من حديثه وسلوكه ونظرته. على أن حيرتها ما لبثت أن انجابت عنها إذأ يقنت أن إحساس قلبها هو الصادق الأمين .

كان قد انقضى شهر على مقام الأهوازى في دار حمدان ، وكان قد تماثل قليلا من علته ،فاستطاع أن يقوم بنفسه لقضاء حاجته ، وكان حمدان على جارى عادته يبكر لعمله في الصباح ويعود من المساء فيجلس إلى ضيفه الصالح يخدمه بنفسه ويسمر معه طرفا من الليل يستمع إلى حديثه . وقد يأتي صاحبه البقال فيحضر مجلس الشيخ معه . وكان الشيخ قد أوعز إليهما فكتما مقره عن الناس ريثما يبرأ من علته . ولما ضاق صدر البقال بكثرة سؤال الناس عنه أشاع فيهم أنه تركه في

الدكان ليلة جاءوا به هناك ، فلما أصبح الصباح وجده قد اختفى . فإذا تعجبوا من ذلك قال لهم لا عجب فهو من أهل الطى . وإذا أظهروا التأسف لفراقه قال لهم لا تبتئسوا فإنه سيعود إلى الظهور لكم .

وذات يوم خرج حمدان مبكرا لعمله كعادته وترك الشيخ فى صلاته التى لاتنقطع . ورجعت راجية إلى فراشها لتستريح قليلا حتى يطلع النهار ، بعد أن قد هيأت لأخيها بعض ما يحتاج إليه من الزاد ليأكله فى طريقه .

وبينما هى مستلقية على فراشها ومن دونها الصبيان يغطان فى نومهما إذا بالشيخ يناديها من حجرته ، فخفت إليه ووقفت على باب الحجرة تسأله ماذا يريد ، فأومأ أن تدخل فترددت قليلا ثم دخلت فأسرع هو إلى الباب فأغلقه . ولما رآها قد خافت قال لها فى هدوء ولطف « لا تخافى يا راجية فإنى سأفضى إليك بسر لا أريد أن يسمعه أحد غيرك »

وما كانت هذه الكلمة لتهدئ خوفها ، ولكنها لم تستطع أن تصنع شيئا، فقد اشتد وجيب قلبها ، وملكتها الحيرة ، وأذهلتها المفاجأة ، وهى لا تدرى ماذا يريد وإن شعرت أنه لا يريد بها خيرا . ولم يدع هو لها مجالا للتحير والتردد، فقد أخذ بيدها المرتعشة فأجلسها على طرف فراشه ، فهمت أن تصيح فبدرها قائلا : «لقد عرفت سرك يا راجية ، فلتعرفى أنت سرى ».

فما سمعت ذلك منه حتى ظهر عليها الاستسلام والتوسل ، فابتسم لها ابتسامته العذبة ، وأنشأ يقول وهو يضرب على كتفيها بلطف: «لايخطرن ببالك أننى سأفشى سرك أو أسىء إليك ولا تحسبن أنى سأوبخك أو ألومك على مازلقت إليه من بدوات الشباب ، فكل ابن آدم خطاء ، وإنما العصمة للإمام المعصوم ».

وانبرى يحدثها عن الإمام المعصوم الذى سيظهر وشيكا فينشر العدل فى الناس ، ويرفع الظلم ، ويملأ الأرض رخاء ورفاهية، ويغفر ذنوب الناس وخطاياهم ، حتى يغبط التقى الورع منهم أخاه العاصى المذنب ، ويود أن لو كان قد استوفى حظه من لذائذ العيش مثله .

فسرى عن «راجية » قليلا ، وذهب عنها الخوف ، فلما رآها قد أطمأنت إليه أخبرها بانه قد جاء إلى هذه القرية بأمر من الإمام المعصوم ليدعو أهل هذه الناحية إليه .... ثم قال لها : «فهذا سرى قد أطلعتك عليه لعظيم ثقتى بك ولم أطلع عليه أحداً سواك ».

قالت له: « ولا أخي حمدان ؟» قال لها : « ولا أخاك حمدان ... إنك ستكونين حواريتى الأولى ، وسيعرف الإمام لك هذا الفضل » .

وسكت قليلا وتركها تهيم فى أودية خيالها هنيهة .... ثم قال لها : «حذار أن تشكي في صدق ما أقول ، فإني أعرف مايدور في خلدك ».

فنظرت إليه ، فإذا عيناه تفيضان غزلا وشوقا ، فاضطربت شفتاها وأغضت عنه طرفها ولم تجب ...

قال لها: «أتذكرين ابن عمك عبدان ؟ »فخفق قلبها لذكر عبدان ، وقالت : «أوَ تعرفه ؟ ».

ـ إنه قد آمن بمذهبنا وأصبح من دعاة الإمام .

ـ فأين هو الآن ؟

ـ فى مركز دعوتنا بسلمية !

ـ أوقد تزوج هناك ؟

ـ ما حاجته إلى ذلك وقد أبيح له ماشاء من النساء يستمتع بهن كما يريد ؟

فانتفضت مذعورة وقالت : كيف ذاك ؟ قال لها : «إنه من المخلصين للمذهب ، وقد رفع عنه التكليف ، فله أن يفعل مايشاء».

ونظر إليها فرأى على وجهها ظلا من الكآبة ، فقال لها : «لا تكتئبي فما أراك إلا قد آمنت بمذهب الإمام ، فلك أن تفعلي ما تشائين مثله!»

اهتزت راجية لهذا القول اهتزازا عنيفا أنساها كل شئ إلا أنها بين يدى رجل قد ذلل لها كل عقبة أمامها ، فلم يبق إلا أن ترتمى عليه . ولكنها استمسكت متجلدة واجتهدت فى أن تعدل بالحديث عن مجراه ، فسألته : « وهل قد علم حمدان أخي أن عبدان هناك ؟ »

فأجابها : «مازال هذا سرا مكتوما عن حمدان وعن غيره ، ولا يعلمه سواك . اعلمي ياراجية أن الذى يدور بيني وبينك الساعة سيبقى سرا مكتوما بيننا ، ولا يعلمه حمدان ولا غيره أبدا ».

وما قامت راجية من عنده لتتفقد ولدى أخيها النائمين حتى ارتبط سره بسرها فأصبحا سرا واحدا !

وما هى إلا بضعة أيام حتى التمس الشيخ من حمدان أن يأذن له بترك داره بعد مابرئ من علته ، ولكن حمدان ألح عليه أن يبقى مقيما عنده ، فاعتذر الشيخ قائلا :

« لقد آن لى أن أظهر للناس ، فإذا بقيت عندك فسيتوافد الناس لزيارتى ، ولا آمن أن يكون فى ذلك مشقة عليك ومشغلة لك عن عملك ».

فسأله حمدان : « ألم تقل لى إنك مأمور بأن تقوم لإصلاح هذا البلد ؟»

قال الشيخ : « بلى ، لقد أمرت أن أدعو أهله من الجهل إلى العلم ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الشقاوة إلى السعادة ، وأستنقذهم من ورطات الذل والفقر ، وأملكهم مالا يستغنون به من التعب والكد » .

فقال حمدان : « فإنى قد وهبت نفسى لخدمتك ، فقد لقيت بك القائد الذى طالما تمنيت أن أجده لإصلاح هذا البلد » . فنظر إليه الشيخ

مليا ، ثم قال له : « إن الأمر يا حمدان لأخطر مما تظن ، وإنى أخشى أن يلحقك فى هذا السبيل أذى كثير ».

قال حمدان : « فإنى وا الله لا أبالى ما يصيبنى فى سبيل الخير ولو لقيت منيتى » .

فابتسم الشيخ حينئذ وقال له : « لقد صدق عبدان فيما وصفك به ».

ـ عبدان ؟

ـ نعم عبدان ابن عمك.

ـ أين لقيته ياسيدى الشيخ ؟ . أهو حى يرزق ؟

ولم يشأ الشيخ أن يجيبه على سؤاله بل أخرج من بين ثيابه رسالة مختومة فدفعها إليه ، فلما فضها عرف فيها خط ابن عمه وإذا فيها : «رسالتى هذه من سلمية يحملها إليك أخونا الشيخ حسين الأهوازى من دعاة الإمام المعصوم الذى سيجرى ا الله على يده كل ما تصبو إليه نفسك ونفوس المخلصين من رفع الظلم وتحقيق العدل الشامل بين بنى البشر! وقد أوصيته بك خيرا فأوصيك أن تأخذ بناصره وتؤيده فى نشر دعوته وإنك لفاعل إن شاء ا الله . وإنى قد حدثته بكل ما يهمك أن تعرفه عنى منذ حللت واسط ثم انتقلت فى طلب العلم إلى بغداد ثم استقر بى المقام فى سلمية . أواه ما أشوقنى إليك يا حمدان وإلى سائر الأهل ، فعسى أن يتاح لى الرجوع إليكم قريبا حين يأذن لى نائب الإمام ، والسلام . »

وظل حمدان بعد ذلك أياما وهو يتعجب من تصاريف القدر كيف دفعت بعبدان إلى طلب العلم ببغداد ، وكيف وصلت أسبابه بأسباب الكرمانى أحد دعاة الإمام المعصوم ، وكيف انتهت به إلى سلمية حيث صار من فقهاء هذا المذهب الذى سينقذ الناس من الظلم وينشر بينهم

العدل الشامل ، حتى يكونوا سواء ليس فيهم غنى ولا فقير ، وكيف كان عبدان هو الذى اقترح إرسال هذا الداعية إلى هذه الناحية .

وقد ساءه فى أول الأمر أن تجوز عليه حيلة هذا الشيخ بعد ما عرف حيل العيارين وتمرس بأساليبهم ، فظنه من أولئك الصالحين الذين يتبرك الناس بهم ، وما هو فى الحقيقة إلا داعية من دعاة الخروج على الدولة باسم إمام معصوم يدعو إليه أعوان كثيرون منتشرون فى مختلف البلاد ، يتبع كل واحد منهم الأسلوب الذى يراه أكفل لحركته بالنجاح ، حتى يتم لهم هدم النظام القائم على سلطان المال ليبنوا مكانه نظاما جديدا أساسه العدل الشامل بين الناس .

ولكنه سرعان مازال استياؤه إذ تذكر أن هذا الداعية لم يقصد أن يخدعه عن حقيقته إلا ريثما اتصل به ووثق بمعاونته وتأييده ، فكشف له حينئذ كل شيء ، وأنه كان مأمورا من قبل رؤسائه باتباع هذا الأسلوب فى هذه الناحية حيث يكون أنجع فى جذب أهلها إلى الدعوة والإيمان بها. وتذكر كذلك أنه ما كان لينخدع بشيخ يظهر التقوى والصلاح لولا ذلك الضعف الذى انتابه منذ فجع بوفاة زوجته ، فغلبه الحزن عليها وأنساه ذلك المطمح العظيم الذى كان همه فى الحياة . وها قد عاد إليه الآن قوته وطموحه . وقد تمهد له سبيل العمل الصحيح تحت لواء هذه الحركة العظيمة التى يقودها قائم باسم الإمام المعصوم لا يعوزه الأنصار والأتباع فى كل ناحية من نواحى الدولة . وهذا ابن عمه عبدان قد صار من دعاة هذا المذهب وفقهائه وهو يدعوه إلى مناصرة الأهوازى فى حركته . فبأى حجة يمتنع عن الانضمام إليها وتأييدها ؟ .

لم يؤمن حمدان بالإمام المعصوم الذى يدعو إليه الأهوازى ، ولم يكلف نفسه عناء التثبت فى أمره ليتحقق وجوده أو عدم وجوده . وإنما آمن بالهدف الذى ترمى إليه هذه الدعوة الجديدة إذ كان هو هدفه من قبل . هؤلاء قوم يدعون إلى هدم سلطان المال على هدى وبصيرة ،

ويسيرون فى ذلك على خطة عامة واسعة لا تقتصر على بلد دون بلد . وقد أدركوا أن ذلك لا يتم لهم إلا بهدم هذه الدولة التى يقوم عليها وتقوم عليه . فليكونوا من يكونون وليكن مذهبهم ما يكون فحسبه أنه سيعمل على تقويض سلطان المال وكفى . وقد انضم قديما إلى العيارين من أجل هذا الأمر فلن يكون العيارون خيرا من هؤلاء ولا أهدى سبيلا .

وكان الشيخ الأهوازى قد تردد طويلا فى إطلاع حمدان على حقيقة أمره أو كتمها عنه ، ورأى ألا يكتفى بما علم عنه من ابن عمه عبدان ، فظل يعجم عوده بنفسه حتى تبين له أن مصارحته بالحقيقة أجلب لمعاونته له وأكفل بتأييده للحركة . ولم يقل إعجاب حمدان بالأهوازى ولا حبه له لما تحول عن عقيدة الصلاح والتقوى فيه بعدما كشف له حقيقته ، فقد رأى حمدان من بعد نظره وسعة حيلته وحسن تدبيره للأمور وصدق فراسته فى الناس وعلمه بظواهر الحياة وبواطنها مازاده إعجابا به وإيمانا بنجاح دعوته ، وكلفا بتأييده ومناصرته .

وكان الناس فى قرية الدور وماحولها لا يزالون يتناقلون أخبار الشيخ الصالح ويروون خوارقه ، ويتذاكرون سر اختفائه من دكان صاحبه البقال ويترقبون عودته ، على ما حدثهم ذلك البقال . فلم يكد يتناهى إليهم أنه قد عاد وأنه نزل بدار حمدان قرمط حتى توافدوا عليه زرافات ووحدانا يتبركون به ويلتمسون منه الدعاء ! فكان يهش لهم ثم يعظهم ويزهدهم فى الدنيا ويرغبهم فى الآخرة . وكان إذا صلى فى مسجد امتلأ المسجد بالناس ليستمعوا إلى وعظه وتذكيره .

وكان حمدان يقوم مقام الحاجب له : يأذن للناس عليه إذا شاء ويمنعهم إذا شاء . . كما كان ابن السماك يسعى فى خدمته ويقوم بقضاء حاجته . ولم يكن فى اتصال الشيخ بحمدان ما يريب ، فقد عرف أهل القرية ميل حمدان إلى النسك والعبادة منذ رزىء بموت زوجته ، فلا

غرو أن يختصه هذا الولى الصالح بمودته والقرب منه . واشتهر ابن السماك أيضا بإغراقه فى حب الصالحين .

وانقطع حمدان أياما عن عمله لما شغله من خدمة الشيخ واستقباله الناس الذين يفدون إليه . وقد زادت نفقات بيته منذ أقام الشيخ فيه وليس له مورد آخر غير ما يكسبه من حمل الغلات على أثواره . فعزم على أن يكاشفه بأمره ويستأذنه للرجوع إلى عمله ليتمكن من الإنفاق على بيته . ولكن الشيخ سبقه فوضع بين يديه بدرتين من الذهب وقال له: « أنفق من هذا المال ما تشاء يا حمدان فإنه من مال الدعوة ، وإذا نفد جئتك بغيره »

فلما أظهر حمدان تعجبه من وجود هذا المال عنده ، قال له ضاحكا : « لو كان ابن السماك فى مكانك لتركته يظن أن هذه كرامة منى » . قال له حمدان : « فمن أين جاءك ؟ » .

فأخبره بأن هذا من مال الدعوة، وأنه يستطيع أن يأخذ منه ما يحتاج إليه للإنفاق عليها من كبار تجار اليهود أينما حل من البلاد ، ثم يرجع وكيلهم بسلمية على مركز الدعوة هناك بالمال الذى أخذه الدعاة . فحرك حمدان رأسه من التعجب ثم قال : « ومن أين لمركز الدعوة بهذا المال الكثير ؟ : قال الشيخ : يأتيه ذلك من الدعاة فى الآفاق حين ينجحون فى دعوتهم ويكثر أتباعهم ، فيرسلون ما يجمعون من هؤلاء إليه » .

ـ فكيف يرسلون المال إلى المركز ؟

ـ ويلك ياحمدان . . . عن طريق هؤلاء اليهود أنفسهم ، يأخذه المركز من وكيلهم هناك .

فدهش حمدان لهذه الطريقة العجيبة فى توريد المال وإصداره بين الأصقاع المتباعدة ، وازداد إدراكا لخطر هذه الحركة وإيمانا بنجاحها .

٥

وأخذ الشيخ يصطفى من الوافدين إليه من يتوسم فيهم الاستعداد للإيمان بدعوته ممن يكثرون التردد عليه ، فيختلى بهم ويفضى إليهم بأنه يدعو إلى إمام من أهل البيت سيظهر وشيكا فيملأ الدنيا رخاء وعدلا وسلاما .؟ ثم يتدرج فى الإفضاء إليهم بأسرار الدعوة على قدر استجابتهم لها وثقته بإخلاصهم فى الإيمان بها .

ثم اتخذ من هؤلاء الأتباع المخلصين له اثنى عشر نقيبا ، وجعل حمدان نقيب النقباء .. وأوصاهم جميعا أن يتجملوا بالصلاح والتقوى ويسيروا فى الناس سيرة حسنة . ثم وزعهم فى أنحاء تلك الجهة ليدعوا الناس إلى المذهب بحكمه وتؤدة ، فيخاطبوا كل قوم على قدر عقولهم ودرجاتهم ، ويميلوا إليهم بسبب يوافقهم ، ولا يفضوا بسر الدعوة إلا لمن يثقون بإخلاصه على أن يوصوه بكتمان السر تقية من السلطان .

وقد قسم الناس لهم إلى خاصة وعامة : فالخاصة هم الذين يفضى إليهم بسر الدعوة إلى الإمام المعصوم . وأما العامة فحسب النقباء أن يدعوهم للدخول فى مذهب الشيخ ، ويخبروهم بأن الله قد فرض عليهم خمسين صلاة فى اليوم والليلة ، إذ لا تكفى الخمس الصلوات لتطهيرهم من ذنوبهم ورفع المظالم عنهم ، بعد ما ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس وقل الصالحون وكثر الطالحون . وأمر النقباء بأن يؤيدوا دعوتهم بالعمل ، فيقوموا بهذه الخمسين الصلاة ليكونوا قدوة صالحة لغيرهم، وأوصاهم أن يعملوا جهدهم لتحويل العامة ـ حين يثقون بهم ـ إلى الخاصة .

ثم أمرهم بأن يأخذوا من كل واحد من الخاصة دينارا للإمام ، فأسس بذلك صندوقا للدعوة ينفق منه عليها ، ويتألف به قلوب الأتباع والأنصار .

وكان حمدان قد راجع الشيخ فى بعض هذه الأمور حين عزم على إصدارها خشية أن يكون فيها مايثبط عن الدعوة ، ويحول دون إقبال الناس عليها . فكان الشيخ يقبل مناقشته بصدر رحب ، ثم يشرح له مايرمى بها إليه من الأغراض التى تقوى الدعوة وتعززها . فقد قال له حمدان يوما: «إنى أخشى أن ينفض الناس من حولنا حين نفرض عليهم خمسين صلاة » فقال الشيخ « كلا يا حمدان ، إن العامة تميل إلى الغلو فى الدين والإغراق فى اتباعه، إذ يجدون فيه شفاء لصدورهم وتخفيفا لما تنوء به ضمائرهم من ثقل الخطايا والآثام ».

ولما آنس من حمدان قلة الاقتناع بهذا القول منه عاد إلى بيانه فقال له: « لا تنس يا حمدان أن هذا الأمر سيساعدنا فى بلوغ غرضنا الأكبر ».

ـ كيف ذاك ؟

ـ إن جل اعتمادنا فى دعوتنا على الفلاحين والأكارين والعمال ، فسيعوقهم ذلك عن عملهم ويدفعهم إلى التقصير فيه ، فيُحدث فى ذلك شقاقا بينهم وبين سادتهم الذين يسخرونهم من الأغنياء وملاك الأرض . فإذا قام هؤلاء السادة فأنكروا عليهم تقصيرهم فى العمل ، فسيثيرون على أنفسهم سخط العامة بإنكارهم شعيرة من شعائر الدين يقوم بها قوم متعبدون .

فما وسع حمدان بعد ذلك إلا التسليم له . ولولا أن الداعية لايزال يخفى على حمدان بعض ماترمى إليه دعوته فى صميمها وغايتها من تشكيك الناس فى دينهم ، حتى يستوثق من استعداده لقبول ذلك منه ، ليبين له غرضا ثالثا يقصده من هذا الأمر بخمسين صلاة ، فقد استند فى ذلك إلى ماورد فى حديث المعراج أن الله فرض على أمة محمد عليه الصلاة والسلام خمسين صلاة ثم أنقصت إلى خمس صلوات فى اليوم والليلة . فأراد التمهيد بهذا الأمر ليتم له بعد ذلك تشكيك أتباعه فى أمانة النبى فى التبليغ ، وليتلاعب بظواهر الدين الحنيف ، فحيثما قبلت

منه الزيادة فى عدد الصلوات فليس مايمنع فيما بعد من قبول نقصانها، فإن الذى يملك الزيادة يملك النقصان ، حتى ينتهى برفع الصلاة عنهم جملة ويقاس على الصلاة ماسواها من أركان الدين وفروضه .

وسأله حمدان يوما آخر عن الدينار الذى أمر بأخذه من الأتباع باسم الإمام ، ألا يكون ذلك مما ينفر الناس عن الدعوة . فأجابه الشيخ بأن ذلك سيؤكد إخلاص التابع للدعوة ويقوى ارتباطه بها ، وأنه لا خير لهم فى التابع الذى يعز عليه دفع الدينار لمذهب يدين به وإمام يؤمن بإمامته . ثم قال له :«سترى بنفسك وشيكا صدق ما أقول ».

ولم يطل بحمدان الانتظار حتى رأى بعينه مصداق ماتنبأ به صاحبه الداعية فى خلال أشهر معدودة . فقد انتشرت الدعوة فى جميع قرى الناحية ودساكرها حتى غمرت مدينة الكوفة نفسها ، فكان لها فيها سلطان عظيم . وظهر له أن أشد الأتباع إيمانا بها وتحمسا لها هم أولئك الذين دفعوا دينار الإمام . وأدهشه أن معظم الفلاحين والأجراء فى السواد وفى البطائح قد تقبلوا الخمسين الصلاة بقبول حسن وصاروا يواظبون عليها ، حتى كان فيهم الكثير من الذين كانوا يتركون الصلاة حين كانت خمسا قد أصبحوا يصلونها خمسين .

وكذلك انتشرت هذه الصلاة الجديدة بين العمال والصناع فى مدينة الكوفة وقرية الدور وغيرها من القرى ، فكان أحدهم لايكاد يبدأ فى عمله حتى يقطعه ليقوم بصلاته ، ثم يستأنفه بعدها ولا يلبث أن يقطعه ليقوم بصلاة أخرى ، وهكذا . فإذا روجع فى ذلك قال :« أتريدون أن تمنعونى من القيام بفرضى ؟ » فإذا قيل له «إنما هى خمس صلوات » ، قال : «وا لله ماجعلها كذلك إلا أنتم رجاء أن نقوم لكم بعمل أكثر . إن لله علينا حقا ولكم حقا ، فلنعط كل ذى حق حقه ».

وكان قد ولى الكوفة إذ ذاك وال جديد يدعى أحمد بن محمد الطائى ، وكان لايزال قليل الخبرة بشئون تلك الناحية ولما تقو أواصره بأهلها ولم

يفد منهم شيئا مما يطمع فيه من المال بعد ؛ فلما رفع إليه عامل قرية الدور خبر هذه الطائفة التى اجتمعت على الشيخ الأهوازى وازدياد خطرها وما قد ينجم عنها من القلاقل والفتن ، رآها فرصة سانحة فبعث رسولا من قبله إلى الشيخ يتوعده بالقبض عليه إذا لم يكف عن دعوته .

وأدرك الشيخ ما أراده الوالى فأوعز إلى حمدان فانطلق سرا إلى الكوفة، حيث قابل واليها فاتفق معه على مال يدفعه له ثمنا لسكوته . وكان هذا أول مال وقع فى يده منذ ولى أمرالناحية ، ففرح به فرحاعظيما وحفظها يدا لحمدان عليه .

ثم جعلت تتوارد إليه رسائل عمال القرى ينذرونه بخطر هذه الطائفة ، فما كان يهتم بها . فإذا اتصل به أحدهم وكلمه فى ذلك قال له : «لايرانى ا لله أحارب رجلا من عباده الصالحين ، فانصرف لشأنك ودعه وماندبه ا لله له».

وكان ملاك الأرض وأصحاب العمل قد تضايقوا من تقصير فلاحيهم وأجرائهم فى العمل لماشغلوا به من الخمسين الصلاة ، ولم يقدروا أن يردعوهم عن ذلك التقصير إذ انعقد إجماعهم على ذلك فى كل ناحية . وقد انبعثت فيهم روح جديدة فصاروا يشعرون بقوتهم وتظاهرهم ، ولايخشون أن يغلظوا الرد لمن أنكر عليهم مذهبهم ولو كان مالك الأرض نفسه أو سيد العمل . وإذا أريد عقاب أحدهم بالضرب هب الآخرون فذبوا عنه ، وإذا عوقب بقطع أجره أو إنقاصه جمعوا له من عندهم مايعوضه ، وإذا طرد من عمله تكفل الباقون بسد حاجته وامتنعوا عن سد مكانه .

فلما بعل هؤلاء بهذا الحال رفعوا شكاواهم إلى الوالى ، فكان يقول لهم : «لاشأن لى بما بينكم وبين فلاحيكم وأجرائكم ..فتراضوا فيما بينكم فإن عجزتم فاستغنوا عنهم واستعملوا قوما آخرين ». فإذا قالوا له : «فلن نجد من يفلح أرضنا أو نأجره لعملنا» قال لهم : «سبحان ا لله

فافعلوا ماترونه أصلح لحالكم ». حتى ركب إليه الهيصم يوما فى جماعة من حاشيته ـ وكان كبير ملاك الأرض فى تلك الناحية غير منازع ، منذ خلا مكان منافسه ابن الزعيم لما تضعضع حاله وحجر عليه بالإفلاس ـ فرحب به الوالى ولاطفه . فلما كلمه الهيصم فى أمر فلاحيه قال له : «قد جاء غيرك من الملاك فشكوا ذلك إلى ، فنصحتهم بالتراضى فيما بينهم وبين فلاحيهم وأجرائهم وإنك بما وهبك ا لله من وفر فى المال وسعة فى الأملاك لأقدر منهم جميعا على إرضاء من جعلهم ا لله تحت يدك».

فعبس الهيصم وقال له : «إنى ماجئت لأستعين بك على هؤلاء ، بل لتقبض على هذا الدجال الذى جاءنا من الأهواز فنشر فينا هذه الفتنة ». فأجابه الوالى : «كيف تدعونى أن أوذى رجلا صالحا يدعو الناس إلى الزهد والتقوى والصلاح ؟ ».

ـ فقد بدل فى الدين إذ فرض على أتباعه خمسين صلاة!

ـ ما إخاله فعل ماتقول . ومبلغ علمى به أنه دعاهم إلى الإكثار من الصلاة النافلة ، فإذا ماظن بعضهم أنه فرضها عليهم فذلك من غلو العامة، فلايؤاخذ هو عليه ».

فقام الهيصم من عنده مغضبا وهويقول : «وا لله لئن لم تحبسه وتحم الناس من فتنته ، لأقومن بهذا الواجب عنك ».

فنهض له الوالى وأخذ بيده متلطفا وهويقول : « إنك ياسيدى لتعلم أن ليس ذلك من حقك إلا أن أتجاوز لك عنه ».

وغمز له جفنه عند ذلك ، ففهم الهيصم قصده فتبلج الرضا فى وجهه وتناجيا قليلا ، ثم ودعه الوالى وهو يقول : «لقد خشيت وا لله أن يخرج كريم مثلك من عندى وهوعنى غيرراض ».

بث الهيصم عقب ذلك عيونه ، فأخذوا يستطلعون له حركات الشيخ الأهوازى وحمدان ، فرأوا الشيخ ذات ليلة قد دخل دار حمدان



قرمط وانصرف عنه أتباعه ليأوى إلى فراشه ، وعلموا أن حمدان كان غائبا تلك الليلة عن قرية الدور فنقلوا ذلك إلى الهيصم فأرسل جماعة من رجاله الأشداء مدججين بالسلاح ، فتقدم أحدهم فقرع باب الدار قرعا لطيفا . فلما سئل: من؟ قال: أنا رسول من حمدان. ولم يكد يفتح الباب حتى اقتحمه الرجال . فهمت راجية أن تصيح فأسرع أحدهم فضمها وسد فمها ومنعها من الحركة، وانطلق الآخرون فى الدار فرأوا باب حجرة يغلق فدفعوه ، وإذا هم بالشيخ الأهوازى وهو يحاول الفرار من شباك الحجرة ، فوثبوا عليه وجروه من الشباك ، وإذا هوفى لبسه المتفضل وقد رجل شعره وضمخه بالطيب وبدا لعينهم فى هيئة جميلة حتى كادوا يشكون أنه هو. فعصبوا فمه وشدوه وثاقا ثم حملوه وانطلقوا به من الدار . وبقيت راجية فى قبضة الرجل حتى قدر أنهم قد ابتعدوا بالشيخ عن الدار ، فأطلقها حينئذ ولاذت بالفرار .

ولما جيء بالأهوازى إلى قصر الهيصم قال له الهيصم: «من يحميك الآن منى ؟» فقال الشيخ : «إنك لن تقدر علىّ وسيخلصنى ا لله من يدك ».

- وا لله لأقتلنك فأرضين ا لله بقتلك !

- لئن حاولت ذلك فليعلمن أتباعى وليضرمنها نارا عليك وعلى قصورك وأملاكك!

فأثر هذا القول فى الهيصم ودفعه إلى التروية فى أمره ، فأمر به فسيق إلى مخدع فى القصر فحبسه وأقفل عليه الباب وحفظ المفتاح معه .

وأصابه فى تلك الليلة أرق فلم يقدر أن ينام ، فقام من فراشه وأمر بعض جواريه فجلسن له يسقينه ويغنينه ، وكان بينهم جارية فارسية حبيبة إلى قلبه يفضلها على من سواها ، فأخذت تواليه بأقداح الشراب الصرف حتى ثقل فقامت به إلى مخدعه وهو لايكاد يعى شيئا ، فما وضع رأسه على وسادته حتى نام . وانتظرت قليلا حتى هدأ من فى القصر

فسحبت المفتاح من تحت وسادته ، وتسللت إلى حيث حبس الأهوازى ففتحت الباب له وقالت :« إنى من المؤمنات بك وقد جئت لأنقذك فهلم فأتبعنى أخرج بك من باب الحريم حيث لايراك أحد ».

ـ ألا تخشين أن يعاقبك مولاك ؟.

ـ لن يعلم أننى أطلقتك فقد سرقت المفتاح من تحت وسادته وسأرده حيث كان .

ـ الحمد لله لقد علمت أنه سيخلصنى ، وقد أراد لك الخير إذ جعل خلاصى على يديك .

وكان الهيصم قد أمر رجاله أن يكتموا عن الناس نبأ قبضه على الشيخ خشية أن يثور أتباعه له . بيد أنه ماكاد يضحى النهار حتى انتشر الخبر فى أتباع الشيخ ، إذ كان حمدان قد عاد آخر الليل فروت أخته له ماحدث ، فعلم من وصفها لأولئك الرجال أنهم من رجال الهيصم . فأطار النبأ بذلك إلى أصحابه . وأمرهم بالاستعداد حتى يأتيهم أمره فيثوروا لشيخهم ثورة رجل واحد . وإنهم لكذلك إذ تناهى إليهم أن الهيصم قد فتح الباب على شيخهم عند الصباح ليقتله فوجده قد اختفى، ففرحوا لهذه الكرامة وأشاعوا فى الناس وقالوا إنه رفع ففتن بذلك خلائق كثيرون فدخلوا فى مذهبه أفواجا .

وبعد أيام ظهر الشيخ عند أحد نقبائه فى البطائح حيث بعث إلى حمدان سرا وإلى بعض نقبائه الآخرين ليوافوه هناك . فلما اجتمع بهم قال لهم : «إنى راجع إلى الإمام وقد تركت فيكم حمدان ليتولى تدبير دعوتكم فاسمعوا له وأطيعوا أمره ».

فقال حمدان : «إننا لانستغنى عن توجيهك وإرشادك ، فلو بقيت عندنا مختبئا لايصل إليك أحد لنرجع إليك فى شئون دعوتنا حتى يشتد ساعدنا ويقوى أمرنا ». وأيد سائر من حضر من النقباء كلام حمدان ، وتوسلوا إلى الشيخ أن يبقى بينهم ، وألحوا عليه فى ذلك ، ولكنه أصر

على عزمه وقال إن ذلك أمر الإمام . وعاد حمدان فقال : «ولكننا بحاجة إلى فقهك وعلمك وليس فينا من يغني عنك فى هذا السبيل ». فقال الشيخ : « سيبعث الإمام إليكم رجلا معدودا من كبار فقهاء المذهب وهو من أهل بلدتكم هـــذه فارجعوا إليه فيما يلتبس عليكم من الأمور».

فلما سألوه : من هو؟ قال لهم : إنه عبدان ابن عم حمدان ! ثم أوصاهم وصايا كثيرة وكان من وصيته لهم أن قال : «إياكم والتعجيل بإعلان العصيان للسلطان حتى يستحكم أمركم ويكثر أتباعكم فى كل مكان ».

وأدرك حمدان بعد رحيل الشيخ أن الهيصم لن يهدأ له بال حتى يقبض عليه كما قبض على الشيخ من قبل . فأخذ لذلك حذره وحاط نفسه بحراسة قوية من أتباعه ، واتخذ له عيونا يراقبون له حركات الهيصم كيلا يؤخذ على غرة.

وأخذ من ذلك الوقت يفكر فى إنشاء جيش سرى لحماية الدعوة بالقوة عند الحاجة إلى ذلك . فاختار نفرا من أتباعه فبدأ يدربهم على أعمال القتال والمبارزة فى أماكن نائية لا يراهم فيها أحد ، حتى إذا أتقنوا شيئا من ذلك وكل لهم تدريب نفر أخرين على هذا النحو . وشرع يشترى الأسلحة يعطيهم بعضها ويحفظ بعضها فى حفر وسراديب اتخذها لذلك متفرقة فى بيوت أتباعه . وكان له من خبرته بأساليب العيارة وحيلها وتنظيماتها العسكرية ماساعده فى هذا كله وجعل القيام به سهلا عليه .

وأظهر حمدان نشاطا عظيما فى تقوية الدعوة وتنظيم شؤونها ، والإشراف على أعمال النقباء والفروع التابعة لهم يكثر التنقل بينها ويقضى أوقاته فى عمل متواصل ، فكان لذلك كثير التغيب عن بيته ، فأوصى صاحبه ابن السماك البقال بتعهد أخته وولديه والقيام بشئونهم وقضاء حوائجهم . فكان يؤدى واجبه بأمانة وإخلاص .

بيد أن راجية كانت تظهر التذمر والاكتئاب منذ سفر الشيخ الأهوازى ولا تكاد ترضى عن شئ . فإذا عرج حمدان على البيت ليتفقدها ويتفقد ولديه أطلقت لسانها فى الشيخ تلومه وتلقى عليه التبعة فيما نابهم من الشتات والاضطراب . وتقول فى ذلك :« كيف يتركنا هكذا بعد أن أحدث لنا هذه المتاعب ؟ كيف يتخلى عنا بعد أو أورطنا فى هذه المحنة ؟ إن هذا لجبن منه ونذالة ». فيهدئها حمدان ويقول لها : «لاحق لك ياراجية أن تسبى الشيخ فإنه ما سافر إلا حين وثق بأننى سأقوم بالدعوة مكانه خير قيام ».

وكان حمدان يعجب لحنقها الشديد على الشيخ ، ذلك الحنق الذى يزيد على مر الأيام شدة . ولكنه لم يحمل ذلك إلا محمل الشفقة منها على أخيها والتألم لما يكابده من متاعب الاضطلاع بشئون الدعوة وكثرة غيابه عن البيت حتى كانت لاتراه إلا نادرا .

وكان حمدان يعلل نفسه بأن فى مجىء عبدان إذا جاء لعونه ما يحمل عنه بعض العبء وما يؤنس من وحشتها ويخفف من ألمها . فكان يترقب قدومه يوما بعد يوم وما أن جاء البشير بمقدمه حتى خف لاستقباله ، وفرح به فرحا مضاعفا من أجل الدعوة ومن أجل نفسه ومن أجل راجية، فاحتفل بمقدمه احتفالا عظيما دعا إليه نقباءه ووجوه أتباعه ليعرفهم بابن عمه فقيه الدعوة ومبعوث إمامها . ثم قضى معه أياما

يتباثان الشوق ويتقاصان ماجرى لهما من الحوادث منذ افترقا حتى جمع الله شملهما على هذه الدعوة العظيمة .

ولم يجئ عبدان وحده بل قدم معه بحبيبته شهر الأهوازية ، فأنزلهما حمدان الحجرة التى كان يسكنها الشيخ فى منزله ، أما راجية فقد أظهرت الفرح والانتعاش لقدوم ابن عمها والمرأة التى معه بضعة أيام ما لبثت بعدها أن عادت إلى كآبتها وحنقها ، فظن حمدان أن ذلك إنما نشأ من غيرتها على ابن عمها من تلك الأهوازية الجميلة التى معه ، فود فى نفسه لو أن عبدان جاء بدونها ، إذا لكان حرى أن يتزوج راجية فيؤدم بينهما .

وكان عبدان لا يألو جهدا فى ملاطفتها حتى أمام صاحبته ، فكانت راجية تعجب لذلك التبدل الكبير فى موقفه منها بعد ذلك النفور الذى كان يظهره لها من قبل . ولكن ذلك لا يزيدها إلا نفورا من حديثه وتوقيا للجلوس معه ، معتلة فى ذلك حينا بالشغل وحينا بالمرض . وكانت شهر تجتهد فى خطب مودتها واجتذاب قلبها إليها بمختلف الوسائل ، وكان لها من طبعها السمح وحنانها المطبوع ما يواتيها فى ذلك . حتى إن الغيث وفاختة سرعان ما أحباها وتعلقا بها لصباحة وجهها ولطف حديثها وحلاوة معشرها . ولكنها لا ترى من راجية إلا مودة تتصنعها تصنعا . فظنت ذلك من أثر الغيرة فى أول الأمر . ثم شكت فى صدق ظنها لما رأت من هذه الفتاة أمورا تدعوها إلى الشك والارتياب فوقع فى خاطرها أن لها سرا تكتمه عن الناس . فعليها أن تراقبها حتى ينكشف لها هذا السر . ثم أكثرت راجية من إغلاق بابها عليها وملازمة فراشها لا تقوم عنه إلا لحاجتها . وكانت تنفر ممن يدنو منها لخدمتها أو للسؤال عنها . فازدادت حيرة حمدان فى أمرها . ولكن مشاغله الجمة لم تدع له فراغا من الوقت ليضيعه فى الاهتمام بها أكثر مما فعل . فوكل أمر معالجتها إلى شهر ومضى هو فى استئناف أعماله

التى لا آخرلها ، ولا سيما بعد أن وجد من عبدان مددا عظيما من المشورة والتوجيه يقتضى منه مضاعفة جده ونشاطه .

وظلت شهر تتودد لراجية ، وتبسط لها حنانها وعطفها ، وتبالغ فى خدمتها ، وتتلطف فى سؤالها عن خطبها وتقول لها : « إننى أختك فأفضى إلى بما يشغل بالك لعلى أستطيع أن أجد لك منه مخرجا » فكانت راجية تصدها بكلام غليظ وتقول لها « ويلك ماأشد مكرك . أتريدين أن تستدرجيى لأقول لك شيئا تطعنين به فى حقى ؟ إن كنت تخشين أن ينصرف ابن عمى عنك إلى فاطمئنى فإنى لا اريده ولا هو يريدنى » فتضحك شهر من قولها ، فتثور راجية فى وجهها وتقول لها : « فماذا يدعوك إلى الغيرة من فتاة قبيحة مثلى ؟ آه لو كانت عالية بيننا لتجرعتك الغصص».

فتقول لها شهر دون أن يتغير من لطفها شىء : « وا لله إنى ما أراك إلا جميلة رائعة . ولقد حدثنى عبدان عن أختك عالية وما أراها تفضلك بشىء ليس عندك ما يقابله . ولو حضرتنا الآن ورأت ما فيك من هذا الهم الشاغل لما عطفت عليك أكثر من عطفى . فافتحى لى قلبك يا راجية ، فستجدين من قلبى كل خير ، وستندمين على ما أسأت الظن بأخت لك لم تلدها أمك !»

فلما سمعت راجية هذا القول منها دست وجهها تحت وسادتها وطفقت تبكى بكاء مرا ، فأدركت شهر أن هذا أول الوهن ، وأن الفتاة قد أوشك عصيها أن يلين . فجعلت تواسيها وتحنو عليها وتمسح من عينيها الدموع ومازالت بها حتى احتضنتها راجية بين ذراعيها فأفضت إليها بسرها .

ولم تدهش شهر لما سمعت ، فقد رأت من الدلائل منذ بدأت تجتهد فى ملاحظتها ما جعلها تعتقد أن السر الذى تكتمه الفتاة إن هو إلا جنين يضطرب فى أحشائها تريد أن تخفيه فى ظلامها ويأبى إلا أن يأخذ سبيله

في النمو حتى يشهد نور الحياة . وتذكرت أن الحسين الأهوازى كان قد أوصاها بأخت حمدان خيرا ثم كرر لها ذلك وهو يودعها فى سلمية بالشام . فأدركت الآن أنه كان يعنى هذا السر الذى خلّفه مطويا فى صدر هذه الفتاة المؤمنة ، إلى جانب سر الدعوة التى بثها فى صدور الآلاف من أتباعه المؤمنين !

ـ هأنذى يا شهر قد بحت لك بكل شيء فقولى لى ماذا أصنع الآن ؟ .

ـ هونى عليك يا أختى فسأعالج لك هذا الأمر .

ـ افعلى بالله عليك ، فو الله لئن أعطيتنى شيئا يسقطه عنى لأكون مدينة لك أبد الدهر .

ـ كلا لا ينبغى أن نفعل هذا . إن المذهب لا يبيح لنا أن نزهق روحا مؤمنة .

ـ لعن الله مذهبا يبيح الخيانة والعرض ثم يحرم قتل نفس لا تؤمن إن آمنت إلا بمثل هذا المذهب القبيح !

ـ كلا لا تسبى المذهب يا راجية فإنه جرم كبير .

ـ بل ألعنه وألعن إمامه ودعاته !

ـ عجبا كيف خالطك داعى الدعاة الأهوازى جسدا ولم يخالطك روحا؟ أعجزت براعته عن تنوير عقلك وإطلاقه من أسر العادة والوهم؟

ـ ما تقولين ويلك ؟ أهذا العار الذى يضطرب فى أحشائى وهم ؟

ـ نعم ، هذا جنين وليس بعار . جنين كسائرالأجنة سيقضى أجله المعلوم فى بطنك ثم تلدينه بشرا سويا لا ينقصه عضو ولا تعوزه قدرة .

ـ ياليتنى حملته لرشده ثم ألده عجلا يخور أو جروا يعوى أو خنوصا يقبع !

ـ هذا تعطيل لحكم العقل لا ريب ، ومن مثل هذا الضلال ما يروم مذهبنا أن ينقذ الناس

ـ فهل جر علّى هذا البؤس والشقاء إلا مذهبكم ؟

ـ لو عقل الناس جميعا فاعتنقوا مذهبنا لما شهدوا فتاة مثلك تبكى من خطب هين كهذا أجدر به أن يملأ قلبها جذلا وسرورا .

ـ بحقك أعفينى من هذا القول ياشهر ، فقد أشبعنى صاحبك النذل منه حتى تغثت نفسى ، ثم فر الجبان منى وتركنى وحدى أنوء بعاره وبعارى . ولكن أشيرى على ماذا أقول لحمدان وبأى وجه أقابله ؟ تـا لله ليذبحنى إن علم .

ـ كلا لن يذبحك حمدان يا راجية . إنه قد أصبح قائد الدعوة وما ينبغى لمثله أن يبقى مدخول العقل أسير العادة والوهم .

ـ إنه أخى وأنا اعرف به منك يا شهر !

ـ طيبى نفسا ودعى هذا الأمر لى ولعبدان .

ـ كلا لا تخبرى عبدان ! لا تخبرى عبدان !

ـ ماذا يخيفك منه ؟

ـ واسوءتا حين يعلم !

ـ ثقى يا راجية أنه سيعذرك أكثر مما فعلت أنا ،لا بل سيزيدك هذا فى عينه قدرا وإلى قلبه قربا . أما تعلمين أنه فقيه الدعوة ومبعوث الإمام إلى هذه الناحية ؟ فهو الذى سيهدى حمدان فى شأنك إلى السبيل الأقوم .

وسكتت راجية ثم قالت : « فإذا علم حمدان قبل ذلك؟ » .

ـ أنى له أن يعلم ؟

ـ سيرانى إذا جاء .

ـ لن يراك إلا متدثرة فى فراشك من علتك ، وسأبقى دائما بجانبك .

وطرق حمدان باب داره فى ليلة مطيرة للرعد فيها هزيم وللبرق فيها وميض والمزن يهطل كأفواه القرب ، قد ابتلت ثيابه وثقلت نعلاه بالوحل، فما فتح الباب حتى ولجه انسلالا ، ونظر فإذا شهر تستقبله كالبدر وعليها غلالة بيضاء رقيقة لا تكاد تخفى من أسرار قوامها شيئا ،

ولولا اختلاف بياض غلالتها عن بياض بشرتها لظنها جسـدا بـلا غلالـة أو غلالة بلا جسد .

فلما رآها كذلك انفتل عنها وأسرع إلى حجرته ، فلما دخلها تذكـر أنه نسى فلم يحيها بكلمة ، ولم يسألها عن عبدان أو راجية ، فشعر بخطئـه وأسف ، ولكنه ما لبث أن رآها تدخل حجرته وبيدهـا مصبـاح مضـىء فتضعه على ركن منها ثم تقبل عليـه فـلا يـدرى هـو أيهمـا أضـوأ ذلـك المصباح أم هذا الوجه . وأراد أن يستدرك ما فاته من تحيتها فالتفت إليها فـرأى منظـرا عقـد لسـانه : منظرهـا قائمـة أمامـه ومـن خلفهـا المصبـاح يتسرب نوره من خلالها ! فطفق يغض بصره متحايدا عنها ولكـن الفتنـة أخذت تغزو قلبه من خلال سمعه وأنفه ، إذ دنت منه حتى أفغـم رداعهـا خياشيمه ، وسمعها وهو فى غمرة السكر تقـول لـه بصـوت كموسـيقى الليل « ألا تخلع ثيابك المبتلة لأكسوك ثيابا أخرى ؟ »

فقال لها متلعثما : « شكرا لك ياشهر . إن من عادتى أن أفعل ذلك بنفسى » .

فتضاحكت قائلة : « هل بقيت لك من عادة يا قائد الدعوة ؟ » .

فشك حمدان فـى معنـى كلامهـا وخشـى أن يجيبهـا فيخطـئ قصدهـا فضرب عنه صفحا وقال لها : أين عبدان ؟

ـ هو فى حجرته يؤلف فى كتابه الجديد .

ـ لعله أوشك أن يتمه ؟

ـ لا أدرى ، ما سألته عن ذلك .

ـ وراجية كيف حالها ؟

ـ ويحها ، ماتزال عليلة يا حمدان . هـى الآن نائمـة فـى فراشـها وقـد دثرتها من القر .

ـ والغيث وفاختة ؟

ـ قد أنمتهما من أول الليل .

ـ بارك الله فيك ياشهر ، إنك والله لطيبة .

ـ لا تطرنى فما عرفتنى بعد .

ـ حسبى ما صنعت لأختى ولولدى .

ـ ولكنى ما صنعت لك شيئا!

ـ ما تصنعى من خير لهؤلاء فهو لى .

فابتسمت وقالت وهى تغادر الحجرة « لا تنس يا قائد الدعوة أن تغير ثيابك! هل أخبر عبدان بمقدمك ؟ »

ـ افعلى إن شئت وقولى له إنى أريد أن أراه ، فإن شاء جئته وإن شاء جاء إلى .

٧

وما كاد حمدان ينتهى من تغيير ملابسه حتى أقبل عبدان ، فتبادلا التحية ثم جلسا على الحصير واستندا إلى الفراش المطوى يتقيان به الجدار وخشونته . فأخذا يتحدثان فى شئون الدعوة وأنبائها الجديدة فقص عليه حمدان ما أنجزه من الأعمال فى طوفته تلك ، ثم أخبره أنه عرج على الكوفة فابتاع من إسرائيل بن إسحق صفقة كبيرة من الأسلحة حملها إلى دار النقيب هناك، وأنه أعطى اليهودى سبعة آلاف دينار برسم الإمام ليحيلها لمركز الدعوة بسلمية . وحدثه أن عيونه قد نقلوا إليه أن الهيصم قد دعا كبار الملاك بالكوفة إلى الاجتماع فى داره ليتذاكروا فى شأن الفلاحين وتقصيرهم ، حتى يجمعوا على رأى واحد فى علاجهم .

ثم سأل عبدان عما جد لديه من الأنباء فحكى له عبدان أنه تلقى رسالة من صديق له فى واسط ، ورد فيها أن أبا أحمد الموفق قد كسر الزنج كسرة شنيعة عند طهيثا واقتحم حصنهم الكبير الذى أسموه المدينة المنصورة هناك فلم تبق لهم قائمة فى تلك الجهة وأنه ترك ابنه أبا العباس

بواسط وسار هو إلى الأهواز ليستنقذها من أيديهم ، فإذا تم له ذلك لم يتبق لصاحب الزنج إلا مدينته « المختارة » .

قال حمدان : « إن هذا الموفق لعجيب الشأن ».

فقال عبدان : « أجل ، لولا حزمه وصرامته لزال ملك بنى العباس من عشر سنين خلت . وإن ابنه أبا العباس لعلى غراره » .

ــ من سوء حظ دعوتنا أن تقوم فى عصر على رأس الخلافة فيه هذان الكبشان .

ــ لا ينبغي لنا أن نيأس يا حمدان ، فإن ملكا يتوقف بقاؤه على شخصين يقودان الجيوش ويغامسان في المعارك ليوشك أن تقضى عليه رمية سهم أو رميتان .

ــ أخوف ما أخافه أن يفرغ الموفق من صاحب الزنج قبل أن يقوم لدعوتنا سلطان .

ــ إن صاحب الزنج لصعب المراس بعد ، وما يزال أمام الموفق أمد طويل ، فقد بلغنى أن المختارة أمنع من عقاب الجو

ــ أجل ، لقد رأيتها بعينى حين أوصلت أخت ابن الحطيم إلى الطاغية . فشهدت من مناعة حصونها ما يفوق العجب .

ــ لقد استطعت يا حمدان أن تزيل سلطان ابن الحطيم وتلصقه بالرغام وأنت عيار لا حول لك ولا قوة . فما ينبغي لك أن تيأس من بلوغ ما تريد وقد أصبح لك آلاف الأتباع والأنصار فى كل مكان

ــ كلا لن أيأس يا عبدان وأنت معى .

وتثاءب حمدان وقد نهكه الجهد والتعب فقال : « لعن الله النوم فإنه يعطل الحركة » .

فقال عبدان : « لو تذكرت أنه ملاذ الفلاح المكدود والعامل المجهد لما لعنته يا حمدان ».

فقال حمدان وهو يتثاءب : « إى والله لقد صدقت » .

- إنى لأراك مجهدا يا حمدان فهل لك فى أختك شهر تدهن لك أطرافك وتدلك لك جسمك لتنام نومة طيبة فتهب غدا موفور النشاط ؟

فطار النعاس من عين حمدان ولم يكد يصدق ما سمع ، ولكنه استمسك بهدوئه فقال : « لا وأشكرك يا أخى . ما بى من حاجة إلى ذلك ».

- بل أنت أحوج الناس إلى من يرفه عنك، ولن تجد أطب بذلك من شهر .

- لا يا عبدان لا أريد أن أتعبها ، فحسبها ماتقوم به لولدىّ ولراجية .

- كلا بل سيسرها أن تقوم بخدمتك ، فقد وهبت نفسها للدعوة ولن تجد أحق بخدمتها منك .

- فأغفنى من ذلك يا عبدان .

- لا أعفيك حتى أعرف ما يمنعك مما أنت بحاجة إليه لراحتك .

- فإنى أخشى الفتنة

فابتسم عبدان ضاحكا من قوله وقال له : « عجبا لك يا حمدان ، ماتزال كعهدى بك يوم كنت فلاحا تعمل فى أرض ابن الحطيم ».

- فكيف تريد أن أكون ؟

- كنت أتوقع أن تطرح هذا الوهم العتيق بعد ما جالست الحسين الأهوازى قرابة عامين حتى صرت قائد الدعوة . أفما رأيته قط يأتى شيئا من هذا ؟

- والله ما علمت عليه إلا خيرا .

- هذا حق ولكنه لا يرى بأسا بذلك . ما أحسبه قد تركك تظنه كما تظنه عامة الناس تقيا ومن الصالحين .

- كلا فقد أعلمنى بحقيقته لا ريب ، ولكنى ماوجدت عليه فى هذا السبيل من مغمز .

- لعله خشى عليك أن تزور عنه إذا كشف لك هذا الجانب من مذهبه وسلوكه ، فتركه حتى تكشفه لك الأيام .

فسكت حمدان قليلا لا يدرى ما يقول ، وأخذت خواطر شتى تجىء به وتذهب ، وتمثلت له شهر فى غلالتها الرقيقة البيضاء وقد جاءته على استحياء وعلى ثغرها ابتسامة عذبة ، فجلست بجانب فراشه وجعلت كفها البضة الناعمة تتسلل فى أطرافه . ثم انتبه لمكان عبدان فنقض هذا الخاطر عنه والتفت إلى عبدان قائلا : « ما كنت أحسب الحسين الأهوازى كما وصفت »

فقال عبدان « ليس الأهوازى ببدع فى ذلك فكلنا مثله ، وتلك جبلة فى الإنسان لا ينبغى لأحد أن ينكرها »

ونهض عبدان عند ذلك وقال : « فسأبعث إليك شهرا يا حمدان »

ـ كلا لا تفعل ، بحقك لا تفعل

ـ إنك برفضك هذا لتسىء بها الظن .

ـ كلا وا لله ماهذا قصدت ، وإنما أخشى السوء من نفسى

ـ فإن ثقتى بك يا حمدان لا تتزعزع .

وبرح عبدان الحجرة قبل أن يهتدى حمدان إلى جواب يرد به عليه . وما كاد الفجر يطلع من الغد حتى كان حمدان قد خرج من مغتسله ولبس ثيابه ، فوجد عبدان وصاحبته لما يقوما من منامهما . ودخل حجرة أخته وولديه فألفاهم نياما بعد ، فسره أن وجد أهل الدار كذلك ، واعتذر لنفسه بأنه لا يشاء إزعاجهم فترك الدار منسلا ومضى .

وظل حمدان أياما يشعر بحرج فى صدره مما وقع منه تلك الليلة . وأحس كأنما لا يستطيع أن يقع عينه على عين عبدان بعد ذلك حياء وخجلا ، فجعل كلما عزم أن يعود إلى داره يصدف عن عزمه ويتشاغل بالطواف على جهات أخرى من مراكز الدعوة يطيل بذلك أمد غيبته ، حتى تعاظم اشتياقه إلى العودة ، وإنه ليعلم إلى أيهم من الدار هو أشوق ، ولكنه انتحل لنفسه معاذير من رغبته فى مطالعة عبدان بما جد من شئون

الدعوة ، ومن قلقه على راجية التى تركها طريح الفراش لا يدرى ماذا فعل الله بها! وقد خف الحرج الذى كان ينوء به قلبه فما بقى منه رسيس إلا من الذكرى يجمجم بأصداء من النشوة واللذة بينهما صدى من الشجن الرقيق !

وكانت راجية تزداد قلقا كل يوم وتشعر بأن الجنين الذى فى بطنها إن هو إلا عين من عيون حمدان ، مازال يتقصى النبأ العظيم من شتى وجوهه ويجمع مختلف أسانيده وأدلته ليفجأ به حمدان يوما كامل البينة واضح البرهان . فاشتد إلحاحها على شهر أن تعجل بما وعدت من حل مشكلها ، فكانت شهر تعللها بأنها وعبدان قد مضيا فى هذا السبيل وقد قطعا الأشواط الأولى فيه بنجاح ، وما بقى إلا أن يعود حمدان ليقطعا معه الشوط الأخير .

٨

ولما عاد حمدان بعد غيبة عشرين يوما أو أكثر جعل يفيض لأهله فى شرح الأسباب التى اضطرته إلى طول الغياب وقد خيل إليه أنهم يرتابون فى صدق ما يقول فطفق يعززه بألفاظ التوكيد . فلولا أن عبدان وصاحبته كانا على علم بما يدفعه إلى ذلك لعجبا من أمره . وحينما دخل على أخته راعه ما هى عليه من هزال الجسم وشحوب الوجه وشعر نحوها بفيض من العطف والرثاء فجعل يواسيها ويطيب خاطرها . وهم أن يرفعها ليجلسها ويميط عنها اللحاف ليريحها قليلا من ضغطه ، فاعترضته شهر وحالت دون ذلك وهى تقول : « لا تفعل فإن الحركة تضرها والهواء يزيد من علتها ودعها هكذا فهى مرتاحة ».

ونظر حمدان إلى عينى شهر فأدرك أن أمرهما لا يرد وألا قبل له بمراجعته بله عصيانه . فقال لها : « هذى العليلة وأنت الطبيبة فدبرى أمرها كما تشائين ، وما أنا بينكما إلا واغل » .

وخلا به عبدان فقال له فيما قال : « كيف وجدت شهراً ليلة كلفتها بخدمتك فإني ما رأيتك في صباحها لأسألك ؟»

فقال حمدان : « أجل ، ما أردت إزعاجك إذ وجدتك نائما بعد ».

- لا ريب أنك أصبحت يومها نشيطا إذ غدوت والطير في وكناتها!

- نعم قد كان ذلك .

- بفضل شهر ؟

- لا أستطيع أن أجحد فضلها فإنها بركة على أهل البيت كلهم .

- فإياك أن تتحرج بعد مما يبيحه لك المذهب . كن حر العقل يا حمدان ولا تكن أسير العادة والوهم ، واذكر دائما أنك قائد الدعوة .

- إن كان هذا يسرك مني فسأكون بحيث تحب .

- أفأخبرك الآن بما كتمه عنك الحسين الأهوازي ؟

- افعل ياعبدان .

- ولكني أخشى أن يغلبك داؤك القديم فتثور غضبا على من حولك.

- كلا لقد شفيت منه .

- فسأمتحنك لأعرف مبلغ شفائك : ماذا تفعل لوبلغك مثلا أن راجية قد مسها ضيف عندك دون علمك ؟

فثار الغضب في وجه حمدان وقال : « ويلك يا ابن أم عبدان كيف تجرؤ أن تقول هذا في ابنة عمك ؟ »

- لا تنس أنني إنما أمتحنك فهأنتذا قد سقطت في الامتحان من أول مسألة .

- ولكن أختي لا ينبغي أن تكون موضعا لمثل هذا السؤال .

- فيم ياحمدان ؟ أليست هي مؤمنة بالمذهب مثلك لها في الاستمتاع

بما يحله المذهب مثل حقك ؟

ـ انظر فيما تقول ياعبدان فإنه قول عظيم .

ـ لافرق بين حالك وحالها إلا أن فعل العادة والوهم فـى حالها أشـد وأقوى ، واعلم أن عامة الناس لا يحتكمون إلى العقل فـى شئونهم وإنما يخضعون لوساوس المعشر الذى يعيشـون فيـه ، حتى يشـذ أحدهـم عـن معشره فيدعو من حوله إلى استعمال عقولهم فيما يأتون ومـايدعون . ألا ترى ياحمدان أن ألوفـا مـن الفلاحـين فـى هـذه الناحيـة قـد ظلمـوا كمـا ظلمت فما ثار أحد منهم على الظلم لأن سلطان المعشر كان يخلـد بهـم إلى الخنوع والسكوت ، إلى أن شذذت أنت عنهم فثرت على الظلم ثـم استصرختهم فثاروا معك . فإنما أطلقتهم مـن أسـر العـادة ومـن سـلطان المعشر فأسمعتهم صوت العقل ؛ فكذلك أمر الغيرة على الحريم لا يختلف فى شئ عن أمر الخنوع للظلم ، كلاهما أساسـه حكـم العـادة وسـلطان المعشر . وبعد فهل بلغت منك حد الاقتناع بهذا القدر من القول ؟

ـ سأنزل على رأيك فى كل ماتشـاء يـاعبدان ، إلا أن تدعونـى ألا أغار على أختى .

ـ إذا فما أقنعتك بعد بشىء !

ـ أما هذا فلا سبيل إليه .

ـ فلا سبيل إلى المذهب إذن أن تخالط بشاشته قلبك !

ـ عجبا ، أفهذا ركن فى المذهب لا يتم المذهب بدونه ؟

ـ نعم : إنك لتعلـم أن أسـاس مذهبنـا العـدل الشـامل ، وليـس مـن العدل ألا تبيح لأختك مااستبحت لنفسك.

ـ كلا مااستبحت لنفسى شيئا من هذا .

ـ بيد أن شهرا روت لى خلاف ماقلت، وما جربت عليها كذبا قط.

ـ ماذا تعنى ؟

ـ ماأحسبك تجهل ما أعنى ، إن شهرا قد قصت على الخبر كله ، ولقد عهدتك صدوقا ياحمدان قبل أن تعرف المذهب فلا أرينك كاذبا بعد إذ عرفته !

ارتج على حمدان حينئذ فلم يستطع أن يحير جوابا ، واعتراه خجل شديد وكرب عظيم حتى جعل العرق يتصبب من جبينه وتمنى لو أن الأرض ابتلعته لتنقذه من هول ذلك الموقف.

ولكن عبدان لم يشأ أن يتركه طويلا فى غمرته فما لبث أن دنا منه وقال له : « خفض عليك يا ابن عمى ، فوا لله ما أردت إيلامك ولا قصدت عتابك على ماكان منك ، وما شهر إلا أختك فى المذهب وقد ارتضت أن تصاحبك فليس عليك فيها من حرج . وما كان همى إلا أن أصحح لك العقيدة وأبين لك ما أشكل عليك من سر المذهب ، لعلى بالغ من ذلك ما أريد ».

فسرى عن حمدان قليلا إذ رأى أن الأمر أهون مما ظن ، بعد ماسمع من عبدان مارفع عنه تلك الغضاضة التى يشعر بها المرء حين يقف بين يدى صديق عزيز قد أساء هو إليه .فلم يبق إلا أن يعتذر لنفسه فيما وقع منه لا التماسا لعفو صاحبه بل حرصا على صون كرامته هو ورد اعتباره فقال :

ـ يؤسفنى ياعبدان أنك كنت السبب فيما وقع ، فقد قلت لك إننى أخشى الفتنة فما أبهت لقولى وأبيت إلا أن تمهد لى سبيلها .

ـ لقد هيأت لك سبيلها إذ لا أرى بها بأسا . فما ظنك برجل هيأ لأخته سبيل الفتنة وهو يزعم أنها إثم كبير ، ثم يلقى تبعة ذلك على أخته المسكينة ؟

ـ من تعنى ويلك ؟

ـ أعنى رجلا يدعى حمدان قرمط !

فانتفض حمدان انتفاضة شديدة وقال بصوت يرتجف : «ويلك ، وضح ماتقول »

ـ قد وضحت .

ـ ولكنى لم أفهم !

ـ املك نفسك! أما تذكر الحسين الأهوازى ؟

ـ مابا له ؟ ماذا صنع؟ قل .. عجل!

ـ ألست أنت الذى دعوته للنزول عندك ؟

ـ بلى .

ـ أفما كنت تدعه وحده فى الدار مع راجية ؟

ـ ويله هل ....؟

ـ نعم .

ـ فهى الآن ...؟

ـ نعم هو ذاك ؟

ـ ويل للفاجر ! وا لله لئن قذيت عينى بظله لأقتلنه ؟

ـ أتقتل مؤمنا من أهل المذهب ماقصد الإساءة إليك بما فعل ؟

ـ وأى إساءة أبلغ من أن أنزله فى بيتى فيهتك عرضى فى مغيبى ؟ ـ هل ساءك أنه فعل ذلك فى مغيبك ؟

ـ إنك ياعبدان لتفرى أحشائى بكلامك !

ـ استجب لصوت العقل ياحمدان وافقه ما أقول ! أرأيتك لو قام الأهوازى إلى طعام فى الدار فأكله فى مغيبك أكنت تثور عليه ؟

ـ ويلك أين هذا من ذاك ؟

- فهو لايفرق بينهما فى مذهبه .

- ولكنه كان يعلم أننى لست هناك .

فلقد كان يرجو أن تدين وشيكا لحكم العقل وتفىء إلى سنة المذهب.

- ويلك أفى المذهب أن يغتصب أخت امرئ أنزله فى بيته وائتمنه على أهله ؟

- حاشا لمثله أن يغتصبها ؟

فاعتدل حمدان فى مجلسه كمن انتبه من غفوة ثم استوى قائما وهو يقول : « ويلها أفقد كان ذلك برضاها ؟ ويل للفاجرة ! »

وعرف عبدان الشر فى عينيه فنهض إلى باب الحجرة مسرعا ثم وقف دونه فتقابل الرجلان : هذا عالى الهامة ، عريض الأكتاف . قوى التجاليد ، تقدح عيناه الحمراوان شررا ، وهذا متوسط القامة ، قليل الجسم معروق الوجه ، تفيض عيناه الغائرتان توسلا ورجاء .

قال عبدان : «ما أنا بمانعك مما تريد ، فلو شئت ياابن عمى أن تقتلنى بيد واحدة فتقذف بى الأرض لفعلت . ولكنى أدعوك بحق العقيدة التى جمعتنا على كره الظلم وحب العدل وبحق القرابة والرحم إلا ما تريثت حتى تسمع لقولى ، ثم افعل بعد ذلك ما بد لك».

- ماذا تريد أن تقول بعد ؟

- ماذا كنت ناويا أن تفعل ؟

- أن أطهرها بدمها .

- فهل قدرت أن هذا قد يفقدك ثقة الإمام بك ، فيعوقك عن العمل العظيم الذى ندبك الله إليه لإصلاح هذا البلد وإنقاذ أهله من الظلم؟

- ما شأن الإمام بهذا وهو من خويصة أمرى ؟

ــ مـايكون للإمـام أن يثق بمـن قتـل امـرأة مؤمنـة بـه ، لغير جريـرة ارتكبتها إلا أنها سارت على مذهبه . أفترضى يا حمدان أن يحبط عملـك العظيم من أجل أمر حقير كهذا ؟ . ثم اذكـر يـا حمـدان إن كنـت ناسـيا أنك قد أتيت مثل هذا فى أخت مثلها مؤمنة . وليس من العدل أن تدين غيرك بما لم تدن به نفسك .

سكت حمدان ولم يجـب ، فـأخذ عبـدان بيـده فقـاده حتـى أعـاده إلى مجلسه ثم قال له : «كأنى بك قد رجعت إلى صوابـك ياحمدان فحمـداً لله ».

فتنهد حمدان وقال : «أحسبت أنك قد أقنعتنى بما قلت ؟ كـلا وا لله مابرح فى نفسى منه شىء .

ــ فهـذا أول العافيـة لا ريـب . لقـد وقـع لى مثـل هـذا الحـال أول ماشدوت المذهب ، ثم زال عنى كما سيزول عنك لا محالة .

ورأى عبدان أن ابن عمه مشغول بأفكاره عن الإصغاء إلى حديثه ، فقال له : « ألا تحب أن تسمع قصتى مع شهر ؟ »

فظهر على حمدان النشاط والاهتمام وقال : « بلـى ، روح عنـى بهـا إن شئت ، فإنى كما ترى مشترك اللب أسيف ».

فاعتدل فى مجلسه وقال : « لما توثقت الصلة بينـى وبـين الكرمـانى ببغداد فصرت أتردد على منزله ، أدخل شهرا على ذات يوم فعرفنى بها وقدمها لى علـى أنهـا أختـه . ثـم مـالبث أن أحببتهـا وأحبتنـى فـأذن لنـا فتعاشرنا ، وبقينا كذلك حتـى كـان هربنـا مـن بغـداد . فلمـا صرنـا إلى سلمية بالشام أنزلنا الكرمانى فى داره هناك فعشنا جميعا مـع أهلـه ، ومـا أعلم إلا أنها أخته كما زعـم لى لا يخالطنى فـى ذلـك أى ريـب . حتـى بصرت به معها ذات ليلة على حال لايتفق مع زعمه ، فغشينى مـن الهـم

ما غشينى ، وأعمانى الغضب فوثبت عليه بخنجرى لأقتله ، فما كان منه إلا أن جذب الخنجر من يدى . وكان أقوى منى فحسبت أنه قاتلى ، ولكنه أخذنى معه إلى حجرة أخرى فجعل يهدئنى ويشرح لى الحقيقة فإذا هى خليلته . وقال إنه ما كذبنى ولاخدعنى إذ زعم لى أنها أخته ، فهى أخته فى المذهب ، وإذا لم يرضنى ذلك ، وأبيت إلا أن أعاشر أخته حقيقة فلا مانع عنده من ذلك . ثم جاء بأختيه وقال لى : «هاتان أختاى لأبى وأمى فاختر منهما من تشاء » فوقع ذلك من نفسى وندمت على ماكان منى فى حقه ، فكان ذلك آخر عهدى بمابقى فى نفسى من قيود العادة والوهم » وسكت قليلا ثم قال : «وأرجو أن يكون هذا آخر عهدك أيضا بما بقى عندك من ذلك ».

قال حمدان بعد سويعة سرح فيها فكره : «ليت شعرى ماذا يقول الناس عن راجية غدا وماذا أقول لهم ؟».

فقال عبدان متضاحكا : «ويحك ياحمدان أهون بهذه مشكلة . أما خاصة الخاصة من المؤمنين بالمذهب فلن يروا بأسا بحقيقة الأمر إذا علموها ، وأما من سواهم من سائر الناس فسيقال لهم إن الشيخ الأهوازى أراد أن يكرمك بالإصهار إليك فتزوج أختك ، فسيكون ذلك أقطع لألسنة الخصوم عن الخوض فى بيتك والتعريض بنزول الشيخ عندك ».

وقرع باب الحجرة عند ذاك فقام عبدان ففتحه ، فإذا شهر تبتسم وتقول : «أغلقتما الباب عليكما فليت شعرى ماذا كنتما تصنعان؟» فقال عبدان : «كنت حبست الأسد فى القفص الحديد حتى رقيته وروضته ، فبشرى راجية بألا خوف عليها الآن منه ولا هى تحزن ».

فاستضحكت قائلة : «تبا لك ياعبدان . مازدت على أن كففت أذاه عن راجية لتغريه بافتراسى ! ؟

فقال عبدان : «ويلى منـك ! وا الله لا أدرى أيكمـا الفريسـة وأيكمـا المفترس ؟ »

٩

جرت الحياة بعد ذلك فى دار حمدان هينة لينة على خير ما يرتضيه به مذهب العدل الشامل . ولما جـاءت راجيـة بمولـود ذكـر قـرت بـه عينـا وفرح أهل الدار جميعا بهذا المؤمن الصغير . وتشاوروا فى اختيار اسم لـه فأبت أمه إلا أن تدعوه ثمامـة . فلمـا راجعهـا حمـدان وعبـدان فـى ذلـك وقالا لها : إنه اسـم بغيـض إليهمـا . ، قـالت لهمـا : «ولكنـه حبيـب إلى قلبى». فكان لها ما أرادت . وكانت تقول إذا قيل لها فى ذلك : «قولوا فى ثمامة ماشئتم فلن أنسى أبدا أنه كان أول خطيب خطبنى مـن أهلـى ، وأول رجل سمعت من لسانه حلو الغزل ».

وكانت تلك أزمة من أعظم الأزمات النفسية التى امتحن بهـا حمـدان فى حياته الحافلة بالأحداث . وقد أجتازها بسلام كما أجتاز أخوات لها من قبل . فاعتدل طبعه وراق مزاجه وتبدل حاله من الكآبة إلى البهجة، ومن الزمانة إلى شيء من الطلاقة . وأشرق وجهه وتورد خـداه وتفيـض بالنشاط والقوة إهابه حتى كأنمـا رد إليـه شـطر مـن شـبابه . وكـان ممـا يضـاعف سـروره بهـذه الحـال الجديـدة شعوره بأنـه اليـوم أقـدر علـى الاضطلاع بأعباء الدعـوة وأقـوى علـى احتمـال تبعاتهـا ، وأمضـى فـى اقتحام أخطارها وتوسـيع أقطارهـا والاسـتعداد لمنازلـة خصومهـا وحمايـة أنصارها .

إنه لينظر إلى الأفق البعيد فيرى الصولة العباسية يحمل لواءها أسد بنى

العباس ومنصورهم الثانى أبو أحمد الموفق ؛ فيشفق على دعوته الوليدة أن يعصف بها ذلك الخطر العتيد . وإن الخطر ليقترب منه شيئا فشيئا كلما أديل للموقف من الزنج فأوقع بهم هزيمة منكرة أو قطع عليهم طريقا أو أباد لهم جيشا او اقتحم مدينة أو عصف بحصن لهم منيع . وما ذلك إلا لعلمه أن قوة صاحب الزنج هى السد الذى يحجب عين الموفق عن رؤية الخطر الذى ينبعث من هذه الدعوة الجديدة . أو هى الغمة الراهنة التى تشغل قلبه عن الاهتمام بغيرها. فإذا ما انهار هذا السد أو انقشعت هذه الغمة فسيفرغ للدعوة الجديدة ويجعل القضاء عليها همه . فويل لها يومئذ منه إن لم تكن قد شبت عن الطوق وبلغت من القوة والمنعة والشموخ بحيث تفوق قدرته وتعجز سطوته وتقصر عنها يده .

ولئن كان هذا الخطر الكبير بعيدا عنه فإن أمامه خطرا صغيرا حريا أن يكون بمثابة الطليعة لذاك الخطر الكبير ، فإن لم ينهض له الآن فيحسم أمره أوشك أن يمتد أثره ويطول امتحانه به حتى يدركه الخطر الأكبر، وهو على ماينبغى له من تمام الأهبة وكمال القوة

فهذا الهيصم كان قد جمع كبار الملاك فعقدوا مجلسا عنده قرروا فيه توحيد كلمتهم للقضاء على فتنة الفلاحين والأجراء ، فاتفقوا على أن من يطرد من العمل فى أرض أحدهم فلا حق لغيره من الملاك أن يستخدمه فى أرضه ، وعلى كل مالك أن يوظف على فلاحيه وأجرائه رجالا أشداء ليراقبوهم ويعاقبوا المقصرين منهم .

فكان هؤلاء يقولون لهم : «إن شيخكم اللعين قد هرب واختفى فارجعوا عن مذهبه خيرا لكم وتوبوا إلى الله من فتنته ». فمن الفلاحين من يظهر الطاعة من الخوف ، ومنهم من لايبالون بتهديدهم فيقولون لهم: «إنه سيرجع إلينا فينقذنا من هذا الظلم ». فكانوا يجلدون بالسياط

ويعاقبون بقطع أرزاقهم أو بالطرد من أعمالهم ، فإذا اشتد عليهم مايلقون من العذاب اتصلوا بحمدان وجأروا بالشكوى إليه ، فكان يقول لهم : «اصبروا قليلا حتى يتم تجهيز جيش الدعوة فيحميكم من أيدى الظلمة ».

وبلغ حمدان ذات يوم أن الهيصم قد أخذ يحاول أن يحمل الطائى والى الكوفة على تجهيز فرق من الجنود للقبض عليه وعلى ابن عمه ، وتشتيت شمل جماعته وأنصاره ، ومعاقبة كل من يثبت عليه أنه يدين بمذهبه أو يتشيع له ، فخشى حمدان أن يستجيب الوالى لإغراء الهيصم فيخيس بالعهد الذى قطعه له من قبل ، وإنه ليعلم أن الوالى كان قد أتى شيئا من هذا حين تغاضى للهيصم عما جاوز به حقه فى القبض على الشيخ الأهوازى بدون إذن السلطان ، فعزم أن يقابل الوالى ليعقد معه اتفاقا جديدا يحبط به محاولة الهيصم مهما كلفه ذلك من المال .

ولما قابله حمدان عاتبه على إغضائه عن الهيصم لما اقتحم رجاله الدار وقبضوا على الشيخ الأهوازى ، فاعتذر له الوالى بأنه كان يود أن يؤاخذ على ذلك التعدى لولا أنه خشى أن يثير ذلك لغطا حول الشيخ وجماعته فينبه السلطان إلى خطرهم ، فقد راعى بتغاضيه عن الهيصم مصلحة حمدان وجماعته لا مصلحة الهيصم . فماوسع حمدان إلا أن يقبل عذره على علاته .

ـ اطلب ماشئت ولكن أوف بعهدك .

ـ فإنى آخذ من كل واحد دخل مذهبك دينارا .

ـ ألا ترى أن هذا كثير؟ فإن منهم الفقير الذى لايملك شيئا والمسكين .

ــ إننى عرضة لأن يسعى بى إلى السلطان فأحبس وتصادر أملاكى.
ثم أخذا يتساومان فى القدر الذى سيأخذه الوالى حتى اتفقا على خمسين ألف دينار يجمعها له حمدان فى خلال شهرين . وبعد ذلك نصحه الوالى بأن يلزم الهدوء ويأمر جماعته بذلك لئلا يحرجوه هو وقال له : « قد وردتنى رسائل من دار الخلافة تستوضحنى جلية الخبر ، فأكتب لهم أن أمركم هين ولا يخشى منكم على الأمن والنظام فى البلاد ، وأنكم جماعة تدعو إلى التقوى والتزهد وكثرة الصلاة ولا تخرج على أولى الأمر . فيجوز ذلك عليهم ويرتضون الرد منى ، ولكنى أخشى إذا لم تلتزموا الحيطة والحذر وتعتدلوا فى حركتكم أن يثبتوا علّى تهمة السكوت عنكم فيعزلونى ويولوا مكانى من يقسو عليكم »... فوعده بذلك وانصرف .

وكانت ترد إلى عبدان رسائل من أبى هاشم بن صدقة ببغداد يرفع إليه فيها مايستطلعه من أخبار الخليفة والموفق وغيرهما من كبار الدولة . وقد أخبره أنه يعمل سرا لبث الدعوة فى العاصمة .. بيد أن نجاحه محدود لأن السمعة السيئة التى ألصقت بالكرمانى لما قام به أبو البقاء من تشويهها عند العامة تجعل قيامه بالحركة الواسعة صعبا مشكوك النجاح ، فليقصر هو جهده على استطلاع الأخبار والتجسس على الحركات التى يراد القيام بها لمحاربة الدعوة ليرفع ذلك إليه . ورأى حمدان اشتداد الضغط على أتباعه الفلاحين فى البطائح خاصة ـــ وكان فيها جمهرة أتباعه ومعظم أراضيها فى ملك الهيصم ــ حتى خشى أن يفلت زمامهم من يديه إذا بقى يوصيهم بالصبر ولم يعمل شيئا لإنصافهم ، وكان مما زاد حالهم سوءا أن سادتهم بزعامة الهيصم قد بدأوا يستجلبون الأكرة والفلاحين من نواحى واسط وبغداد ومن الناجين بأنفسهم من فتنة الزنج

بالبصرة ، فيستعملونهم فى أراضيهم بأجور طيبة للنكاية بأتباع المذهب القرمطى ولإغرائهم بالرجوع عنه ، فأيقن حمدان أن قد آن أوان العمل .

ولكن عبدان أشار عليه بأن يرحل قبل ذلك ناحية البصرة فيتصل بصاحب الزنج ويدعوه إلى الدخول فى مذهب الإمام ، فإن أجابه إلى ذلك أعانه على حرب السلطان فكان فى اجتماعهما قوة لهما .

وكان الموفق إذ ذاك قد طرد الزنج من الأهواز ، فلم يبق لصاحب الزنج إلا مدينته «المختارة » قد امتنع بجنوده ورجاله فيها . فظن عبدان وحمدان أن ذلك أحرى أن يدفعه لقبول محالفة غيره إن وجد فى ذلك نجدة له ومخرجا من الحصار الذى ضرب عليه .

١٠

واستطاع حمدان بعد اثنى عشر يوما قضاها فى طريقه صوب البصرة أن يتسلل ليلا إلى حدود «المختارة » بعد ماغافل جنود السلطان الذين أقاموا مخافر حولها ليمنعوا الدخول إليها والخروج منها. فلما أصبح الصباح استؤذن له على صاحب الزنج بكتاب ذكر له فيه أنه هو الذى أهدى إليه أخت ابن الحطيم، فجاء الإذن بالمقابلة فى أصيل ذلك اليوم.

وهال حمدان ما رأى من ضخامة أسوار المدينة وتعددها ، ومارکب عليها من المجانيق والعرادات والقسى الناوكية ، ومن مناعة حصونها والخنادق المحيطة بها ، وهم يقودونه من معبر إلى معبر ، ومن سور إلى سور ، ومن حصن إلى حصن ، فى دروب ملتوية صاعدة أو نازلة حتى انتهوا به إلى قلعة منيعة تجرى القنوات من حواليها ، لايدرى حمدان كيف أمكنهم بثقها هناك .

فتسلمه حرس القلعة وقاده إلى مجلس الطاغية ، فإذا هو مضاء بالشموع ، وقد فرشت أرضه بالبسط الفاخرة . ولم يكن حمدان قد رأى

صاحب الزنج من قبل ، فنظر إلى صدر المكان فإذا هو برجل طوال شديد السمرة قليل شعر اللحية أشمطها ، براق العينين ما ينفك يديرهما في حركة سريعة كأنهما كرتان من الزئبق ؛ فلما سلم عليه حمدان رد عليه بصوت خافض . ثم أمره بالجلوس وقال له : « هل جئت ياهذا لتسترد هديتك ؟ إنها قد صارت رفاتا ».

فاشمأز حمدان من أسلوبه في الحديث ، ولكنه كتم اشمئزازه وقال : « أو قد توفيت ياسيدى؟ ».

ـ من زمن بعيد .... ما عاشت معنا غير عام واحد ... هلا جئتنا بواحدة أخرى ؟

ـ إنى جئتك فى أمر أهم من هذا كله .

ـ فما هو ؟

ـ إن شئت أمرت من عندك فتركونا وحدنا . فنظر إليه الخارج العلوى تصويبا وتصعيدا ، ثم أشار لمن عنده فتركوا المجلس.

ـ ماعندك أيها العيار الكوفى ؟

ـ لست اليوم عيارا .

ـ فما أنت ؟

ـ إنى على مذهب ورأى ، ومعى مائة ألف ضارب بسيفه ، فإن شئت اتفقنا على المذهب فملت بمن معى إليك .

ـ إن دخلتم فى مذهبى قبلتكم .

ـ بل نحن ندعوك للدخول فى مذهب الإمام.

ـ لايوجد إمام غيرى .

ـ إنما الإمام الحق محمد بن إسماعيل .

- ذلك إمام القداحيين يدعون باسمه لأنفسهم ، ولاوجود له بينهم . أفتدعوني ويلك إلى مذهب ذلك اليهودى الدجال من بنى الشلعلع عبد الله بن ميمون القداح ؟

- إني لا أدعوك إلى مذهب أحد ، وإنما أدعوك إلى المذهب الحق ، مذهب العدل الشامل بين الناس .

- هذا ويلك مذهبى . أما علمت أننى حاربت الظلم ونشرت العدل؟

- إنك ماعدوت أن جمعت المظلومين من العبيد والرعاع فملكتهم رقاب الأحرار ، يغتصبون أملاكهم ، ويستحيون نساءهم ويسومونهم سوء العذاب .

فاستشاط الطاغية غضبا وقال له : «ثكلتك أمك -! أتسبنى أمامى وتطعن فى مذهبى ؟ وا لله لآمرن عدد أتباعك من أتباعى ، فليقطعنك بسيوفهم مائة ألف فلذة ! »

فأدرك حمدان أن لن ينجو من يده إلا بحسن الحيلة ولطف المخرج فقال له : « ما كنت أحسب أن زعيما فى مثل قدرك وسلطانك ، يغضب من رجل مثلى سعى إليك من وجه بعيد يعرض عليك النصرة ليظاهرك على عدوك وعدوه . وقد أحب أن يريك ماعنده حتى يجعلك على بصيرة من أمره . وا لله لوشئت أن أخدعك عن حقيقتى لفعلت ولنلت إذن رضاءك عنى ، ولكن يمنعنى من ذلك حرصى على ألا يدال منك لعدوك ، فإنه عدوى وعدو الحق والعدل ».

فتطلق وجه الطاغية قليلا وقال : «إنما استوجبت غضبى لشتمك إياى ».

فقال حمدان : «لوأردت شتيمتك لأعلنتها فى الناس وأنا بنجوة منك لا تطولنى يدك . أما أن أخلو بك لأشتمك حيث تكفى إشارة منك لقتلى وتقطيعى مائة ألف فلذة ، فهذا مالا يفعله أقل الناس عقلا».

ــ فعلام إذن عولت ؟

ــ إن شئت بقى كل منا على مذهبه وتحالفنا على عدونا الواحد .

فأطرق الطاغية قليلا وطفق ينكت بأصبعه على البساط ، ثم رفع رأسه وقال : « لو جئت قبل اليوم لكان عرضك أنفع وأجدى . أما الآن وقد حوصرنا فى هذه المدينة فليس فى وسعنا أن ننجدك بشىء ».

ــ لكن فى وسعنا ذاك .

ــ كيف ؟

ــ نشغل عدونا عنك ونقطع سبيله إليك .

ــ فماذا تطلبون منا أجرا على ذلك ؟

ــ لانطلب شيئا إلا أن تدع لنا الكوفة وأعمالها وكورها نقيم فيها مذهبنا ، ولك ماسوى ذلك .

ــ إنك وا لله لذو رأى . وهذا عدل منك ، وقد قبلت شرطك «ومد إلى حمدان يده فصافحه فقال حمدان :

«إنى لأرجو أن ينصرنا ا لله على عدونا ».

وتحرك الطاغية للقيام وهو يقول : «إنى قائم الساعة لصلاة العشاء ، فإن شئت أقمت أياما فى ضيافتنا قبل أن تعود إلى بلدك ».

فشكره حمدان وقال له : «بل تأذن لىفأسرى الليلة لأبشر جماعتى بما اتفقنا عليه ، فسيكون ذلك عيدا لهم »

ولم يصدق حمدان أنه ناج من قبضة الطاغية العلوى إلا بعد ماودع الحرس الذين أمروا بمرافقته حتى يوصلوه إلى مأمنه ! فتنفس الصعداء عند ذاك وانبرى بجواده ينهب الأرض نهبا .

وقص على عبدان ماشاهده، فأدركا ألا أمل فى انضمام صاحب الزنج إلى دعوة الإمام ، وألا فائدة ترجى من ورائه ، وأن الموفق قاض عليه لا محالة طال الزمن أو قصر .. فقد جمع من الذخائر والمؤن مايفوق الوصف ، ودعا ابنه وصفوة قواده ليرابطوا على مداخل المدينة بخمسين ألفا من الجنود مجهزين أحسن تجهيز ، وشرع يبنى مدينة بإزاء المختارة سماها (الموفقية) ليجعلها قاعدة لمحاصرة صاحب الزنج ومطاولته حتى تنفد ذخائره . وقد استكثر من القوارب والشذا ورتبها فى مواضعها من الأنهار والقنوات ليقطع عن الزنج الميرة التى تأتيهم منها.

على أن حمدان قدر مما رأى من مناعة المختارة وأمتلائها بالمؤن والذخائر واشتمالها على زهاء ثلثمائة ألف من الرجال المقاتلين ، أن الموفق لن يقهرها قبل انصرام ثلاثة أعوام أو عامين.

قال عبدان : «لقد أفدنا كثيرا من رحلتك هذه يا حمدان ، إذ وقفتنا على بعض الهنات التى ارتكبها صاحب الزنج فأدت إلى ضعف أمره وذهاب ريحه ، وعلى الأساليب والتدبيرات التى يقوم بها خصمه للقضاء عليه شيئا فشيئا ، فعلينا أن نعى هذا كله ونعتبره ، فسنحتاج إلى الاستبصار به فى المستقبل ».

واعتكف حمدان ثلاثة أيام فى داره يستجم بها من السفر ويستمتع بما يبيحه المذهب له من لذات الحياة ومباهجها .. وإنها لطوع يديه مابقيت شهر راضية عليه . حتى إذا بلغ من ذلك ما أراد عقد مئزره وشمر عن ساعده ومضى منصلتا إلى القاسميات من أرض البطائح لينجز العمل الكبير الذى ينتظره هناك .

وماهى إلا أيام قلائل حتى انتشر فى الكوفة وما حولها نبأ عظيم وجم له قوم وفرح آخرون ، ودهشوا جميعا لوقوعه على ذلك النحو الغريب من السرعة والمباغتة .

فقد بلغهم أن جهة البطائح قد وثب عليها حمدان قرمط فاحتلها بجيش عظيم لا يدرى أحد من أين جاء به . وقد قام فلاحوها وأجراؤها بمناصرته إذ كانوا على مذهبه فثاروا على من يليهم من وكلاء الهيصم وغيره من ملاك الأرض التى يعملون فيها فبطشوا بهم وشردوا بهم من خلفهم من الأعوان والاتباع ، واحتلوا الديار والجواسق جميعا واقتسموا بينهم الأرض . وكانت دعواهم التى يهتفون بها بصوت واحد ساعة الثورة :

الأرض لنا لا للظلمة ! والويل لهم فى الملتحمة

وظل الناس أياما يتحدثون عن فتنة القرامطة — فقد أطلقوا هذا اللقب على أتباع حمدان قرمط — ويهرعون إلى من نجا بنفسه من مذبحة البطائح يستروونه ما شهد من حوادثها وما سمع ، ويستزيدونه بها علما.

وإنهم لكذلك إذ راعهم نبأ جديد أن العباس بن الموفق قد وصل إلى الكوفة سرا ، ثم سرى منها ليلا ومعه عدد كبير من الجيش فأوقع بالقرامطة فى البطائح وقتل مئات من رجالهم ، وأنه طلب حمدان وأهله ، وأنه أمر بجمع الفلاحين واستتابتهم ، فمن تاب تركوه ، ومن أبى قتلوه.

فما درى الناس أيهما أعجب : أخروج حمدان على السلطان ووثوبه على البطائح ، أم يقظة الموفق وسرعته فى القضاء على هذه الثورة ، وهو مشغول بمحاربة صاحب الزنج .

أما حمدان وأهله فقد تركوا البطائح ليلة الحادث ، لما أيقنوا بالهزيمة وخافوا أن يقعوا في يد المعتضد ، فصاروا ينتقلون من قرية إلى قرية ينزلون على خواص أتباع المذهب ويستترون عندهم حتى استقروا في (كلواذا) على مقربة من بغداد ، حيث نزلوا على بعض المخلصين من أشياع المذهب ممن كانوا يشايعون الكرماني ويؤيدون حركته في بغداد من قبل ، فاستتروا عندهم واختلطوا بهم .

وقد أدرك حمدان وعبدان أنهما تعجلا بالثورة قبل حينها ، وكان عليهما أن ينتظرا بضع سنوات أخر حتى يتضاعف أشياع المذهب في كل ناحية من نواحي الدولة ، ويكثر السلاح في أيديهم ويصيروا جميعا سواء في الشعور بشدة الضغط ووطأة الظلم ، فيقوموا قومة رجل واحد . كما أدركا أنهما كانا مخطئين إذ حسبا أن إنهاك الموفق بمنازلة صاحب الزنج سيشغله عن الأهتمام بحركة خطيرة كهذه الحركة .

على أن هذا الإخفاق الأول لم يفل من عزمهما ، ولم ينل من أملهما في النجاح شيئا ، فقد بصرهما بأن التريث حتى تتم الأهبة وتكمل العدة هو السبيل المضمون للنجاح . وعللا أنفسهما بأن ضربة الموفق هذه حرية أن تجعله يطمئن من قبل هذه الحركة ، ويظن أن خطرها قد زال فلا يأبه لأمرها كثيرا في المستقبل . فعليهما وعلى دعاتهما أن يواصلوا للدعوة سرا ويلزموا التقية كدأبهم من قبل .

وإنما اختار عبدان (كلواذا) القريبة من بغداد مركزا لقيادته لزعمه أنها لقربها من العاصمة ستكون أبعد عن أن تلحظها العيون أو تحوم حولها الظنون . كما أن ذلك سيتيح لهما مراقبة مايجرى في العاصمة من الأحداث وما يتردد فيها من الأنباء على كثب . وربما أمكنهما أن يساعدا أبا هاشم بن صدقة فيما يقوم به من بث الدعوة في العاصمة

ذاتها وفيما حولها من القرى ، فلاغنى للدعوة عن أن تغزو تلك الناحية الهامة ، حيث يوجد عشرات الألوف من الصناع والعمال والفعلة الذين يعملون فى العاصمة ، فلاريب أن البذرة ستجد بين هؤلاء أرضا خصبة لما يعانونه من شظف العيش ومرارة الظلم وقسوة العمل وقلة الأجور مع غلاء أسباب المعيشة . وهذا الصنف لا يتوافر فى مكان آخر كما يتوافر فى العاصمة ، وسيكون عونا كبيرا للحركة إذا جد الجد وحانت ساعة الثورة العامة .

وبلغ حمدان أن أشياعه الذين تركهم فى ناحية الكوفة قد قلقوا على مصير الدعوة ، بعد أن قضى السلطان على دار هجرتهم التى كانوا يؤملون أن تكون ملاذا يتفيئون به ظل الأمان ، ويتخلصون به مما يذيقهم سلطان المال من عذاب الذل والظلم والحرمان . فطفق بعضهم يشك فى صدق ما وعدوا به على لسان صاحب الزمان من الغنى بعد الفاقة ، والعز بعد الذل ، والعدل بعد الظلم ، والسعادة بعد الشقاء . فأشار على عبدان أن يلتمس من صاحب الزمان بشارة جديدة تنشر السكينة فى قلوب الأتباع . فورد الجواب من سلمية بأن صاحب الزمان يبشر أولياءه بأن الله سيورثهم الأرض فى بضع سنين لا ينازعهم فيها منازع ، وسيعيد إليهم دار هجرتهم فيبنونها مدينة عظيمة يسود فيها العَدل والرخاء وينتفى منها الظلم ، وتلوذ بها مئات من المدن وألوف من القرى والدساكر تدين كلها بمذهب العدل الشامل ، وتخفق عليها راية الإمام المعصوم .

فطفق الدعاة يحملون هذه البشارة إلى كل ناحية ويبلغونها إلى أتباعهم، فكان لها أثر كبير فى تطمين قلوبهم وتسكين نفوسهم وتثبيت ما تزعزع من إيمانهم بالنصر القريب والنجاح المأمول .

ولم ينس حمدان وهو فى (كلواذا) أن مسقط رأسه بناحية الكوفة هو المهد الأول للحركة ، والبقعة الأصلح لتكون قاعدتها ومركز

قيادتها ، فرأى أن ينيب عنه فيها من يثق بهمته ونشاطه ومقدرته ، فلم يجد أصلح لذلك من ذكرويه الشاب المتوقد الذكاء الذى لزم عبدان مدة وتتلمذ عليه .

وسرعان ما أبدى هذا الشاب مهارة فى إدارة شئون الدعوة بتلك الجهة مع احتراس عجيب من انتباه السلطان إلى حركاته . وكان لعبدان تلميذ آخر يدعى أبا سعيد الجنابى ، لايقل عن ذكرويه ذكاء وهمة ، ويفضله درا ية بالمذهب وفقها له . وقد كان يطمع أن يكون له هذا المنصب إلا أن حمدان آثر ذكرويه لأنه من أهل السواد ، من قرية قريبة من حمدان يقال لها المنسانية على فرع من فروع الفرات يدعى نهر هد . أما أبو سعيد الجنابى فمن أهل إيران ، وفيه جرأة لايأمن حمدان أن تدفعه إلى عمل قد يوقظ عين السلطان إليه فيحمله على التصدى للحركة والنهوض لاستئصالها فى موئلها الأكبر قبل انقضاء فترة التقية التى خصصها للتأهب والاستعداد، بيد أنه لم يشأ أن يعطل مواهب أبى سعيد دون الإفادة منها للحركة ، فوجهه داعيا بجنوبى إيران . وقد صدقت فراسة حمدان فيه إذ لم يلبث أبو سعيد أن نبه أعوان السلطان إلى خطره بما قام به هناك من الحركات الجريئة . فطلبوه فهرب منهم وعاد سرا إلى (كلواذا) حيث استقر برهة فى كنف القيادة العامة . وقد لامه حمدان على تهوره ، وعزم أن يستبقيه عنده لئلا يعود إلى مثل حركته تلك ، إلا أنه ما لبث أن أدرك أن تلك الضجة التى أثارها أبو سعيد بجنوبى إيران قد عادت بالنفع على الحركة، إذ صرفت عيون السلطان عن مركزها وأوهمته أنه أمام حركات شتى تظهر هنا وهناك ولا يجمع بينها إلا ضعف الدولة واختلال نظامها العام . ولذلك ارتأى حمدان أن يرسل أبا

سعيد الجنابى إلى ناحية أخرى مـن النواحـى القصيـة ، فوجهـه إلى ناحيـة الأحساء والبحرين .

وشعر حمدان بحاجة الدعوة إلى رصيد كبير لينفق منه علـى نشـرها ، وعلى شراء الأسلحة والاستكثار منها ، وعلـى المحتـاجين إلى المعونـة مـن أنصارها المخلصين ولا سيما أولئك الذين مسهم الضر والاضطهـاد مـن جرائها . ورأى أن الدينار الذى كان قد فرضه على الأتباع باسم الفطرة لا يكفى لسد هذه الحاجات ، فلما شاورعبدان فى ذلـك أخبره عبـدان بأن للإمام ضريبـة اختياريـة يقـال لها : البلغـة ، ومقدارهـا سبعة دنانير يدفعها من شاء أن يذوق طعام أهل الجنة .

ـ وما طعام أهل الجنة هذا ؟

ـ حلواء لذيذة يصنعها الإمام لهم على قدر البنـادق ، تعطـى واحـدة منها لكل من أدى إليه البلغة .

ـ هل تعرف يا عبدان كيف تصنع هذه الحلوى ؟

ـ سنكل هذا الأمر إلى شهر فهى تجيد صنعها .

فتضاحك حمدان وقال آخـر « وا لله لئـن كـانت يـد شـهر هـى التى تصنعها لتعدلن الواحدة منها سبعين ديناراً . »

ـ ويحك ياحمدان سنقول لهم إنها من صنع يد الإمام ، ولكن لا بـأس أن تقدمها شهر لمن شاء منهم ذلـك ترغيبـا لهـم فـى تأديـة البلغـة . وإنـه لجدير بطعام الجنة أن تقدمه هذه الحورية العيناء !

وأخذت الأموال تتدفق فـى خزينـة الدعـوة ، وطفـق حمـدان ودعاتـه يبتاعون الأسلحة فى كل مكان ويحفظونها فى مخابئهـا المتفرقـة فـى شـتى النواحى . وقد ندبوا جماعة من القواد ليدربوا الرجال سرا على استعمال آلات القتال ، ويعلموهم فنون الحرب وأساليب الدفاع والهجوم

كانت هذه التدبيرات السريه تجرى فى طول البلاد وعرضها ، دون أن يعلم بمقر حمدان فى كلواذا إلا نفر قليل من خواص أصحابه وصفوة دعاته من طبقة ذكرويه وأبى سعيد الجنابى وجلندى الرازى وعكرمة البابلى وإسحق السوزانى وعطيف النيلى . أما عامة القرامطة فمبلغ علمهم به أنه حى يرزق وأنه سيظهر وشيكا بإذن الإمام ، فيبنى لهم دار الهجرة من جديد .

وكان حمدان يقيم مع أهله فى سرداب كبير تحت الأرض فى دار بهرام بن الحسن ، أحد وجوه كلواذا وأعيانها الذى كان من خواص أصحاب الكرمانى حين كان الكرمانى فى بغداد . وقد كان عبدان يراسله من سلميه ثم بعدها من قرية الدور حين اشترك مع حمدان فى الحركة ، فكان يتلقى منه رسائل التأييد والتشجيع . فلما اضطر هو وحمدان إلى ملجأ أمين يحتميان به من مطاردة السلطان بحيث يتمكنان مع ذلك من مواصلة الحركة سرا ، ما وجدا أوفق من دار هذا الكلواذى الأمين .

ولم يشأ حمدان حتى بعد أن شعر بقوته وقوة أتباعه أن يعجل بالخروج على السلطان لئلا يمنى بمثل إخفاقه الأول ، ولا سيما بعد أن أنزل الموفق ضربته القاضية على صاحب الزنج وقطع دابره فانتعش سلطان الخلافة وتوطدت أركانها واستردت كثيرا من هيبتها ، فما وسع حمدان إلا أن يوطن نفسه على الصبر الطويل حتى تتغير الأحوال وتواتيه أوقات يراها أصلح للقيام بثورته وأكفل لها بالنجاح .

فأقام السنين فى مخبئه الأمين يدير شئون دعوته سرا فى أناة وتبصر ، وهو يراقب الأحداث فى أقاصى الدولة وأدانيها .

ويرصد حركات الموفق فيراه يسعى للقضاء على خصمه العنيد أحمد ابن طولون بمصر دون أن ينال منه شيئا ، ويرى خصوماته التى لا تنقطع مع أخيه الخليفة المقهور الذى لا يقدر على شىء إلا بإذنه ، والمحاولات التى يقوم بها الخليفة للفرار إلى آل طولون بمصر فيحبطها الموفق بيقظته ويقظة رجاله . ويرى أبا البقاء البغدادى وقد انضوى تحت لواء حركته الإصلاحية جماهير المظلومين من الفقراء والعمال والفعلة والصناع وأرباب الحرف ، وأسس لهؤلاء الأصناف نقابات تجمع شتاتهم وتوحد كلمتهم فصارت له بهم قوة عظيمة لا يستهان بها فى العاصمة . وهو لا يفتأ يطالب السلطان بإنصافهم من ظالميهم من الأغنياء الذين منعوا زكاة أموالهم ، وملاك الأرض الذين يهضمون حقوق فلاحيهم ، وأرباب الأعمال والمصانع الذين يستخدمون الأجراء من العمال والصناع بأجور لا تقيم أودهم ، ولا تسد حاجة عيالهم، مع إرهاقهم بما فوق طاقتهم من الجهد .

ويرى الموفق وقد بعل بأمر أبى البقاء لا يدرى ماذا يفعل به ، فتارة يعتقله ويشتت شمل جماعته إرضاء لذوى النفوذ من الأغنياء وملاك الأرض وأرباب المصانع ، وتارة يطلقه إذا احتاج إلى الاستعانة به فى خطب من الخطوب أو خشى غضب العامة وشغبهم فى البلاد . وكان حمدان شديد الإعجاب بهذا الفقيه النادر المثال الذى امتاز على أنداده من العلماء والفقهاء بشجاعته وغيرته على الحق ، وانتصاره للمظلومين ، ووقوفه وحده منددا بطغيان المال ، وجور السلطان ، لا يصرفه عن ذلك وعيد ولا تهديد . فكان كثيرا ما يسائل نفسه إذا كان فى الدين الواضح المعالم هذه القوة الصالحة المصلحة ، وفى علمائه مثل

أبى البقاء ، فعلام يعدل عنه إلى ذلك المذهب الشاذ الذى طرأ عليهم من الأهواز باسم إمام لا يعرف حقيقته أحد من أتباعه ؟

فإذا كاشف عبدان بما يجول فى خاطره من ذلك أنكره عليه ولامه على تشككه في العقيدة ، وطفق يطعن فى حق أبى البقاء ويهون من شأنه ويرميه بالغفلة ، إذ يحاول أمراً لا سبيل إلى تحقيقه من طريق هذا الدين ، لأن هذا الدين فى زعمه هو الذى مكن سلطان الظلم من رقاب الناس ، إذ فرض عليهم الخضوع له وعدم الخروج عليه ، وقرر أن الله فضل الناس بعضهم على بعض فى الرزق ، ففسح للأغنياء بذلك مجالا هضم حقوق الفقراء . وما الزكاة والصدقات والآيات التى تأمر بالعدل والإحسان وأمثالها إلا تعلات وأمانى لتسكين النفوس الثائرة ، وتأليف الخواطر النافرة حتى تخضع وتستكين .

فيقول له حمدان عند ذلك : «حسبك ياعبدان ، إن هى إلا خطرة عابرة تلم ببالى ثم تزول ، فلا يروعنك ماترى من ذلك منى ، فإنى لثابت على العقيدة كما تحب ».

١٢

مرت السنون سراعا وتوالت الأحداث ، وكان أهمها وفاة الموفق أسد بنى العباس المنصور . ثم وفاة أخيه الخليفة بعده بعام ، وجلوس شبله القوى الصوال أبى العباس المعتضد على كرسى الخلافة . وقد تنفس حمدان الصعداء لما مات الموفق ، ورأى أنه قد آن له أن يخرج من سردابه بكلواذا ، ويعود إلى سواد الكوفة ليعلن من هناك الثورة العامة . ولكنه آثر أن ينتظر عاما آخر يطوف فى خلاله على دعاه ونقبائه ليؤذنهم بقرب اليوم الموعود ، ويشرف على أعمالهم ويتفق معهم على الخطط والتدبيرات ، على أن يترك عبدان يقوم فى أثناء ذلك بحركة فى

العاصمة، ليكثر فيها عدد أنصار المذهب فيكونوا ردءاً له يوم يعلن الثورة فى السواد .

انطلق حمدان إلى السواد ، وانتقل عبدان بأهله إلى بغداد فنزل بهم عند صديقه القديم أبى هاشم ابن صدقة الكاتب . وكان له من سابق خبرته بالعاصمة ، ومعرفته لطبقات أهلها وطبائعهم ؛ ومن اضطراب حبل الأمور فيها منذ خلا مكان الموفق ، مايسر له المضى فى بث دعوته بخطى واسعة . فلم يكد ينصرم العام حتى صار للمذهب القرمطى فى عاصمة الخلافة آلاف من الأنصار .

وكان من طوالع السعد لعبدان أن كان أبو البقاء البغدادى مقصى عن العاصمة إذ ذاك ، فقد نفاه الخليفة المعتمد بمشورة من بطانته الذين أوغروا صدره عليه لميله إلى المعتضد ولى عهد المسلمين حينذاك . وكان المعتمد يحقد على المعتضد لأنه نحى ابنه عن ولاية العهد وجعلها لنفسه .

وكان المعتضد قد شغلته دسائس بطانة عمه المعتمد عن الالتفات لغيرها ، فكان الجو مواتيا لعبدان كل المواتاة ،

كما كان مواتيا لحمدان أيضا فيما يقوم به من النشاط الهائل بالسواد . ولم تتغير الحال عليهما إلا حينما توفى المعتمد وبويع بالخلافة للمعتضد .

ذلك أنه ماكاد المعتضد يتربع على كرسى بنى العباس حتى انتعشت الخلافة ودبت فى أوصالها روح جديدة ، شعر بها أولياؤها وخصومها على السواء . فما نسى الناس أنه ذلك البطل المغوار الذى خاض ميادين القتال منذ طر شاربه ، واشترك مع ابيه الموفق العظيم فى صراع ذلك الطاغية الخطير .. طاغية الزنج ، حتى قضيا على فتنته العظمى فأنقذا الخلافة من خطر ماحق .

وإنهم ليروون عن شجاعته وبطولته مايشبه الأساطير . ومن أشيعها وأسيرها على الألسنة أنه كان فى بعض جولاته يوما فتوسط الصحراء ولم يكن معه إلا غلامه ابن حمدون ، إذ خرج عليهما أسد فقال لغلامه : « إما أن تكفينى أمره أو تلزم لى فرسى » . فآثر الغلام الثانية ، فنزل هو عن فرسه وسلم لجامها للغلام ، ثم اخترط سيفه وتقدم إلى الأسد فوثب الأسد عليه ليلطمه ، فتلقاه بضربة وقعت فى جبهته فقسمها نصفين . ثم وثب الأسد ثانية وثبة ضعيفة فتلقاها بضربة أخرى أبان بها يده . ثم وثب المعتضد على الأسد ، ورمى السيف من يده وأخرج سكينا كانت فى وسطه فذبحه من قفاه ، ثم قال وهو يمسح السكين والسيف بشعر الأسد ، وعاد إلى فرسه فركبها »

وكان أبو العباس سريع النهضة عند الحادثة ، معنيا بضبط الأمور صغيرها وكبيرها ، صبورا على النهوض بأعباء الدولة والاستقلال بتبعاتها لا يعتريه فى ذلك ملل ولا كلل .

لا غرو فى ذلك فقد كان شبيه أبيه فى هذه الخلال، ولكنه كان يمتاز عليه بميل شديد إلى إنصاف المظلومين من رعيته ، ورغبة صادقة فى توفير أسباب الرخاء والطمأنينة لهم جميعا . وهذا ما جعله يعطف على أبى البقاء البغدادى ويجل قدره ويشجع حركته سرا فى عهد أبيه ، وطالما شفع له عنده فحماه من بطشه كلما ضاق الموفق ذرعا بحركته وحركة جماعته .

وكان أبو البقاء يحبه ويتمنى على الله أن يجلسه على كرسى الخلافة يوما ما ، ليحقق فى عهده كل مارسمه من مناهج العدل وطرائق الإصلاح . ولم يذكر أبو البقاء أنه فرح قط مافرح يوم أعيد من منفاه بدير العاقول ، فهرع إلى مجلس المعتضد ليقول له : السلام عليك يا أمير

المؤمنين ! فتلقاه المعتضد بمزيد الحفاوة والتكريم ، وأقبل عليه وأدنى مجلسه وأخلى له وجهه ، ومن دونه الوزراء والكبراء وأصحاب الرياسات ينظرون يتعجبون .

قال لأبى البقاء فيما قاله : «إن بابى لا يغلق دونك بليل أو نهار ، وإنى أعاهد الله ربى لا تدعونى إلى خطة فيها رضى الله ورسوله وخير الناس إلا نفذتها لك ما استطعت ».

فشكره أبو البقاء وقال له : «حسبى وحسب الناس منك هذا وإنى لأرجو الله أن تكون من السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله يوم القيامة » ثم روى الحديث بتمامه عن النبى صلى الله عليه وسلم بسنده.

ولم يلبث أن تسامع أهل العاصمة بما دار فى مجلس أمير المؤمنين بينه وبين أبى البقاء ، فاستبشر عامة الناس من الفقراء والمساكين خيرا ، وقوى رجاء المظلومين من الأجراء والفعلة والصناع والأكرة أن يرفع عنهم الجور الواقع بهم وبذراريهم ، وتوجس الأغنياء وأرباب الضياع الواسعة وكبار التجار شرا فأمسوا خائفين يترقبون.

ولم يكد أبو البقاء يخرج إلى أتباعه المستضعفين من مختلف الأصناف ليزورهم ويتفقد نقاباتهم ، ويعظهم ويوصيهم بالتقوى والصلاح ، ويرشد ضالهم ، ويعلم جاهلهم ، ويصلح ذات بينهم كعادته فيما مضى، وليبشرهم بالعهد الجديد الذى يوشك أن يرفع عنهم الحيف، ويبسط لهم الرخاء والعدل ، حتى هاله ما رأى وسمع من آثار انبعاث فتنة الكرمانى من جديد ، وتدسسها إلى عقول بعض العامة . فأخذ يحذر جماعته من الافتتان بها والانخداع بأضاليلها وبين لهم أن الكرمانى وصاحب الزنج وقرمطا وبابكا الخرمى من قبلهم ليسوا إلا أمة واحدة من الملاحدة الخارجين على الملة ، المنكرين للأنبياء والشرائع ، يكفرون بالله واليوم

الآخر ، ويحلون لأنفسهم ماحرم ا لله من الفواحش ، ويزعمون لأتباعهم أنهم يدينون بدين العقل وأن النساء كالأموال مشاعة بين الناس . شأنهم فى ذلك كشأن إناث البهائم وذكورها .

وأنهم جاءوا لينشروا الرخاء والعدل الشامل فى الأرض ، وليسووا بين الناس فى الرزق ، فلا غنى ولا فقير ، يلبسون بذلك باطلهم ثوب الحق ، فيخدعون الجهال ويستميلون المستضعفين ومهضومى الحقوق إلى مذهبهم ، كما يخدعونهم بما يبدونه فى بادئ الأمر من التقوى والصلاح، والعبادة والزهد ، حتى إذا تمكنوا منهم ، وتسلطوا على عقولهم ، ألقوا بهم إلى مهاوى الضلالة والكفر ، وأغروهم باستحلال المنكرات . فإذا وثقوا بكتمانهم للسر ، أفضوا إليهم بما عقدوا العزم عليه من هدم الملة ، وإحياء مامات من مذهب مزدك . وإن من نفاقهم وريائهم أنهم يظهرون التشيع لأهل البيت ، وا لله يعلم إنهم لأشد الناس بغضا لأهل بيت النبى صلى ا لله عليه وسلم وإنما يتخذونه ستارا يخفون من ورائه مآربهم الخبيثة ، وعقائدهم المهلكة . فيزعمون أنهم يدعون لإمام من أهل البيت معصوم ، وأنه المهدى والحجة وصاحب الزمان ، وأنه ينسخ ويثبت مايشاء من الشرائع والأحكام ، وتلك أسماء سموها ، وصفات نحلوها له ، ما أنزل ا لله بها من سلطان . ولم يردنا عن النبى صلى ا لله عليه وسلم فيها حجة ولا برهان .

وإن أبا البقاء لجالس يوما بين أصحابه فى حى من الأحياء الفقيرة فى بغداد وهو يعظهم فى هذه الفتنة ، إذ طرأ عليهم نفر فاستأذنوه فى الحديث فأذن لهم ، فقال أحدهم : « ياأبا البقاء، إنا قوم لا نعدل بدين ا لله دينا ، ولكننا نخشى على أ نفسنا فتنة هؤلاء ، فقد وعدونا بأننا سيرفع عنا مانحن فيه من البؤس والفاقة إذا اتبعنا مذهبهم ، ونصرنا دين

إمامهم . وأيدوا لنا بالحجج والبراهين أن ذلك أصل دعوتهم وأساس ملهبهم ، وقد عرفناك هاديا ومصلحا تدعو إلى الخير والإنصاف ، وعلمنا أن أمير المؤمنين سينفذ لك مادعوت إليه من الإصلاح ».

فقال أبو البقاء : «إنى لأرجو ا لله أن يوفق أمير المؤمنين إلى ذلك»

ــ فإنا سائلوك عن أشياء فهل لك أن تفتينا لنرى ماعندك من حكم ا لله فى ذلك ؟

ــ حبا وكرامة .

واعتدل أبو البقاء فى مجلسه وأصغى إليهم بسمعه .

فنظر بعضهم إلى بعض ثم تقدم واحد منهم فقال : «إنى فقير لا أملك من الدنيا شيئا ، ولى عيال يتضورون جوعا وعليهم أخلاق لا تكاد تسترهم ، ونأوى خربة تبول فيها الكلاب ، وتدب فيها الهوام والحشرات ، فماذا فى وسعك أن تصنع لى إذا نفذ الخليفة منهاجك »؟ فظهر على وجه أبى البقاء شيء من الغضب ، ولكنه مالبث أن تطلق وجهه ، وقال : « ويلك ليس ذلك منهاجى وإنما هو منهاج دين ا لله ، وقد فرض لمثلك حق الفقير .

ــ وماحق الفقير ؟

ــ أن يكون له ولمن يعولهم بيت صالح يأوون إليه بمتاعه وماعونه، طعام طيب يأكلونه من أوسط ما يطعم الناس فى غير أشر ولا بطر ، وكسوة للصيف وأخرى للشتاء من أوسط ما يلبس الناس بلا زهو ولا خيلاء ، وفضل نفقة للعيد يوسع بها على زوجه وعياله .

ــ أمن زكاة أموال الأغنياء يصرف ذلك ؟

ــ نعم ، ما وفت الزكاة به .

فضحك الرجل وتضاحك من معه حتى هم بعض أصحاب أبى البقاء بالوثوب عليهم لولا أنه منعهم من ذلك وقال بصوت يرتجف غضبا : (إنا كفيناك المستهزئين !) فاعتذر الرجل إليه وقال : « وا لله ما كنت من المستهزئين » .

ـ فماذا أضحكك ؟

ـ إنما ذكرت بؤسى وبؤس ألوف من الفقراء مثلى فاستنزرت الزكاة أن تفى لنا بما ذكرت .

ـ فهل أحصيت زكاة أموال الأغنياء جميعا فاستنزرتها ؟

ـ لا وا لله ، إنى عشت ما عشت فى زمن لا يخرج الأغنياء فيه زكاة أموالهم ، فما أدرى وا لله أكافية هى أم غير كافية . ولكن هؤلاء القرامطة يقولون إن الزكاة التى فرضها الدين لا تغنى شيئا ، فأردت أن أعرف ما حكم ا لله فى ذلك لو صح ما يزعمون .

ـ لعنة ا لله عليهم ! إنما يبغون الفتنة وفيكم سماعون لهم .

ـ لا وا لله يا أبا البقاء ، فلو صدقنا ما قالوه ما جئنا نستفتيك ، وإنهم ليركبوننا بالجدل فماذا نقول لهم ؟

ـ فقولوا لهم : إن ا لله يأمر بالعدل والإحسان ، وما الزكاة المفروضة إلا الحد الأدنى لما يؤخذ من مال الغنى ليرد على الفقير . وهذه تؤخذ فى وقتها المعلوم من نصابها المعلوم ، ولو لم يوجد من يستحقها فتودع حينئذ فى بيت المال . وكان العرب فى عهد رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أهل تقشف وقناعة ، فكان يكفيهم القليل من المال، يكاد يستوى فى ذلك غنيهم وفقيرهم ، وما يفضل عن حاجتهم كانوا ينفقونه على الجهاد فى سبيل ا لله أو يتصدقون به سرا وعلانية . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام خير قدوة لهم فى ذلك، فقد كان أجود بالخير من الريح

المرسلة، وما شبع آل محمد من خبز الشعير قط . حتى إذا فتحت الدنيا للمسلمين فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكثر المال فى أيديهم، وفشا العمران ، وازدحمت الأمصار بالناس ، وأخذوا بأسباب الرفاهية والترف ، ارتفعت أسعار الأشياء وهبطت قيمة المال ، فأخذ التفاوت يزيد والمدى يتطاول بين الفقراء والأغنياء حتى هلع لذلك قلب عمر وأشفق من هذا الحديث ، ولولا ماكان يشغله من حروب المسلمين مع الفرس والروم فى وقت واحد وإشفاقه على دولة الإسلام أن تدول فى تلك السنين العصيبة ، لكان قد قضى فى ذلك بقضاء فاصل مما يمليه عليه عرفانه بروح العدل فى الإسلام ، وهدى نبيه عليه الصلاة والسلام. فقد روى عنه أنه قال فى آخر أيامه لما هاله ذلك التفاوت بين الناس فى الغنى والفقر : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء ». ولكنه رضى الله عنه عوجل بالمنية قبل تنفيذ ما اعتزم عليه . فابن الخطاب يعنى فى مقاله هذا غير الزكاة لا ريب، فقد كانت الزكاة تؤتى على وجهها الأكمل فى عهده.

فصاح الرجل : « مهلا يا أبا البقاء، غير مملول ولا مستغنى عنك ـ! حسبى هذا لو وعيت . والله لئن لقيت قرمطا نفسه لأفحمنه بالحجة وألصقت لسانه بحنكه ! »

فتبسم أبو البقاء مسرورا بما قال الرجل ثم قال له : « فمن ذا لقيت من القوم وأراد أن يضلك ؟» فتلجلج الرجل قليلا ثم قال : « نشدتك الله إلا ما أعفيتنى من ذكر اسمه فقد حلفنى بالأيمان المغلظة وبالطلاق وبالبراءة من كل دين وكل ملة لا أبوح به لأحد إلا بإذنه » .

فضحك أبو البقاء ساخرا وقال : « ألا تعجبون من هؤلاء الملاحدة يحلفون الناس با لله وملائكته وكتبه ورسله وهم يكفرون بهؤلاء جميعا؟» ثم التفت إلى الرجل وقال : « إنه لا إيمان لهؤلاء، وإن يمينك لباطلة وليس عليك فى الحنث بها من حرج ، ولتكن كفارتها علىّ إذا شئت ، ولاأكرهك على مالا تحب » .

قال الرجل : « فإنى أستعفيك » .

فقال أبو البقاء : « أنت وذاك ».

ـ جزاك ا لله خيرا يا أبا البقاء ، لقد أوشكت أن أتردى فى الضلالة فأنقذتنى منها . وا لله لئن عمل أمير المؤمنين بما علمت من دين ا لله لأكونن من صالحى رعيته ولأدعون ا لله بأن يخلد ملكه .

ـ هلا قلت بأن يرفع ذكره ويطيل عمره ، فلا خلود إلا للملك ا لله سبحانه ، وا لله عز جل يقول :(كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام).

وسكت أبو البقاء قليلا وصمت أهل المجلس مما لحقهم من الخشوع حتى رؤى بعضهم يمسح بطرف ردائه أثر الدمع من عينيه ، ثم تنحنح الشيخ وقال : « هيه يا معشر المسلمين، سلونى أجبكم ، فإن الشيطان ليلقى الشبهة فى قلب أحدكم كشرارة النار الصغيرة ،فما يزال ينفخ فيها بوسواسه وهى تعظم وتستطير حتى تأكل إيمانه . فمن كانت عنده شبهة من وساوس أولئك القوم فليفض بها إلىّ لعلى أكشفها عنه . قال تعالى :(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

فتقدم إليه رجل ثان من ذلك النفر الذى طرأ على المجلس فقال : أما إذ دعوتنا إلى المسألة يا أبا اليقاء ، فعندى ما أريد بسطه إليك .

ـ قل ما شئت يرحمك ا لله .

- إني فلاح كما ترى ، ولى تسعة أولاد من ذكور وإناث أكبرهم يبلغ اثنى عشر عاما وأصغرهم رضيع يوشك أن تفطمه أمه قبل أوانه - إذ انقطع طمثها وشعرت بوحم الحمل - ونقيم فى كوخ صغير من الطين والسعف أقمناه بأنفسنا أنا وزوجى وأولادى ، لا يقينا من برد ولا حر ولا يكننا من ريح ولامطر . . وإنا لنبيت فيه مع مواشينا لا يفصلنا عنها إلا حاجز وطىء من الخشب . وليس لى من الرزق إلا أجر قليل آخذه من مالك الأرض ، ونصيب ضئيل يترِكه لى من حاصل الزرع لا يكفى لإطعامى وإطعام عيالى ما دون الشبع ، ولا يسلم بعد من تحيف جابى السلطان واستيلائه على ما فوق ثلثه باسم العشر ، ولا نملك فى الدنيا غير تلك المواشى وهى دين علينا لسيدنا المالك يستقضيها من أجرى حصة حصة. وأنا وزوجى وأولادى صغارهم وكبارهم نعمل فى الأرض من بعد صلاة الصبح لا نستريح إلا سويعة عند الظهيرة ، ثم نعود إلى عملنا حتى صلاة العشاء فنأكل مالا يشبعنا فلا يغرى عيوننا بالنوم إلا التعب . ولولا أننا نسرق شيئا من حق سيدنا نستعين به على إمساك رمقنا لبليت عظامنا فى التراب من أمد طويل .

وسكت الفلاح قليلا وهو يلهث كأنما أمسك الساعة من شوط بعيد جراه ، ثم استأنف حديثه قائلا : « فهذا حالى أيها الشيخ قد أجملته لك، فهل عند دينك ما يصلحه ؟ ».

فبدره أبو البقاء قائلا : « ويلك ما تقول ؟ أليس هو دينك ؟ ».

فنظر الرجل إليه نظرة قاسية وأجابه صائحا : « قد كان كذلك فيما مضى فاستبدلت به دينا ينصفنى من ظالمى وظالم عيالى ! ».

- أى دين تعنى ؟

- لا تخف يا أبا البقاء فليس اليهودية ولا النصرانية ولكنى على دين قرمط .

- ما يسرنى أن تؤثره عليهما . فبأى شئْ يعدك هذا الدين الجديد ؟

- إنه يخولنى حق الاستيلاء على الأرض التى أعمل فيها . أو لست أحق بها من مالكها الذى يقضى نهاره فى النوم والدعة وليله فى اللهو والقصف ؟

- بلى وا لله على ما أقوله شهيد . ولكنى سائلك فأجبنى . قل لى أولا ما اسمك ؟

- شعبان النامى

- أرأيت يا شعبان ، لو أن تلك الأرض كانت ملكا لك ، أفترضنى أن تنزع من يدك فتعطى لغيرك ؟

إن كنت حينئذ مثل مالكها الظالم فلتنزع من يدى ولا كرامة !

- فإن خيرت حينئذ بين أمرين ، فإما أن تعطى الفلاح الذى يعمل لك حقه بالعدل والإنصاف ، وإما أن تنزع من يدك، فأيهما تختار لنفسك؟

فإني أختار الأولى لا ريب .

- الحمد لله ، لست إذا على دين قرمط ، بل على دين محمد صلى ا لله عليه وسلم إذ فرض لمثلك هذا الحق .

- ماذا فرض لمثلى ؟

- أن يكون لك من ريع الأرض ما يكافئ عملك لو أستأجرتها من المالك فعملت فيها لحسابك ، ولمالكها القابع فى داره من ريعها مال يزيد على أجرة مثلها لو أجرها لك أو لغيرك .

- فسيزعم أنه لا يؤجرها إلا بكذا وكذا ليزيد بذلك من نصيبه في الربح ، فلا يبقى لي منه إلا القليل .

- كلا . إن على السلطان أن يضع لكل أرض أجرة معلومة على قدر جودتها وثمنها ، ليس للمالك أن يطلب أكثر منها . لقد شرحت لك حالي ، أفترى أن ما فرض لي من الريع كما بينته سيكفيني ويكفي عيالي؟

- أنت أدرى بتقدير ذلك مني . بيد أنه إن لم يكن كافيا كنت مسكينا ، فتعطيك الدولة قدر ما ينقصك حتى يكون عندك البيت الصالح والطعام الطيب وكسوة الصيف والشتاء ونفقة العيد ، كما بينت آنفا في حق الفقير .

- أهذا حكم الله يا أبا البقاء ؟

- نعم .

- فقد رضيت به حكما ولا أبتغي أكثر من هذا . والله لئن أعطيت نصيبي من الريع كما بينته ليزيدن على حاجتي ولا أحتاج إلى معونة أحد.

- فاستغفر الله مما نطقت من كلمة الكفر وتب إليه .

- أستغفر الله من كل ذنب وأتوب إليه . ألا لعنة الله على الذي دفعني إلى هذا السبيل !

- من هو ؟

- إمام المسجد الذي بقريتنا .

- لا حول ولا قوة إلا بالله . أقد بلغ بالقرامطة أن يؤموا الناس في المسجد ؟

- كلا يا أبا البقاء ، ما هو بقرمطي، ولكنه هو الذي دفعني إليهم

- كيف ذاك ؟

ـ كان ذلك فى العام الماضى وقد أصيب الزرع بجائحة فأكلته ، وجاء السيد عند الحصاد فرأى شيئا قليلا فسبنى وضربنى ولم يسمع منى قولا ، وتوعدنى بأن يحط ثمن ذلك من أجرتى فأصابنى من الهم ما أصابنى ، وأيقنت أن القاضى لن ينصفنى منه إن شكوته إليه فقلت : أروح إلى المسجد لعل الله يفرج لى ضيقى . فلما رأيت الإمام وحده قلت أستفتى هذا العالم فى أمرى عساه يهدينى إلى مخرج ، فكلمته والدمع فى عينى فإذا قصارى ما عنده لى أن أوصانى باسترضاء سيدى كيلا يطردنى من أرضه ، وبالصبر على ما أصابنى منه واحتساب ثواب ذلك عند الله . وتلا قوله تعالى : (والصابرين فى البأساء والضراء) (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) . فانصرفت من عنده وقد شككت فى الدين ، وما لبثت أن اتصلت بأتباع قرمط فملت إلى مذهبهم .

ـ فهل لك أن تسمى لنا هؤلاء ؟

ـ قوم من الفلاحين بائسون مظلومون مثلى ، ولا والله لا أدل عليهم فأنكبهم .

ـ إنما نريد أن نهديهم من الضلالة .

ـ فانشروا دعوتكم فى الفلاحين جميعا وبلغوهم حكم الله الحق ، فإنهم لن يمتنعوا عما فيه خيرهم .

فأطرق أبو البقاء قليلا ، ثم رفع رأسه وقال : « والله لقد صدق شعبان ودعانا إلى خير».

وتقدم ثالث من القوم فقال : « أصلح الله حالك يا أبا البقاء ، إنى قد سمعت ما قلت لصاحبّى هذين فهل لك أن تصغى إلى حديثى ؟ » فأجابه أبو البقاء : « افعل ،هداك الله ».

ـ إني عامل في معصـرة ابن أبي المعتمـر الزيـات بـدرب معن بـن زائدة، وأمي عجوز وأبي شيخ مقعد ، وقد ماتت زوجي منذ عامين وتركت لى غلاما صغيرا وست بنات كبراهن قد بلغت مبلغ النساء . ولا أقدر لقلة ذات يدى أن أزوجها أو أتزوج بعد أمها ، وإنما أجرى سبعة دراهم فى اليوم ، وهى لا تكفينا فنأكل يوما ونجوع يوما . ومسكننا حجرة واحدة نتكأكأ فيها من دار مهدمة يسكنها معنا قوم من العمال في مثل حالنا ، وصاحب المعصرة لا يريد أن يزيد أجرى دانقا واحدا ، وقد عملت عنده تسع سنين ، وحالى فى النقصان وحاله فى الزيادة حتى فتح له معاصر أخرى . ولا أجد عملا آخر فأتركه إليه ، ولا أستطيع أن أرحل في طلب الرزق وأدع والدى وعيالى يموتون من الجوع ، أأنت معى يا أبا البقاء ؟

ـ نعم نعم ،فأتمم قولك .

ـ أيسرك هذا الحال ؟

ـ لا وا لله إنه ليحزننى كما يحزنك .

ـ أو يرضى به دين ا لله؟

ـ لا والذى بعث محمدا بالحق والعدل ، هذا فى دين ا لله منكر عظيم.

ـ أفى دار إسلام نحن أم فى دار كفر ؟

ـ بل فى دار إسلام .

فقيم لا يرفع هذا المنكر عن أهله ؟

ـ ذاك ما شرح ا لله صدر أمير المؤمنين لإصلاحه من الفساد ، فانتظر ولن يطول انتظارك إن شاء ا لله .

ـ فماذا ينوى أمير المؤمنين أن يصنع لى ولكل عامل مثلى ؟

ـ أوَيعنيك أمر غيرك من العمال أيضا ؟

ـ وا لله ما كان ذلك يعنيني فيما مضى ،

ولقد كان في خطبي ما يشغلني عن خطب غيري ، حتى أتانا دعاة قرمط فسمعنا من مذهبهم أشياء في حق العامل ، وا لله لئن صدقوا لا يبقى على الأرض عامل لا يدخل في مذهبهم .

ـ فماذا سمعت في ذلك من مذهبهم؟

ـ أن المال سيكون مشاعا بين الناس لا يملكه أحد دون أحد ، وكل يعمل ما يحسن على قدر ما يطيق ، ويعطى ما يكفيه ويغنيه على حسب ما يبذل من جهد .

ـ فهل دخلت أنت في مذهبهم ؟ .

ـ ما زلت مترددا ، وسمعت الناس يتحدثون عنك بخير، وأن أمير المؤمنين سيعمل بنصحيتك ، فقلت أرى أولا ما عندك .

ـ ماعندى غير حكم ا لله وا لله أعدل وأحكم وأعلم بما يصلح خلقه، فقد خلق الناس أطوارا ويسر لهم رزقهم ، ثم فضل بعضهم على بعض فيه وجعل لكل ذى حق حقه ، وأوجب عليهم العدل والإحسان ليبلوهم أيهم أحسن عملا .

ـ هذا قد عرفته ، فما حق العامل في دين ا لله على من يعمل له ؟ وما نصيب كل منهما في ثمرة العمل ؟

ـ إن شئت ضربت لك مثلا بك وبصاحب المعصرة الذى تعمل عنده.

ـ ذلك خير .

ـ فإن لك من الثمرة ما يكافئ جهدك لو أن المعصرة كانت ملكا لك، ولصاحبها ما يكافئ أجر معصرته لو أجرها لغيره ، وله فوق ذلك

ما يكافئ جهده في حسن التدبير لها والإشراف عليها علىّ أن يحط من ذلك كله ما يستهلك من آلة العمل ويتلف . فإن لم يقم هذا بكفايتك وكفاية من تعولهم فلك على الدولة حق المسكين .

ـ كيف لا يكفيني ذلك يا أبا البقاء ؟ وا لله ليكثرن في يدى المال، فلا ألبث أن أملك لنفسي معصرة !

ـ فكن ذا مال إن استطعت ، فإن المال خير ما رعيت حق ا لله فيه، وأحسن كما أحسن ا لله إليك .

ـ فأخبرني أصلحك ا لله عن العامل الذى يستغنى عنه صاحبه فلا يجد له عملاً عند غيره ، ماذا يصنع ؟

ـ يكون له حق الفقير أو المسكين حتّى يجد عملا يحسنه .

ـ والذى لا يحسن شيئا من العمل ؟

ـ على الدولة أن تتيح له من يعلمه صناعة أو حرفة تنفعه وتنفع من حوله ، وأن تعيره الأدوات اللازمة لحرفته حتى يستغنى عنها ، فيردها أو يؤدى ثمنها .

ـ أفى دين ا لله كل هذا يا أبا البقاء ؟

ـ نعم وزيادة .

ـ ما الزيادة ؟

ـ التراحم والتواد ، وألا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن .

ـ هذا وا لله القول الحق . وا لله لأبلغنه لأمثالى من العمال البائسين فأنقذهم من وساوس القرامطة .

ـ افعل ، ولك ثواب ا لله على كل رجل تهديه .

ـ لكن ماذا أقول لهم إن استنجزوا هذا الوعد ؟

ـ قل لهم إن فرج الله قريب ، فإن أبوا إلا الجدل فقل لهم : لم لا يستنجزون القرامطة وعدهم ؟

وقام أبو البقاء من مجلسه وقد وقر في نفسه أن الأمر جد وأن القرامطة قد نفثوا سمومهم في الناس، وأن الناس معذورون في الاستجابة لهم ، وإنه إذا كان هذا حالهم في قلب الدولة فكيف حالهم في أجزائها وأطرافها! وأيقن أن لا سبيل إلى إنقاذ الناس من فتنتهم إلا بإنصاف الفقراء والعمال والفلاحين وتنفيذ ما شرع الله من العدل لحماية حقوقهم .

واتصل بالخليفة المعتضد فقص عليه ما رأى وما سمع ،وقال له : «إن الدين في خطر وإن الدولة في خطر ، فإن كان لا يعنيك أن تحمي دين الله فاحم ملكك وملك آبائك».

فابتسم المعتضد وقال له : «قد وعدتك ياأبا البقاء بأن أعمل بنصيحتك ، وإني لعلي وعدي .. فأي شئ أغضبك مني ؟»

ـ اعذرني يا أمير المؤمنين، فطالما عالجت الموفق رحمه الله وعالجني ، وطالما وعدني فلم يصنع شيئا .

ـ لاحق لك أن تؤاخذني بجريرة غيري ، فإني إنما توليت الخلافة منذ شهر ، وإن ماتدعو إليه لأمر عظيم ، ولابد له من استعداد طويل ، وإلا فسد الأمر علينا وانقلب الخير شرا .

ـ صدق أمير المؤمنين ، ولكني إنما أقترح البدء في الاستعداد من اليوم.

ـ فأشر علي بما يجب أن نبدأ به .

ـ ليأمر أمير المؤمنين بإنشاء ديوان الزكاة ، وديوان الفضول، وديوان الفقراء والمساكين ، وديوان الفلاحين ، وديوان الصناعة

والعمل، وأمير المؤمنين يعلم أني قد وضعت لكل من هؤلاء كتابا ليسترشد به القائمون عليه .

ـ أجل لقد قرأت منها كتاب الفصول ، فشهدت فيه فضلك وعلمك ، وأشهد أن أبي رحمه الله كان يعجب به .

ـ غفر الله لأبي أحمد ، كنت أنتظر منه التنفيذ لا الإعجاب .

ـ قد كان يرى صعوبة تنفيذه .

ـ بل كان يخشى ثورة الأغنياء ، وكان الله أحق أن يخشاه .

ـ لاتنس يا أبا البقاء أن هؤلاء كانوا يجدون من العلماء من يفتيهم بأن ذلك ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله .

ـ أولئك قوم اتخذوا العلم حرفة وتجارة ، وقد بينت في كتابي بطلان رأيهم .

ـ وكان مشغولا بفتن الخارجين على الدولة .

ـ ما كان دعاة الفتنة لينجحوا لو أنه بسط العدل في رعيته ، وقد خالفني حتى في ديوان الزكاة حيث لا مجال لاختلاف الرأى .

ـ ماقرأت كتابك في الزكاة ، ولكنني أذكر أنكما إنما اختلفتما بصدد إنشاء الديوان .

ـ نعم ، كان يريد أن يضم ديوان الزكاة إلى بيت المال العام، فأبيت إلا أن يكون مستقلا يصرف منه على مستحقيها وحدهم ، لاعلى المصالح العامة كلها . إن الله لا يرضى أن يصرف حق الفقير والمسكين في كنس الدروب وكرى الترع وإعاشة الشرطة ، حيث يفيد الأغنياء من ذلك أكثر مما يفيد الفقراء .

ـ لقد تذكرت الساعة حجته في ذلك رحمه الله : أن ذلك كان المعمول به في عهد الرسول وخلفائه .

- فأين عهدنا من ذلك العهد ؟ لقد تغيرت الحال ، وتشعبت أمور الدولة ، واختلفت أنماط الحياة ووجوه المعيشة ، وإنما أمرنا ا لله باتباع هدى النبى صلى ا لله عليه وسلم فى جملته وروحه ، وترك لنا الاجتهاد فى تطبيقه وتدبير شئون الناس عليه بحسب ما يقتضيه الزمان والمكان .

- ما أرى إلا أنك على الحق ، ومابى إلا أنى ذكرت أبى رحمه ا لله ، ورجاحة عقله وحسن تدبيره ، فعز على أن لا يكون وفقه ا لله إلى العمل الأصلح .

- لعل ا لله قضى فى سابق علمه أن يستبقى هذا الفضل لابن الموفق أمير المؤمنين ، ولكل أجل كتاب .

رجع أبو البقاء منشرح الصدر لما وعد به المعتضد من تنفيذ مقترحاته وشيكا . وكأنه بالعدل وقد بسط ظله على جميع بلاد الدولة قاصيها ودانيها ، فعاش رعاياها من المسلمين وغيرهم من مختلف الطوائف والملل فى رخاء ويسر ، لا يجوع فيها فقير ولا يعرى ، ولايظلم فيها عامل ولا فلاح ، ولا تثور فيها فتنة، ولا يختل فيها أمن ، بل يتمتع الجميع بعدل الإسلام وسماحة أحكامه ، فيخلصون للدولة التى تحرس هذا النظام ، ويدعون لها بالتأييد والبقاء . وربما يمتد أثر ذلك إلى الممالك المجاورة ، فيوفق ا لله أولياء أمورها إلى الاقتداء ، فينتشر عدل الإسلام حتى يعم الأرض .

وانقطع عن الناس أياما وهو يفكر فى إنشاء تلك الدواوين ، وتأسيس قواعدها وطرائق ضبطها وإدارتها ، واختيار القائمين عليها ، وماعسى أن يلقى الخليفة عند إعلان تنفيذها من إنكار الأغنياء ومعارضتهم ، وما يخشى فى ذلك من فتنة . على أنه واثق بتأييد ا لله له ، وهو يحمد ا لله على أن كان على الخلافة فى ذلك الوقت رجل شجاع ، -

صلب العود ، نهاض بجلائل الأمور ، متمرس بسياسة الدولة، لاينقصه عزم ولا حزم .

حتى جاء رسول الخليفة يوما يستعجله للمثول بين يديه ، فانطلق إلى قصر الخلافة ، وهو يتوقع أن يسمع نبأ خطيرا ، لايدرى أخير هو أم شر. فلما انتهى إلى مجلس الخليفة علم منه أن حرس القصر قد قبضوا على رجل في زى النساء ، يحمل تحت ثيابه سلاحا ، قد تسلل إلى القصر من باب الحريم يريد اغتيال المعتضد ، فلما سيق إلى دار العذاب حاول أن يتحسى سما كان معه . فحالوا بينه وبين ذاك .... وعذبوه ليقر ، فاقر بأنه من القرامطة ، وأنه كان يتصل بداعيتهم «عبدان» في دار أبى هاشم ابن صدقة الكاتب ، وأن عبدان قد رحل بأهله من بغداد منذ نصف شهر بعد ما أوعز إليه باغتيال المعتضد فى التاريخ المذكور .

فأمر المعتضد بمضاعفة الحرس فى قصره وكلف رجالا منهم بحراسة أبى البقاء أينما كان وأينما ذهب . وقال أبو البقاء : «لا حاجة إلى ذلك ياأمير المؤمنين ، فهم إنما يريدونك لخوفهم منك».

فقال المعتضد : «بل أنت عليهم أشد ، فهم على الظفر بك أحرص».

وقبض على أبى هاشم بن صدقة ، وفتشت داره ، فلم يوجد فيها شئ ، وأنكر التهمة ، وأقسم أنه لا يعرف عبدان ولا أحد من القرامطة ، وأن المجرم المقبوض عليه إنما ألصق به التهمة نكاية به ، لما عرف عنه من بغض القرامطة وعداوتهم ، فأمر المعتضد بحبسه حتى يتبين أمره .

وكان المعتضد قد عزل الطائى عن ولاية الكوفة لكثرة ماورد إليه من رسائل الهيصم وغيره من وجوه الكوفة ، يضجون بالشكوى منه ،

ويتهمونه بممالأة القرامطة والإغضاء عن أعمالهم. وكانوا قد كتبوا مثل ذلك في حياة الموفق ، فلم يسمع لشكاويهم، لأن الطائى كان دائما يكتب إليه بأنه يؤثر اتباع سياسة اللين والمحاسنة مع قرامطة السواد حتى يثوبوا إلى رشدهم ، وأن في وسعه ــ لو شاء ــ أن يقضى عليهم جميعا في أيام قلائل ، ولكنه يخشى أن يخرب السواد كله إذا هو فعل ذلك إذ كانوا فلاحيه وعماله . واستشهد لذلك بما وقع في القاسميات من أرض البطائح ، إذ ضعفت زراعتها فقل خراجها عقب هجمة المعتضد عليها وتنكيله بأهلها ، فكان الموفق يقره على رأيه .

واستمر الطائى طوال تلك الأعوام يتقاضى منهم الرشوة السنوية التى اتفق عليها مع حمدان ، إلى أن تولى المعتضد الخلافة ، فعزله وولى مكانه كرامة بن مر .

واتفق هذا الوالى الجديد مع الهيصم ، فأخذ يعنف بالقرامطة ، ويطارد دعاتهم ثم قبض على جماعة من زعمائهم فوجههم في السلاسل إلى المعتضد ليرى رأيه فيهم ، فوردوا إلى بغداد بعد يومين من حبس أبى هاشم ، فأمر المعتضد بهم فعذبوا حتى أقروا بأسرار كثيرة منها أن أبا هاشم كان من دعاتهم القدماء ، وأنه كان يكاتب حمدان قرمط ، وكان أحدهم يحمل الرسائل بينهما ، فأسقط في يد أبى هاشم ، ولكنه أصر على الإنكار ، ورمى هؤلاء الشهود بمثل ما رمى الشاهد الأول» فعذبوه فاحتمل العذاب دون أن يعترف . فجيء بزوجته، فلما رأت ما يلقاه من العذاب ، أقرت عنه واعترفت بأن عبدان القرمطى كان نازلا مع أهله في دارهم ، فكذب قول زوجته وقال : إنما قالت ذلك شفقة عليه » . فصرفوها إلى منزلها واستأنفوا تعذيبه حتى خشوا أن يموت دون أن يبوح بسره . فقيل لهم : اسقوه مخدرا ، فلما سقوه المخدر طفق يهذى بكلام

كثير مختلط بعضه ببعض، ويذكر أسماء جماعة من كتاب بغداد ورؤسائها ويصيح بأعلى صوته :

« أين أنت يا حمدان أين الثورة التي وعدتنا بها ؟ أعلنها ـ! أعلنها ! أعد لنا دار الهجرة . اهجم بجيش الدعوة على هؤلاء الظلمة . مزقهم مزقهم ! خلصني من أيديهم ، خلصني يا حمدان !».

وقد قام أمر المعتضد بتدوين ذلك كله ، فدونوه . ثم أوصاهم بأن يعالجوه ويضمدوا جراحه حتى يعود إلى الصحة كما كان .

وأمر المعتضد بأولئك الذين هذى أبو هاشم بأسمائهم ، فقبض عليهم وفتشت دورهم ، فكان مما وجد فيها : كتاب الرحى والدولاب ، وكتاب الحدود والأسناد ، وكتاب النيران ، وكتاب الملاحم ، وكتاب المقصد ، وكلها من تأليف عبدان القرمطي .

فلما حملت إلى المعتضد أشار بعض من حضر من الفقهاء بإحراقها ، فخالفهم المعتضد وأمر بتسلميها إلى أبي البقاء .

وكان من الأسماء التي ذكرها أبو هاشم اسم عزرا بن صمويل كبير تجار اليهود في العاصمة ، فحار المعتضد في أمره وعجب كيف يتواطأ مثل هذا الجماع للمال مع هؤلاء الذين يرون المال مشاعا بين الناس لا حق لأحد أن يجمع منه شيئا ، فاهتم به خاصة وأمر بأن يحضروه ويترفقوا به رعاية لما بينه وبين أبيه الموفق من قديم الصلة وطويل المعاملة . فأقبلوا به شيخا في نحو الثمانين من عمره ، أصلع ، مجعد الوجه ، مقوس الظهر، تنبئ عروق يديه الغليظة الناتئة عن فضل قوة ومتانه ، وقد ارتدى جبة من الحبرة سوداء ، عليها خطوط حمر عراض أضفت عليه رواء وهيبة .

فأحسن المعتضد استقباله ، وأجلسه قريبا منه ، ثم قال له : « ماذا خلطك يا عزاز بهؤلاء القوم ؟ فقال عزرا : « لولا مقام أمير المؤمنين ، لكنت أحق بسؤاله : فيم قبضوا على فروعوا أهلى وساقونى إليه كأننى مجرم ، وأنا صنيعة أبيك ولى عهد المسلمين ، وصنيعتك من بعده ؟ » .

ـ إنك متهم بموالاة القرامطة ، فإن استطعت أن تبين لنا حقيقة اتصالك بأبى هاشم بن صدقة بما يبرئ ساحتك أطلقنا سراحك .

ـ ليس بينى وبينه إلا ما يكون بينى وبين الناس من المعاملة .

ـ أما كنت تعلم أنه من دعاة القراطمة ؟

ـ أنى لى علم ذلك يا أمير المؤمنين ؟ ـ

ـ فقد أقر لنا أنه كان يجيئك مع الكرمانى ويبعثه الكرمانى إليك .

ـ ما عرفت حقيقة الكرمانى وخيانته للدولة فى عهد أبيك إلا بعد ما انكشف أمره للناس جميعا فهرب . وما أنا إلا تاجر أعامل الناس جميعا، ولا أسألهم عن مذاهبهم .

ـ ففيم عاملت أبا هاشم بعد ذلك وتسترت عليه ؟

ـ كنت أحسب أن ما بينه وبين الكرمانى لا يعدو حد التجارة والمعاملة .

ـ فقد كنت تعطيه المال لينفقه على دعوته الخبيثة ، وكان يحيلك على القداحين بسلمية ، كما كان يفعل الكرمانى معك من قبل ، وقد علمت أن هؤلاء أعداؤنا .

ـ ليس على أن أسأل من يأخذ المال منى فيما ينفقه ، ولا أن أسأل عن القداحيين المحال عليهم ما مذهبهم ، ما أدوا المال لوكلائى هناك . وما أنا يا أمير المؤمنين إلا يهودى من أهل الذمة قد شمله عدل الإسلام،

فعاش واغتنى فى ظله ، فما ينبغى لمثلى أن يدخل نفسه فيما بين طوائف المسلمين من خلافات وعصبيات .

ـ ليس هذا من ذاك ويلك . فهؤلاء جماعة يأتمرون بالدولة التى شملك عدلها ، فاغتنيت فى ظلها ، فمن والاهم أو تستر عليهم فقد خان الدولة.

ـ ماكنت أعلم أنهم يأتمرون بالدولة .

فنظر إليه المعتضد مليا ثم قال له : «اعلم ياعزرا أن عندنا جميع أوراقك ودفاترك ، وسنكلف رجالا ينظرون فيها ويدرسونها ، فإن شئت أن يشملك عفونا ، فاسبقهم وأفض إلينا بسرك .».

فاضطرب الشيخ اليهودى اضطرابا شديدا ، وأرتج عليه هنيهة ثم قال وهو يبكى : «لاتدعهم يفعلون ذلك يا أمير المؤمنين ، فإن فيها أسرار الناس ، وسأعترف بذنبى لأمير المؤمنين .»

ـ هات فقل .

ـ هل يعدنى أمير المؤمنين بعفوه ؟

ـ نعم إن قلت الصدق.

ـ فإنى كنت أعرف الكرمانى وخيانته للدولة وأعرف عمل أبى هاشم معه ومع القرامطة من بعده ، وصلة القرامطة بالقداحيين ، وأنهم جميعا أعداء للدولة ؛ وأعلم أن لا حق لى فى معاملتهم والتستر عليهم ؛ ولكن دفعنى إلى ذلك ما ورثته عن ابائى من حب المال والحرص عليه، فذلك ذنبى قد اعترفت به ، وهذا سرى قد كشفته بين يديك ، وإنى بعد لعبد أمير المؤمنين وصنيعة أبيه ، فهب لى ذنبى وارحم شيخوختى .

ـ أليس عندك غير هذا ؟



ـ كفى بهذا ذنبا يا أمير المؤمنين ليس أعظم منه إلا عفوك . فأمر بـه المعتضد فأعادوه إلى حبسه وأوصـاهم بإحسـان معاملتـه .وقـد رابـه مـن الشيخ اليهودى فزعته من الاطلاع على دفاتره وأوراقـه ، فقدحـت فـى ذهنه فكرة عزم على تنفيذها ، وكتم أمرها عن النـاس جميعـا ، وهـى أن يرد إلى أعماله بالآفاق بأن يفجأوا وكلاء عزرا فى نواحيهـم ، فيفتشـوا دورهم وحوانيتهم ويجمعوا كل مالديهم من الدفـاتر والأوراق فيرسـلوه إليه . ولكنه لم يلبث أن أضاف إلى ذلك أمره للعمال بأخذ أموال أولئـك الوكلاء وحبسها عندهم . وذلك أنه لما رفع الرجال إليه ما وجـدوه فـى دفاتر عزرا وأوراقه من الوثائق الهامة انكشفت لـه أسـرار خطـيرة تتصـل بسلامة الدولة بعضها حديث وبعضهـا قديـم مـن عهـد المعتصـم ، فـأمر بترتيبهـا وحفظهـا ، وتوقـع أن يجـد فـى أوراق وكـلاء عـزرا ودفـاترهم مايزيد الأمر وضوحا ، ولكنـه لم يصبر علـى انتظارهـا حتـى تجـىء فـأمر بإحضار الشيخ اليهودى بين يديه ثانية .

قال له الخليفة : «ماذا ترى فى صاحب الزنج ؟»

قال عزرا وهو يرتعد خوفا : «ماذا أقـول ياأمـير المؤمنـين فـى خـارج شقى ، قد أهلكه الله بسيف أبيك وبسيفك ؟».

ـ كنت تقدم للموفق ما احتاج إليه من المال لمحاربته .

ـ أجل يا أمير المؤمنين ، وقد عرف لى أبوك هذا الصنيـع ، ويخجلنـى أن أذكره تباهيا به أو منا على الدولة التى أدين لها بالولاء .

ـ أفلم تجزك الدولة على ماقدمت ؟.

ـ بلى ، قد أقطعنى الخليفة أرض القاسميات من بطائح الكوفـة . ومـا كانت تثمر لنا شيئا ، ولكنا أغرينا بهـا وجـوه الأغنيـاء بتلـك الناحيـة ، فعمروها ، فأصبحت تدر للدولة خراجا كبيرا.

- فهذا فضل جديد لك !

- يخجلنى يا أمير المؤمنين أن أتمدح به ، فإنما أنا ربيب نعمتكم يا آل العباس ، كما كان أبى كذلك فى عهد جدك المعتصم .

- أفلا يخجلك أن كان وكيلك بالبصرة يمد طاغية الزنج بالمال ليحارب به الدولة ؟

كاد عزرا يصعق لسماع هذه الكلمة ، فطفق يتلون ويتلجلج ، محاولا أن يجد عذرا يتنصل به ، فما أمهله المعتضد أن قال له : «لا تحاول الإنكار فهذا مثبت فى دفاترك ».

- كلا لا أكذبك ياأمير المؤمنين ، ولكن الطاغية لعنة الله قد أكره وكيلى على تقديم المال له .

- ففى دفاترك أنه قدم للطاغية أول دفعة من المال فى أول شعبان سنة ٢٥٤ قبل أن يخرج الطاغية ويكون له أى سلطان .

- قد وقع خطأ فى تاريخ ذلك يا أمير المؤمنين لاريب ، فإنا معشر اليهود لا نرمى أموالنا فى الهواء ، ولقد كان صاحب الزنج فقيرا. صعلوكا قبل خروجه على السلطان فكيف يعقل أننا نضع مالنا إذ ذاك فى يديه ؟.

- بل قدرتم له النجاح فى حركته ، فأمددتموه بالمال ، وكتب لكم صكا بأن يقطعكم سباخ البصرة عندما يتغلب على أعمال البصرة وكورها ، فهل كان يكتب مثل هذا الصك لو أكرهكم على تقديم المال إليه؟.

- إنه كان خوانا غدارا يا أمير المؤمنين . وقد خدعنا بذلك الصك فلم يوف لنا بما كتب ، وقد كنا نتوقع منه ذلك حينما أكرهنا على دفع المال.

ـ لا تراوغني ياعدو الله ولاتمارني في الحق . ألم يرضكم بأضعاف ماأخذه منكم لما استباح رجاله البصرة ونهبوا أموال أهلها ؟.

ـ بل ألزمنا بأن نحفظ له تلك الأموال وديعة عندنا ، ثم استردها بعد ذلك .

ـ كلاما استردها منكم وإنما أمددتموه بأموال أخرى حين احتاج إليها لمحاربتنا في واسط وأعطاكم بها عروضا وجواهر .

ـ أما يعلم أمير المؤمنين أن وكيلنا قد هرب من البصرة لما تمكن من ذلك حين اشتد به ضغط الطاغية وإلحاحه عليه بدفع المال ؟ فكفى بهذا برهانا على أن الزنج كانوا يكرهونه على مالا يحب .

ـ كذبت ياعدو الله . إنه ماهرب إلا حينما انقطع رجاؤكم في الزنج بعد ماأطبقنا عليهم من كل مكان .

ـ حسبنا ياأمير المؤمنين أننا نجمع الأموال لننجد بها الدولة ساعة الحاجة ، فليكن في ذلك ما يشفع لنا عند أمير المؤمنين ويخفف عنا سيئاتنا .

ـ ولتمدوا بها كل ذى فتنة يريد الخروج علينا في البلاد !

ـ كيف لى بإقناع أمير المؤمنين أن ما أمددنا به صاحب الزنج كان على كره منا ؟

ـ بل صنعتم مثلها مع يعقوب الصفار لما أعلن علينا العصيان .

ـ لو كان الموفق حيا لشهد لأمير المؤمنين بأنني ماقصرت في إمداده بما شاء ليقضى على فتنته .

ـ ما كان أبي يعلم أنك أوعزت لوكيلك بخراسان ، فكان يمد يعقوب بالمال ليوقد به نار الفتنة ، وإلا لنكبكم وصادر أموالكم . ومن يدرى لعله مامن فتنة اشتعلت في الدولة إلا كنتم أنتم الموقدين .

ـ كلا يا أمير المؤمنين ،لا يذهبن بك الغضب علينا إلى أبعد مما ارتكبنا من الذنب ، وقد وعدتني بالعفو ، ومن في الناس أصدق من أمير المؤمنين وعدا ؟

ـ وعدتك بالعفو إن صدقتني فلم تفعل .

ـ لأصدقنك الساعة يا أمير المؤمنين! لأعترفن لك بما تشاء .

ـ الآن وقد شهدت عليك دفاترك وأوراقك ؟.

ـ فإني لأطمع بعد في العفو .

ـ فقل لنا وأصدقنا القول : ماذا دفعكم إلى هذا الذى صنعتم كله ؟.

ـ وا لله لأقولن الصدق وليفعل بى أمير المؤمنين مايشاء . ما دفعنا إلى ذلك إلا الطمع في الربح وما توارثناه عن آبائنا من حب المال والتهالك على جمعه .

ـ كلا ليس هذا وحده الذى دفعكم بل هو ما أشربتموه من العداوة للمسلمين والكيد لدينهم وخلافتهم .

ـ معاذ الله أن نبغض أهل ملة أنقذونا من اضطهاد النصارى وظلم الروم . إنما نبغض النصارى الذين يبغضوننا كما يبغضونكم .

ـ ولكن الله عز وجل يقول لنبيه في محكم كتابه : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون)

ـ ولكنهم مشركون ونحن على التوحيد مثلكم .

ـ فلقد أشرك آباؤكم با لله فعبدوا عجل السامرى .

ـ هذا مصداق ماقلته لك آنفا ياأمير المؤمنين !

ـ كيف ؟

- كان ذلك العجل من ذهب ، فإنما عبدوا الذهب لا العجل . لقد بلينا بحب الذهب فهو يعمى بصائرنا ويوردنا المهالك ، وهو الذى عرضنا اليوم لسخط أمير المؤمنين .

وقهقه عزرا قهقهة متصنعة ثم قال : «جبلة فينا يا أمير المؤمنين أراد الله تغييرها فلم يستطع !».

- لا تسمعنى كفرك ، أخزاك الله ! إن الله لقادر على كل شىء.

- وإن أمير المؤمنين لقادر على العفو .

فأطرق المعتضد قليلا ثم قال له : «قل لى ويلك فأصدقنى : هل ساعدتم الروم قط ؟»

- الروم ! معاذ الله يا أمير المؤمنين .

- ستأتينى دفاتر وكلائك وأوراقهم من الآفاق فإياك أن تكذبنى .

فاضطرب عزرا قليلا ثم تجلد وقال : «أما على دولة أمير المؤمنين فلا، ولكن على ابن طولون المتغلب على مصر ».

- فقد شهدتم على أنفسكم بخيانة المسلمين .

- إنه عدو أبيك وعدو الدولة .

- ما أنت وذاك عليك اللعنة ! إن ابن طولون أمير صالح منا ، والروم أعداؤنا ، وإن من أعانهم عليه لخليق أن يعينهم علينا .

- كلا يا أمير المؤمنين ماكان ذلك قط .

- غدا سنرى .

* * *

ومالبثت الأنباء أن وردت تترى إلى دار الخلافة باشتداد حركة القرامطة فى السواد ، وأن حمدان قد ظهر لهم بعد احتجابه ، وأن الفلاحين قد عادوا إلى الخمسين الصلاة والتشاغل بها عن تأدية أعمالهم.

وجاءت رسائل والى الكوفة يعلن فيها تفاقم الحالة، ويستنجد بالخليفة ويستأمره فيما يفعل .

وكان أبو البقاء مشغولا بكتب عبدان يقرؤها ويرد عليها بما يفند مزاعمها ويكشف شبهاتها . فاستدعاه الخليفة واستشاره فى الأمر ، فكان من رأى أبى البقاء أن يسعى كرامة بن مر وأعوانه للقبض على زعيمهم حمدان وغيره من الدعاة والرؤساء إن استطاعوا ، وأن يتركوا الفلاحين وشأنهم حتى يتم الإصلاح المنتظر فيثوبوا إلى رشدهم . فاستصوب المعتضد رأيه وأنفذه .

ثم أخذت دفاتر الوكلاء اليهود وأوراقهم التى طلبها المعتضد تصل إليه من الآفاق ، حتى تمت عنده فى خلال شهرين ، وفحصوها فوجدت كلها مؤيدة لما فى دفاتر عزرا وأوراقه . وعثر بينها على رسالة صغيرة فى حجم الوصية مكتوبة بالعبرية ، فجيء بمن يفك رموزها ، فتبين أنها سجل شركة خطيرة أسسها جماعة من كبار تجار اليهود بمدينة الموصل فى أواخر عهد الخليفة المأمون ، على أن تبقى قائمة طوال العصور يديرها أبناؤهم ، وإذا لها دستور عجيب ينص على وجوب تشجيع الفتن فى بلاد الدولة ، وإمداد القائمين بها ، والسعى لإثارة الحروب بين أمراء المسلمين وبينهم وبين الروم ، وتأريث نار الخلاف بين الطوائف والمذاهب والنحل ، والإفادة من كل ذلك فى تجميع الأموال وتكثير الأرباح لشركتهم . وظهرمن الأوراق الملحقة بالسجل الأصلى أن والد عزرا كان رئيس الشركة فى عهده ، وأن رئيسها الآن يوشع بن موسى فى (الطالقان) وهو الذى وجد السجل عنده ، وأن هذه الجماعة كان لها يد فى حركة بابك الخرمىوأثر فى حركة السامبين والطاهريين وغيرهم ، وأنهم اتصلوا بعبد الله بن ميمون القداح وشجعوه .

فهال المعتضد ما رأى . وماقضى العجب منه بعد ولا قطع فيه بأمر، إذ جاء نبأ عظيم فشغله عن ذلك كله : أن حمدان قد أعلن العصيان ، وأن القرامطة بالسواد قدقاموا معه قومة رجل واحد ، وأن معهم من القوة والأسلحة مالا يحصى كثرة ، وأنهم هزموا جنود السلطان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأنهم اتخذوا قاعدتهم فى (مهيماباذ) حيث قامت دار هجرتهم الأولى من البطائح ، وأن الفلاحين منهم حتى الذين يقيمون فى ضواحى الكوفة وأرباضها أصبحوا لا يهابون السلطان ، ويجاهرون بولائهم لحمدان ، ويترنمون بنشيد الثورة فى أكواخهم وفى الطرقات :

نحن الداعون لذى العظمه
من مشرقها حتى العتمه
الأرض لنا لا للظلمة!
والويل لهم فى الملتحمه!
إذ نعصبهم عصب السلمة
ونؤز بهم نارا حطمه
لانترك منهم من نسمه

السفـــــر الرابـع

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وا لله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة ا لله يجحدون﴾

﴿ضرب ا لله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون * الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب ا لله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء وهو كلٌ على مولاه أينما يوجّهه لايأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾.

(قرآن كريم)

١

رجع عيسى بن ميمون الخواص إلى مسكنه بحى العمال في الكوفة، فوجد زوجته وابنتها تنتظرانه على الباب ، فما كاد يقع بصرهما على القفف والزنابيل والمراوح التى يحملها على رأسه وفوق كتفيه وتحت إبطيه حتى انبرتا تعدانها وهو يقول لهما : «دعانى أضع هذا الحمل عنى أولا » وهما لا تباليان بما يقول حتى قالت الفتاة : «إنه ياأماه لم يبع إلا قفة واحدة».

ـ قفة واحدة ولا شئ من المراوح ؟

ـ لا شيء . هاهى ذى كما سرح بها كاملة العدد .

ولم يقل الرجل شيئا، بل قصد إلى ركن فى الحجرة الصغيرة التى يسكنونها ، وهى منزلهم فى دار مشتركة يقطنها معهم أسرتان أخريان من العمال ـ فوضع عنه حمله ثم دلف إلى فراش بال موضوع فى الركن المقابل على حصير جديد من صنع أيديهم ، فأماط عنه حزم الخوص الملقاة عليه ثم قعد وهو يقول : « الحمد لله على كل حال » . ودنت منه زوجته فقالت : « بكم بعت القفة يا عيسى؟»

فأجابها متأففا : « أما تعرفين ثمنها ياوردة ؟ بكم إلا بدرهمين؟ »

ـ لكنك بعت واحدة منها أول من أمس بثلاثة دراهم.

ـ ذاك امرؤ مغفل وليس يشترى منى كل يوم .

ـ وا لله إنه لرجل طيب .

ـ أجل هو طيب عندك ومغفل عند الناس .

ـ ويلك ياعيسى ، تدعو الطيبين مغفلين !

فقال الرجل وهو بين التضاحك والتضجير : «لم تعجبين من هذا وأنت منهم ؟ تأبين إلا أن نعيش هنا فى الشقاء والمسغبة وعند أخيك النعمة والملك الكبير».

وكانت الفتاة قد خرجت من الغرفة قبل ذلك لتعد غداءهم فى المطبخ ، فلما عادت بالخوان معها سمعت زوج أمها يقول ماقال ، فذهبت تقول :

«نعم ياأماه ، دعينا نرحل إلى خالى حمدان فإنى مشتاقة إلى رؤيته. ماذا يحملنا على البقاء هنا وغيرنا من الناس يرحلون إليه ؟».

فنظرت الأم إليها وقالت : « أخفضى صوتك يامهجورة لايسمعك جيراننا تذكرين حمدان». فقالت الفتاة وهى تفرش الخوان أمامهما على الحصير:

«مالنا وماهم ؟ إنهم جميعا ليذكرون حمدان ويعتزمون على الرحيل إلى بلاده ».

فقالت الأم : «أجل ،ولكن لا ينبغى أن يعلم أحد أنه خالك فيقبض السلطان علينا ». فبدرها الرجل قائلا : «وا لله إن بقينا هنا طويلا بعد ليعلمن السلطان بأمرنا . إن لكرامة بن مر لعيونا فى كل مكان » ثم التفت إلى الفتاة وقال لها : « فهاتى ماعندك يامهجورة فإنى وا لله هالك جوعا .»

فانطلقت الفتاة ثم عادت تحمل طبقا من العدس وضعثا من الكراث فوضعت ذلك على الخوان ، وعمدت الأم إلى زنبيل فى الحجرة فأخرجت منه ثلاثة أرغفة من الذرة ثم جلس الثلاثة يأكلون .

قال عيسى : «حرام عليك ياوردة أن تطعمينا هذا ، وهناك فى (مهيماباذ) رقاق البر وألوان الفاكهة واللحم الوفير ».

فقالت مهجورة : «والحلل والحلى والقصر الكبير» .

وانتظر الخواص أن تقول زوجته شيئا ولكنها ظلت ساهمة ، وهى تمضغ عودا من الكراث فى يدها بقلة اهتمام كأنما تفعل ذلك بدون وعى منها ، فلما رآها لاترجع قولا قال لها : «إن كان حمدان هذا أخاك حقا فلا وا لله لا أدرى ماذا يمنعك أن نلحق به ونحن أهله ، وقد لحق به الأباعد عنه ؟» .

فظهر الغضب عند ذاك فى وجهها ، وكانت قد غمست لقمة الخبز فى طبق العدس لتأكلها ، فألقتها بين يديها ، واضطم مبسمها الأرجوانى وجعل يتمور كأنه طعنة فائرة! وعقد العبوس حاجبيها فاقترنا فوق عينين حوراوين قد قفت أهدابهما الطويلة السود فاتسعت حدقتاهما تلتمعان ، فكان منظرها جميلا رائعا . ثم اختلجت شفتاها فسمعها جليساها تقول : « أتمارى فى صدق قولى ياابن ميمون ؟ أتحسبنى ادعيت كذبا أننى أخت حمدان ؟ ياليتنى مابحت بهذا السر لك ». فجعل الرجل يعتذر إليها ويقول لها : «إننى وا لله ماقصدت تكذيبك ياوردة ، فلو كان عندى أدنى شك فى صدق قولك لما رأيت منى هذا الإلحاح بالسفر إلى أخيك»

ــ ارحل إليه وحدك إن شئت ، أما أنا ومهجورة فسنبقى هنا!

فقالت مهجورة : «لكنى أريد أن أراه ياأماه ».

ـ فاتبعيه إن شئت، فسأبقى هنا وحدى .

ـ كلا يا أماه ،إننى لا أقدر على فراقك .

فقال عيسى : «علام هذا التشبث بالبقاء هنا ياوردة ؟ »

ـ قد قلت لك مرارا إننى لا أصير إلى حمدان بعد ما كفر وبدل .

ـ قلت لك إن هذا كذب كله وبهتان . إنما أعداؤه هم الذين أشاعوا عنه هذه الأقاويل ليصدوا الناس عن اللحاق به .

ـ أليس هو على مذهب الشيخ الأهوازى ذلك الرجال المارق ؟

ـ ماذا فى مذهب الشيخ الأهوازى من بأس ؟ ما دعا الناس إلا إلى الزهد والصلاة ، وإنما خاف الهيصم وأمثاله منه على أموالهم وأملاكهم، لأنه أعلن حقوق الفقراء والفلاحين فيها فحرضوا السلطان عليه.

فقالت مهجورة : « نعم يا أماه ، لا يعقل أن يكفر خالى حمدان ، وإنما يحسدونه على ما آتاه الله من الجاه والملك ».

سكتت الأم قليلا ثم قالت : « حسبه انه خارج على الخليفة ، وسيأتى يوم مصرعه كما صرع قبله صاحب الزنج وغيره من الخارجين على الدولة ! لا أريد أن أشهد معه هذا المصير ».

ـ كلا يا وردة، فإن أخاك قد بلغ من القوة والمنعة ما يجعله يخشى على الخليفة منه ولا يخشى من الخليفة عليه . ولولا ذلك لما تأخر المعتضد عن محاربته إلى اليوم .

ـ إنما يمهله المعتضد ولا يهمله .

ـ بل هو يزداد كل يوم قوة ، وجموع الناس يهأجرون إليه من كل مكان لينعموا بالعدل فى مملكته ، حيث الرزق مشاع بين أهلها فلا غنى ولا فقير . وإن ملكه ليتسع يوما فيوما حتى يشمل بلاد الدولة أجمع .

ـ من أين علمت هذا ؟

ـ هكذا الناس جميعا يتحدثون عنه

ـ فدعنا باقين هنا حتى يمتد إلينا ملكه !

فتنهد الرجل وقال : « إلى متى نصير على هذا البؤس والشقاء ؟ أيرضيك يا وردة أن تظل مهجورة ابنتنا فى هذه الأسمال ولها خال ملك

يقدر أن يكسوها حلل الدمقس والحرير ؟ آه ! من ذا يصدق أن صهري رجل له ملك وسلطان ثم تأبى أخته التي عندي إلا أن تبقيني خواصا أقنع بالدرهمين والثلاثة ؟ ».

ـ إنك تزوجتني أرملة فقيرة تعمل خادما في منزل أم الحارث القابلة، وما تزوجتني أخت ملك أو ذي جاه ، وقد عشنا على هذا الحال ثلاث عشرة سنة في عافية وستر ، فعلام نجحد نعمة الله ونطمع في شيء قد يمسنا من ورائه الضر والهلكة ؟ .

ـ يا ليت أم الحارث تعيش اليوم . إذًا لما أقرتك على البقاء هنا في هذه المتربة وعند أخيك الخير والنعمة .

ـ رحم الله أم الحارث فقد كانت صالحة ورعة .وقد وجدتني شريدة بائسة فآوتني عندها وسترتني لوجه الله لا طمعا في شيء مني . وقد علمتني الفرائض والقرآن . إخالها لو عاشت اليوم لانتصحتني أن أصير إلى أخ لي خارج على إمام المسلمين لأجد عنده حظا من النعيم الزائل.

ورأى عيسى بن ميمون ألا سبيل إلى إقناع زوجته برأيه في ذلك اليوم، ولكنه لم ييأس من بلوغ غرضه في المستقبل ، إذا مااستمر يعالجها الفينة بعد الفينة بحيلة ولطف ، وله من تأييد ربيبته المتحمسة لرأيه عون كبير .

٢

في عشية ذلك اليوم ركب الهيصم في موكب من حاشيته وأتباعه إلى دار الحكم بالكوفة ليقابل واليها كرامة بن مر في أمر هام على موعد ضربه لزيارته . وكانت دار الحكم في تلك الأيام لا تهدأ ليلا ولا نهارا ، فهي تعج بالداخلين والخارجين من الرسل وقواد الجيش ورجال الشرطة

وعمال النواحى ووفود الناس من أهل الكوفة وسائر أنحاء المنطقة وغيرها .

وكان الناس لا حديث لهم إلا عن حمدان قرمط ودار هجرته «مهيماباذ» وما انضم إليها من القرى والدساكر ، وعن ازدياد قوته يوما فيوما ، وانتشار مذهبه فى البلاد ، وتسلل أفواج المهاجرين إليه من الفلاحين والعمال والصناع وغيرهم ، وعن النظام العجيب الذى أجراه حمدان فى مملكته ، حيث لا يستأثر أحد دون أحد بأرض أو مال، فلا غنى بينهم ولا فقير . وكانوا يتساءلون عما عسى أن يقوم به المعتضد لإخضاع هذا الخارج الخطير الشأن وللقضاء على فتنته ، بين واثق بقدرته على ذلك فليس حمدان بأقوى من صاحب الزنج قبله ، ومشفق يخشى أن يعجزه ذلك لتراخيه عن النهوض لحربه من أول ماظهر حمدان على البطائح حتى استفحل أمره واستشرى خطره . بيد أنهم كانوا جميعا يتعجبون من سكوت المعتضد إلى ذلك العهد وعدم قيامه بحركة حاسمة .. وعهدهم به أنه سريع النهضة حسام للأمور . وقليل منهم من يعلم أن هذا التراخى من الخليفة صلة بحركة أبى البقاء التى تدور فى العاصمة ويؤيدها المعتضد تأييدا تاما ، وأقل من هؤلاء من يعلم هذه الحركة الإصلاحية التى اعتزم المعتضد تنفيذها فى البلاد إن هى إلا طلائع تدبيره للقضاء على حمدان .

وكانوا يعلمون أن الهيصم وطبقة الأغنياء عامة من أشد الناس تخوفا من خطر حمدان ، وأكثرهم اهتماما بأمر القضاء عليه ،فلما رأوا موكبه تلك العشية لمقابلة الوالى فى دار الحكم توقعوا حدثا هاما أن يكون .

قال كرامة بن مر للهيصم : «قد علمت ماتريد أن تكلمنى فيه . جئت لتحرضنى على القيام بمحاربة هذا الخارج القرمطى كدأبك ».

فقال الهيصم : « أجل ماجئت إلا لهذا الأمر . لابد من مناجزته الحرب وإلا فعلى الدولة العفاء . إن عندك الجنود والقواد فما تنتظرون؟»

ـ ننتظر أمرا من الخليفة بذلك .

ـ إن كان المعتضد لا يريد حرب حمدان ففيم حشد هذه العساكر الجرارة فى ناحيتنا ؟.

ـ أعدها للدفاع عن حدودنا وصد القرامطة إن هاجمونا .

ـ فالهجوم عليهم قبل أن يهاجموكم هو الرأى . فما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا .

ـ أفتريدنى أن أخالف أمر الخليفة وأعمل برأيك ؟

ـ معاذ الله ! ولكن عليك أن تعظم للمعتضد أمر حمدان ، وتبين له وجوب مناجزته .

ـ إن أمير المؤمنين ترفع إليه كل أخبار حمدان أول بأول ، وما أنت بأعلم بها منه .

ـ فما أشغله عن مناجزته الحرب وأخذه بالصرامة والحزم إلا وساوس ذاك الفقيه المتنطع أبى البقاء البغدادى . آه لو كان أبو أحمد الموفق حيا لما وقع هذا .

ـ إنما تقدحون فى أبى البقاء خيفة على أموالكم أن يخرج منها حقوق الفقراء فيها . ووالله لينفذن منهاجه فى هذه الجهة فيشفين صدور الفقراء والفلاحين منكم !

فعبس الهيصم وقال : «إن كان الخليفة يريد أن يضطهدنا ويأخذ من أموالنا ما يشاء فوق ما أوجبه الله من الزكاة فيها ، فأى فرق يبقى بين هذا النظام ونظام حمدان قرمط ؟

ـ ويلك ياهيصم ! لوكنت تحت حمدان لما استطعت أن تقيم فى قصر منيف ، لا عمل لك نهارا إلا إحصاء أموالك وريع أراضيك ، ولاليلا إلا اللهو والقصف . لو كنت هناك لألزمك أن تعمل كناسا أو حراثا ، لا تأخذ من الطعام إلا مايسد رمقك تنستمر قادرا على الحرث أو الكنس.!

انصرف الهيصم من عند الوالى مغموما لما سمع من تصميم المعتضد على تنفيذ منهاج أبى البقاء ، وانصرافه بذلك عن مناجزة القرامطة ، فأدرك ألا مناص من حلول الكارثة بأمواله ، إما من هذا السبيل أو ذاك .

وكان قد اتصل به سرا قبل ذلك بأيام إسرائيل بن إسحق ، وتكلم معه فى مشروع أبى البقاء ، ووجوب مقاومته وإحباطه ، وهو الذى أشار عليه بمقابلة الوالى للإلحاح عليه بحرب حمدان ، وأفهمه أن القضاء على حمدان هو السبيل الوحيد لحبوط مشروع أبى البقاء .

فما خرج من عند الوالى حتى دعا إسرائيل فقابله سرا فى قصره .

ـ ألم أقل لك إن المعتضد وأبا البقاء يأتمران بأرباب الأموال والأملاك فى البلاد للاستيلاء على ما يملكون باسم الدين ، فهل تسكتون على هذا ؟

ـ فماذا فى وسعنا أن نصنع ؟

ـ على أغنياء الدولة أن يتحدوا جميعا ويعملوا على إحباط هذا المشروع بكل سبيل .

ـ كيف السبيل إلى جمع كلمتهم وهم متفرقون فى البلاد ؟ فأراه إسرائيل رسائل وردت إليه من بعض أغنياء بغداد وواسط والموصل والبصرة والأهواز وعسكر مكرم مؤيدة كلها وجوب وقوفهم صفا

واحدا دون المشروع ألم قال له : «فعليك أنت أن تسعى لجمع كلمة الأغنياء فى هذه الجهة .»

ـ هذا يسير عليّ ، ولكن ماذا نصنع بعد ذلك ؟.

ـ كل صعبَ يهون إذا اتحدت كلمتكم . فى وسعكم حينئذ أن تستأجروا العربان لحمايتكم وحماية أملاككم ، وترشوا العمال والولاة فى الآفاق ليتقاعسوا عن تنفيذ النظام ويتوانوا فى تطبيقه ، حتى يشعر الخليفة باستحالة ذلك فيعدل عنه ويتخلى عن سياسة أبى البقاء . وعليكم أن ترسلوا مئات الرسائل إلى الخليفة تلحون عليه فيها بالبدار لمحاربة حمدان ، وتعرضون عليه مايشاء من الأموال لتموين الجيش وتجهيز الحملة .

٣

وما علم الهيصم ولا غيره حين استقبل هذا التاجر اليهودى فى قصره أن رسولا من إسرائيل كان يغذ السير إلى مهيماباذ ليقابل حمدان قرمط . وقد ارتدى زى فلاح ليصرف عنه العيون ، فلا يحسبه من يراه إلا أحد الفلاحين المهاجرين . فلما وصل إلى منطقة الحدود وبصر به الخفراء هناك قبضوا عليه وأخذوا يسألونه ، فقال لهم : إنه فلاح مهاجر ، فأنفذوا معه من ساقه إلى عامل الحدود .

ومثل بين يدى شاب فى نحو الثلاثين ، أبيض الوجه ، تزينه جمة فاحمة تكاد تضرب فى كتفيه ، وعيناه سوداوان واسعتان لا تطرفان إلا قليلا .

ـ من أين جئت يامهاجر ؟ .

ـ من الكوفة .

ـ ماذا جاء بك عندنا؟

ـ الفرار من الظلم .

فنظر العامل إلى وجهه مليا ثم قال لـه : «حـذار ياهذا أن تقـول إلا صدقا وإلا فلا تلومن إلا نفسك ».

فشعر الرسول برعدة تسرى فى أعضائه وقـال : «آمـا إذ قلـت لى هذا فسأصدقك ».

ـ أفلاح أنت ؟.

ـ لا ياسيدى. أنا يهودى تاجر .

ـ فما حملك على ارتداء هذا الزى ؟.

ـ خشية أن يحال بينى وبين الوصول إليكم .

ـ ألا تعلم أن مثلك من المحبين لجمع المال لا يمكـن أن يجد عندنا مـا يحب ؟.

ـ بلـى ياسـيدى ، فمـا للاسـتيطان جئـت ، وإنمـا أنـا رسـول حمـدان قرمط.

ـ أين الرسالة التى تحملها ؟.

ـ أمرت أن أشافهه بها وحده .

فحرك العامل رأسه وهو ينظر إليه تصويبا وتصعيدا ، ثـم أنفـذه مـع أحد رجاله إلى مهيماباذ.

٤

لاحت معالم مهيماباذ عاصمة حمدان من بعيد ، إذ كـانت مبنيـة علـى نشـز كبـير مـن الأرض ، وظهـرت أبنيتهـا البيضـاء تحيـط بهـا السـفوح الخضراء من كل جانب ، فكان منظرها تحت أشعة الشمس رائعا أخاذا.

وكان الرسول اليهودى وخفيره القرمطى تخب بهما بغلتـان فارهتـان فى طريق معبد يتخلل الحقول والمزارع عن يمينه وشماله ، ويتعرج بينها ،

فلا يريان إلا ما دونهما منه ، ثم يبصران طرفه الأقصى صاعدا فى السفح حتى ينتهى إلى سور المدينة.

وحين دخلها الرسول أدهشه اشتداد حركة البناء فى أحيائها ، فلا يكاد يمر بموضع إلا رأى فيه أساسا يبنى ، وجدارا يقام ، وحميرا تجىء وتذهب موقرة بالمدر والجص ، وجمالا تحمل التبن أو الخشب . وسار به القرمطى فى دروب واسعة وضيقة ، فكلما مر بعسكرى أو جلواز أومأ صاحبه له بالتحية ، حتى أفضى به إلى ميدان فسيح يقوم بجانبه قصر منيف كان للهيصم من قبل ، فاتخذه حمدان سكنه ودار حكمه ، ومن حوله قصورأخرى دونه أنشأها حمدان لخواص رجاله وحاشيته .

فاستقبله حمدان فى ديوانه بعد أن قرئ عليه كتاب عطيف النيلى عامل الحدود الذى أنفذه إليه ، وقد قام من كان عنده حينما رأوا الرسول داخلا ، كأنه كان قد أمرهم بذلك ليخلو به ، ماخلا كهلا ضئيل الجسم معروق الوجه بقى جالسا عن يمينه وهو يقلب أوراقا بين يديه .

ـ من الذى أرسلك إلينا ؟.

ـ إسرائيل بن إسحق.

ـ مرحبا بكَ .....اقعد ثم .

فجلس الرسول على البساط أمامه ، وظل هنيهة صامتا كأنه متردد أن يقول رسالته إلا لحمدان وحده .

ـ هات فقل رسالتك ، فإنما هذا عبدان ابن عمى وليس من دونه سر. فأخذ الرسول يشرح له ما أصاب تجار اليهود فى الآفاق من اضطهاد المعتضد واستيلائه على دفاترهم وأموالهم وحبسها عنده لغير جريرة ارتكبوها إلا أنهم كانوا يشجعون حركة العدل الشامل ضد

الظلم . فتبسم حمدان قليلا ، فظن الرسول أنه سيقول شيئا ، فسكت ، ولكن حمدان مالبث أن قال له : «أتمم ما عندك».

ـ قد بعثني إسرائيل لأنهي إليك ولاءنا وإخلاصنا لحركتك ، واستعدادنا لإقراضك ماتشاء من المال لتستعين به في حرب السلطان .

ـ لاحاجة بنا إلى القرض فعندنا مال كثير .

ـ لاغنى لكم عن المزيد إذا حاربتم السلطان .

ـ ولكنا لا نريد محاربة السلطان إلا إذا بدأنا بالعدوان . وحسبنا أن نؤمن حدود بلادنا ، ونطبق فيها العدل الشامل فهو وحده سلاحنا ، وسنضم البلاد إلينا بلدة فبلدة ، وقرية فقرية ، حتى تصبح الدولة كلها تحت حكمنا .

ـ فأين أنتم من حركة أبي البقاء؟ فإن المعتضد يؤيدها ليهدم بها نظامكم !

ـ تلك خطة يصعب تنفيذها ، فلن يخضع لها أغنياء بغداد ومن بينهم الرؤساء والوزراء والأمراء .

ـ بل سيخضعهم الخليفة ، فقد عزل وزراءه السابقين وأحل محلهم رجالا من أوساط الناس ممن لا يملكون ضياعا ولا مالا .

ـ فسيملك هؤلاء الضياع والمال بعد قليل .

ـ كلا ! فأبو البقاء صارم في أمره ، وله أنوف الأتباع من كل صنف يتبعون إشارته ولا يقدر حتى الخليفة على مخالفته ، فإذا لم تعجلوا أنتم بحرب السلطان نفذ أمر أبي البقاء وساد نظامه .

ـ إنا أصحاب مذهب العدل الشامل ليسرنا أن يطبق نظام أبي البقاء في البلاد ماكان فيه إنصاف للمظلومين وحد من طغيان المال. فمرحبا بمعاونة الخليفة لنا في ذلك

ـ لكن هذا سيؤدى إلى هدم نظامكم .

ـ كلا بل سيكون ذلك تمهيدا لشيوع نظامنا . إن هؤلاء المظلومين حين يذوقون قليلا من لذة العدل لن يقنعوا بالقليل ولن يهدأ لهم بال حتى يفوزوا بالعدل كله .

ـ إنى لا أجادلك فى رأيك هذا ، ولكن بغداد اليوم فى اضطراب من جراء الصراع بين أغنيائها وبين أبى البقاء ، فلا تضيعوا هذه الفرصة.

ـ لكنا نرى أن حركة أبى البقاء هذه هى التى مكنتنا من التفرغ لشئوننا وتنظيم مملكتنا على أساس المذهب ، ولولاها لانقض المعتضد علينا من البداية فما كنا إذ ذاك بأقوى من الزنج .

وانتهت المقابلة دون أن يتزعزع حمدان عن رأيه فى الكف عن محاربة السلطان ، ولكنه رضى أن يحالف إسرائيل بن إسحاق ووكلاءه فى الآفاق ، وأن يستعين دعاة القرامطة بهم ، وتعهد فى مقابل ذلك بأن يرد لتجار اليهود إذا سقطت البلاد فى يده أموالهم التى حبسها المعتضد.

وكان عبدان ساكتا مطرقا طوال الحوار الذى دار بين حمدان والرسول اليهودى ، فلما خرج الرسول من عندهما قال لابن عمه : «إن فيما قال اليهودى لكثيرا من الحق ، فلو راجعت رأيك فيه يا حمدان».

فأجابه حمدان : « ويحك يا عبدان ! أتظن هؤلاء اليهود يريدون لنا خيرا ؟ إنهم إنما يبتغون الفتنة ليغنموا من ورائها ، وهل يقوم سلطان المال إلا على أكتافهم ؟ »

ـ هذا حق، ولكنهم اليوم موتورون من السلطان ، ومن مصلحتهم أن نقضى عليه .

ـ فإنهم قد خانوا السلطان قبل أن يفعل بهم ما فعل ، وإنه ليس من مصلحتهم أن يبطل سلطان المال وهو معبودهم ، فإنما أرادوا أن يضرب بعضنا بعضا وهم ينظرون ويغنمون . إنهم لا يعيشون إلا حيث يعيش الهيصم وابن الحطيم وأمثالهما .

ـ ولكن أبا البقاء سيقضى علينا يا حمدان .

ـ أبحد السيف يا عبدان ؟

ـ لا بل بذاك النظام الذى يدعو إليه .

ـ فما أنصفنا الرجل إذن أن دعانا إلى قراع النظام بالنظام فشهرنا عليه السيف . وا لله لا أفعل هذا ما حييت .

٥

أدرك إسرائيل بن إسحاق لما رجع رسوله إليه ألا مطمع فى حمل حمدان على إعلان الحرب ، فاغتم لذلك ، وضاعف اغتمامه ما بلغه من مقاومة الأغنياء في بغداد لمشروع أبى البقاء أنها توشك أن تنهار . فولى وجهه لتحقيق ما يصبو إليه من دفع حمدان إلى حرب السلطان ، مهيماباذ، شطر سلمية.

وكانت مهيماباذ تدين لسلمية بالخضوع والولاء وتنظر إليها نظر التابع للمتبوع لأنها مركز الدعوة ، وكعبة المذهب ومثابة الإمام المعصوم الذى ينوب عنه ويدير شئون الدعوة باسمه نائبه من آل عبد ا لله بن ميمون القداح ، وهو وحده الذى يعرف مقر الإمام ، ويتلّقى عنه أوامره وإرشاداته فيبلغها إلى أتباعه فى الآفاق .

وكان على حمدان أن يرسل جزية سنوية إلى سلمية باسم الإمام المعصوم يتضاعف مقدارها كلما كثر المال عنده . وكان عبدان يتولى بنفسه تنظيم الصلات بين مهيماباذ وسلمية . بيد أنه لما كثرت أعماله

فى تشريع القوانين والأحكام للمملكة الجديدة والإشراف على تعليم أصول المذهب لسكانها ، ولا سيما حين تكاثر عددهم بتدفق سيل المهاجرين إليها ، أسند المنصب إلى تلميذه الأثير عنده ذكرويه، الذى كان عاملا لحمدان على المنطقة الغربية على حدود صحراء الشام .

وكان الحسين بن أحمد القداحى نائب الإمام المعصوم قد منى نفسه ، لما رأى نجاح حمدان ، بالمجىء إلى مهيماباذ ليحل محله ، وما أخره عن عزمه هذا إلا خوفه أن يظهر المعتضد عليها ، فآثر أن يتريث حتى يرى ما تسفر الأحداث عنه .

وقد بلغه عن حمدان أن عقيدته فى الإمام المعصوم غير خالصة ، وأنه لا يعبأ بالمذهب إلا قليلا ، وكل همه مقصور على تطبيق نظام العدل الشامل فى بلاده ، وأنه يستثقل الجزية التى يرسلها للإمام ، ولولا عبدان وسلطانه عليه لقطع إرسالها واستقل بمهيماباذ عن كل ما يربطها بسلمية. فلما جاءته رسائل إسرائيل بن إسحق لم تزد قلبه على حمدان ورسله وغرا، ولكنها قطعت تردده فى وجوب البدء فى العمل .

وكان ذكرويه على حبه لعبدان وتعلقه به طموح النفس واسع المطامع . وقد عرف ذلك فيه النائب القداحى ، إذ كان قد قدم عليه مرارا فى أمور تتعلق بالسفارة بين مهيماباذ وسلمية ، فاتصل الحسين به سرا وأفضى إليه بسوء رأيه فى حمدان وأغراه بالعمل معه ، ووعده بأن يجعله حاكما لمهيماباذ بعد حمدان ! وتردد ذكرويه فى أول الأمر لمكان عبدان فى نفسه ، ولكن القداحى ما زال به يغريه ويؤكد له ثقة الإمام المعصوم به حتى رضى ، فصار من ذلك الحين عينا على حمدان لسلمية .

٦

جىء إلى عطيف النيلى عامل الحدود فى غد ذلك اليوم الذى أنفذ فيه الرسول اليهودى إلى حمدان برجل مهاجر ، ومعه زوجته وابنته ، فلما مثلوا بين يديه راعه جمال المرأة وهى فى أسمالها البالية ، فافتتن بها حتى شغله الرنو إليها عن الأخذ فى سؤالهم كعادته إلا بعد لأى .

ثم سأل الرجل سؤالا تلو سؤال ، دون أن يهتم بالإصغاء إلى جوابه حتى يتمه ، وهو فى كل ذلك موكل النظرة بالزوجة الحسناء يعجمها علوا وسفلا ، وهى تتقى نظرته بضم ثيابها ورفع جيب قميصها إلى أعلى لستر ما ظهر من بياض نحرها اللامع ، وبالدنو من زوجها للاستتار به .

وكلما رفعت بصرها عن الأرض وجدت العينين السوداوين ترنوان إليها تحت الجمة الفاحمة ، فتعود إلى الإغضاء .

وقد بدأت الريبة تدب فى قلب الرجل وابنته الجارية من سلوك العامل نحو الأم الحسناء . وهمت الأم أن تثور ، لولا أن العامل ما لبث أن بش للرجل وقال : « أهلا بك وبمن معك . أنتم اليوم ضيفى ، وغدا سأنزلكم الجهة التى تختارونها من بلادنا » وقام من مجلس فخرج بهم من ديوانه وأنزلهم داخل داره .

وما راعهم عشية ذلك اليوم إلا أن جاء العامل إلى حجرتهم فى الدار ، وقد اغتسل وتطيب ، فجلس قريبا من المرأة وأخذ يغازلها أمام زوجها ويقول لها : «والله وسر الإمام المعصوم ما فى مهيماباذ غادة أجمل منك ».

فثارت المرأة وقالت له : « إليك عنى! ماذا تريد ياوقح ؟»

فقال لها متلطفا : « ألا تعرفين ما أريد ؟ أن أضع صدرى على صدرك !»

وقد بهت الرجل فلم يدر مايصنع ، وما كاد يصدق ما ترى عيناه لفرط دهشته . أما الفتاة فقد ذهبت تحامى عن أمها وتذود يد العامل

عنها كلما مدها إلى ناحية من جسمها فيقول لها : « ما شأنك أنت يا فتاتى ؟ اذهبى إلى الحجرة الثانية إن شئت » فتزجره وتنهره وتقول له « لو يعلم خالى ما تفعل لقطع رأسك ؟ »

فيتضاحك عطيف ويقول : « أين خالك يا جارية ، لم تركتموه فى دار الظلم؟»

ـ إنه فى مهيماباذ .

ـ فى مهيماباذ : إذن لا خوف على منه . إننا هنا لا نقطع رءوس الناس لمثل هذا ، فمن هو خالك ياجارية لعلى أعرفه ؟

فحاولت الأم أن تمنعها من الكلام ، ولكن الفتاة مالت عنها وصاحت بأعلى صوتها : « إنه حمدان !»

ـ حمدان من ؟

وهب الرجل عند ذاك ، كأنما أفاق من غشية لحقته ، ودنا من العامل فقال له وهو يرتعد من الغضب : « حمدان قرمط سيدك أما تعرفه ؟»

فانفجر عطيف ضاحكا ثم قال : « ماذا تقول يا هذا أجننت ؟ »

ـ بل أنت المجنون ، وغدا وا لله ليطيرن حمدان جنونك !

ـ قد أحتمل من هذه الحسناء ، ولكنى لا أحتمل منك ، فاملك غضبك .

ـ كيف وأنت تغازل زوجتى أمامى ؟ !

ـ أيسرك أن أغازلها من ورائك ؟ فسأفعل إذن ما تحب .

ـ كلا لا تغازلها ألبتة .

ـ فهل أغازلك أنت ؟ أم أغازل هذه الفتاة ؟ . إنها وا لله لتسر العين والقلب ولكنها بعد بحاجة إلى ربيع واحد ينضجها ، هلمى يا فتاتى أرينى ما هذا .

قال هذا وهو يمد يده نحو صدر الفتاة ، فردتها بشدة وصاحت : « أين أنت يا خالى حمدان لترى ما يفعل بأهلك ؟ » وانفجرت باكية



فجذبتها أمها وجمعتها إلى صدرها تواسيها وتتقى بها شر هـذا الفاسق المغير ، وهى تقول : « هونى عليك يا مهجورة . غدا يرى هـذا الفاسق كيف يؤدبه خالك حمدان . كل هذا منك يا عيسى ! قد قلت لك إن هؤلاء القوم لا خلاق لهم ولا دين. »

فأجابها زوجها : « محال أن يرضى بهذا حمدان أخوك ! »

فقال عطيف وقد كفكف قليلا من عبثه ومجونه : « عجبا لكم أتريدون أن توهمونى بأن الرئيس حمدان قريبكم حقا ؟ » فقالت وردة : « بل هو قريبنا حقا وصدقا ، هو أخى وأنا أخته ».

ـ إن كنت تعنين أنك أخته فى المذهب فلك ذاك ، فنحن هنا جميعا إخوة وأخوات .

ـ بل أنا أخته لأبيه وأمه .

ـ فإنا لا نعرف له أختا كذلك إلا راجية ، رئيسة المشهد الأعظم

فما سمعت وردة اسم أختها حتى هزتها الذكرى ، وغلبها الشوق إلى أخبارها ، فأنساها أنها بين يدى رجل يريد أن يعبث بشرفها ، فانبرت تسأله كما لو لم يكن أغضبها منذ قليل : « وما المشهد الأعظم يا سيدى ؟ »

ـ بل أنت سيدتى يا حسناء وأنا عبدك وخادمك !

فعاد العبوس إلى وجهها ، ولكنها تجاهلت مجونه وقالت له : « بـا لله عليك قل لى ماهو ؟ » فقال لها : لو شهدته ليلة فلن تنسيه أبدا . هو ليلة الإمام ، وسر المذهب ، ونموذج الجنة التى وعد الإمام بها المستجيبين يتذوقون بعض نعيمها فى هذه الحياة الدنيا . آه لو شهدته فكنت من نصيبى !»

لم تفهم وردة حقيقة معنى المشهد الأعظم مما قال . وكانت تود أن تسأله شيئا عن أختها بعد ، ولكنها لما رأت المرض فى عينيه عادها غضبها فعاذت بالصمت ، وكانت ابنتها لا تزال لائذة بصدرها وإن

كف عنها الدمع ، وظل زوجها واقفا دونها كأنه يحرسهما . وساد الصمت لحظة كأنها هدينة فى معركة لا يدرى أحد من الثلاثة ماذا يكون مصيرها . وما تنفسوا الصعداء إلا حين رأوا هذا الفاسق المغير قد قام لينصرف وهو يعتذر إليهم مما أزعجهم ، ويطيب خاطرهم ، ويؤكد لهم أنهم عنده بأمان لن يروا منه إلا ما يحبونه . فلما سمع الزوج منه ذلك استوقفه قائلا : « هل لك يا سيدى أن تخبرنا متى توصلنا إلى حمدان » ؟ فتغير وجه عطيف بغتة وغشيته كآبة ثم تجلد وقال : « إنه رئيسنا الأعلى، وأنا عامل الحدود ، ليس لى أن أدع أحدا يتوجه إليه إلا بعد أن يأذن لى فيه ».

ـ إنه سيعرف أخته حين يراها .

ـ ولكنى لا أستطيع أن أخالف أمره ، فابقوا هنا عندى حتى أكتب إليه بأمركم .

ـ قل له إذن إن أخته وردة . . . . .

ـ كلا . لا تقل له وردة قل له عالية . .

ـ ما تقولين يا وردة ؟ أتريدين أن لا يعرفك أخوك ؟ قل له يا سيدى وردة .

ـ كلا يا عيسى إنى عالية . هذا اسمى الأول ولا يعرف حمدان سواه .

فوقف عيسى حائرا متعجبا ، وفغرت مهجورة فاها من الدهش ، وتطلق وجه عطيف قليلا قليلا حتى استنار ، ورنقت فى عينيه تلك النظرة المريضة ، ووقف لحظة يديرهما فى وجوه الثلاثة إلى أن استقرتا فى وجه تلك الفاتنة التى اسمها وردة أو عالية ، ثم قال بلهجة المنتصر النشوان : « فهل أكتب إليه وردة أو عالية ؟»

فقالت عالية وهى تغض بصرها اتقاء من عينيه وقد كست الحيرة وجهها سترا رقيقا من الشجن : « اكتب إليه عالية » .

٧

ما كان عامل الحدود حين وعد عالية وزوجها بالكتابة إلى حمدان في شأنها ينوى الوفاء بما وعد . فقد أيقن ساعتئذ من اختلافها مع زوجها فى اختيار الاسم أنها غير صادقة فيما تدعيه ، وكان قد استبعد صحة هذه الدعوى العظيمة من أول ما طرقت سمعه ، وحسب أنهم اخترعوها حيلة للتخلص من قبضته ، وظل يعتبرها كذلك حتى ساعة هم بالانصراف قاصدا أن يطمئنهم ويزيل ما فى قلوبهم من الغم والكدر ليعود فى وقت آخر فيعالج المرأة حتى تلين . بيد أنه لما رأى إصرارهم العجيب على اعتبار هذه الدعوى حقيقة واقعة عند غضبهم وعند رضاهم خامره شك رهيب ظل يعانى شدة وطأته ، وهو يتماسك ويتجلد خشية أن يبدو لهم منه الجزع ، وما فرج عليه كربته إلا اختلاف الزوج والزوجة فى اختيار الاسم .

فحبسهم فى داره أياما قدم لهم فيها كل ما يشتهون من طعام وشراب وكسوة فقضوها فرحين مستبشرين ، يترقبون فى كل لحظة أن يرد كتاب حمدان بإنفاذهم إلى مهيماباذ ، وقد أنساهم هذا الحال حقدهم على عامل الحدود لسوء معاملته لهم فى يومهم الأول ، فعقدوا على ألا يخبروا حمدان بما كان منه فى حقهم ، وأعلنوا له عزمهم هذا ليطمئن فأظهر لهم الشكر والامتنان . ولكن بقى فى نفس عالية شىء منه ، إذ ترى فى عينيه كلما جاء ليحييهم ويطمئن عليهم ذلك المرض الذى يملأ قلبها ريبة وشكا ، وكانوا يسألونه كل يوم عن الرد المنتظر من حمدان فكان يقول لهم : « اصبروا قليلا فإنه سيجىء »

إلى أن جاءهم يوما فتلا عليهم رسالة زعم أنها جواب حمدان على

كتابة ينكر فيها أن له أختا أخرى غير راجية ، ويتوعد عامل الحدود فيها لئن عاد عاد إلى ذكر هذه الفرية أو مثلها فلا يلومن إلا نفسه ، فخشى على عالية من هول الصدمة . وذهل عيسى ومهجورة وأصابهما هم ثقيل ، فلما أفاقت عالية جعلت تسب حمدان وتلعنه ، وتقول وهى تبكى: « والله إنى لأخته لأبيه وأمه ، أبى وأبوه الأشعث قرمط ، وأمي وأمه أمينة الناصرية . ولكنه قد تبرأ من الله الذى خلقه، فلا غرو أن يتبرأ من أخته المنكوبة ! يشهد الله أنى ما ارتكبت سوءا فى حياتى ، ولكنه قدر مقدور على . حسبى الله منك يا حمدان ! حسبى الله منك يا حمدان »

ثم تنظر إلى الثلاثة وتقول : « أتشكون أنتم أيضا فى صدق قولى؟»

فيسكت زوجها وتنتحب ابنتها انتحابا، ويدنو منها عطيف فيقول لها مواسيا : « أما أنا فإني أصدقك ، ولكن حمدان رئيسنا الأعلى ولا نستطيع أن نراجع له قولا» ثم يقول لها : « لا تبتئسى فسأنزلكم داراً حسنة ، وأختار لك ولزوجك ولفتاتك عملا هينا لا مشقة فيه ، وأجرى لكم رزقا موفورا ».

ـ بل دعنا نرجع إلى بلادنا نحفظ لك هذا الصنيع .

ـ لا سبيل إلى ذلك يا عالية ، فمن يدخل بلادنا لا يخرج منها .

ـ لماذا ؟

ـ لأنها في مذهبنا كالجنة ، من دخلها لا يخرج منها أبدا إلا بإذن الإمام المعصوم .

ـ لعنة الله على مذهبكم وإمامكم !

فظهر على عطيف الرعب وقال لها : « بالله لا يسمعن هذا منك

أحد فإن جزاءه عندنا القتل ».

- دعهم يقتلوني فإني لا أخشى إلا الله .

• - إنهم لن يقتلوك وحدك ، بل سيقتلوننا جميعا معك بل سيقتلوننا جميعا معك إذ لم نبلغ عنك . . فبالله يا عالية لا تفعلي .

وما زال بها حتى هدأت ، ثم جعل يوصيهم ألا يقولوا لأحد إنهم قرابة حمدان بعد أن تبرأ منهم ، وإلا عوقبوا وعوقب هو معهم بالقتل ، وما تركهم حتى عاهدوه على ذلك .

٨

اطمأنت عالية وزوجها وابنتها لما تركوا دار عامل الحدود ، وسكنوا بيتا صغيرا أعده لهم في الحلة الشرقية من ظاهر البلدة ، وأجرى لهم رزقا كثيرا وكسوة حسنة وكلفهم أعمالا هينة . فعالية ومهجورة تحلبان اللبن في حظيرة للحلائب على مقربة من بيتهم ، ثم توزعانه على أهل تلك الحلة بقسط معلوم ، فهذا كل عملهما . أما عيسى ففي مصنع للخوص في البلدة يعمل فيه عدد من الخواصين وقد خصه مدير المصنع برعاية يغبطه عليها زملاؤه ، ويتعجبون من سرعة تقدمه في الحظوة عنده ، فقد يجيء متأخرا عن موعد العمل فلا يلومه المدير ، وقد يتباطأ في عمله أو يتكاسل فلا يحاسبه كما يفعل مع الآخرين الذين يتقون غضبه ويخافون صارم عقابه وإنهم ليحسدون عيسى على تلك الحظوة إلا أن حسدهم له لم يبلغ مبلغ الحقد عليه أو الضغينة لما كان يتصف به عيسى من لين العريكة ، وحسن العشرة ، وحب الخير ، فكان يحسن إلى زملائه بما يفضل عن حاجته من النفقة، كلما رأى أحدهم يشكو من قلة ما يأخذ من الأجر والنفقة وعدم كفايتها لنفسه وعياله . فكانوا يحبونه على حسدهم له .

وذات يوم وجدوه مغموماً على غير عادته لاأرب له فى عمل أو حديث ، فأخذوا يسألونه عن حاله لعلهم يقدرون على مواساته بما يكشف همه . فكان يقول لهم ، مابه إلا قليل من الفتور يشعر به فى جسمه . وما أفضى بذات صدره إلا لاثنين منهم اصطفاهما صديقين يثق بهما ويثقان به ، فكشف لهما ـــ وقد اختلى بهما فى بيت أحدهما ـ مايلقاه من تعرض عامل الحدود لزوجته .

قال له أحدهما:«هل أكرهها على شئ لاتحبه؟»

فقال عيسى :«لا، ولكنه يغازلها ويأخذ عليها المسالك ، فطورا يستدعيها إلى داره ، وطورا يزورها ببيتنا فى غيابى ، وهى تشكو إلى من مضايقته فلا أدرى مانصنع »

ـ مادام لا يكرهها على مالا تحب فلا سبيل لك عليه . إنك حديث العهد فى مملكة العدل الشامل ياابن ميمون ، وغدا تألف نظامنا فيزول عنك الحرج .

ـ كلا لا أصبر على هذا .

ـــ إن عطيفا يؤثرك وأهلك بالرعاية وكثرة الأجر والنفقة ، فأعرض عنه ولاتفسده على نفسك .

ـ ويلك يا حارث ! كيف يسعنى أن أرى المنكر فى بيتى فأسكت ؟

ـ هبك لا ترى شيئا ولا تسمع ، وحسبك أن زوجتك لاترضى ، ففى ذلك عصمة لها من شهوةِ العامل .

ـ لكنى أخشى عليها منه إذا ظل يراودها يوما بعد يوم .

فسكتوا قليلا ثم قال الصديق الآخر: « هذا مامنعنى من الزواج هنا ياابن ميمون!»

ـ كيف تستقيم الأحوال على هذا المنكر ؟

ـ ماهذا عندهم بمنكر .

ـ لاحرج على أحد هنا أن يستمتع بأى امرأة شاءها مارضيت له ، وإنما يعاقب إذا أكرهها على ما لا تريد . هذا مذهبهم .

فقال الحارث مبتسما : » أليس هو مذهبك أيضا ؟ آه ياعقبة لوسمعك أحد غيرنا»

فاربد وجه عقبة قليلا ثم سرى عنه وقال : « أنتما ثقتى فلاخوف على » .

قال عيسى : « أفإن راودت امرأة العامل فأغويتها لايكون له على سبيل » ؟

فأجاب الحارث : « لاسبيل له عليك فى المذهب »

فاستدرك عقبة قائلا : « ولكن من يحميه من سطو العامل ؟ إنه يقدر أن يغتالك يا عيسى دون أن يسأل عنك أحدا »

ـ كيف ؟ ألا يعاقب على فعلته ؟

ـ أنى لك أن تثبتَ عليه جريمته ؟ ثم فى يده أن يعزو إليك تهمة قاصمة.

ـ ما التهمة القاصمة ؟

ـ خيانة المذهب، أو التجسس للعدو ، أو السعى لاغتيال أحد الزعماء أو.....

ـ أو ماذا؟

ـ سب حمدان أو عبدان .

٩

قدم ذكرويه على حمدان بمهيماباذ فسلمه كتابا خاصا بعثه الحسين ابن القداح من سلمية ، ينكر فيه على حمدان تباطؤه عن محاربة المعتضد حتى تخلص المعتضد من الشغب الذى أثاره أغنياء بغداد عليه، ويأمره بأن ينهض فى الحال لمحاربته ليقضى على حركة أبى البقاء وإلا أوشكت أن تقضى على المذهب .

بان الغضب فى وجه حمدان لما قرأ عبدان الكتاب عليه ، فظل هنيهة صامتا يقلب عينيه الحمراوين تارة فى عبدان ، وتارة فى ذكرويه حتى قال ذكرويه : « بنفسى أنت ياسيدى الرئيس لوددت لو لم أكن حملت الكتاب إليك!»

فنظر حمدان مليا إليه ثم قال : « واجب قمت به فلا عليك »

ثم التفت إلى عبدان قائلا : « أردت أن تحملنى على الخضوع لرأيك فكاتبت الحسين بن أحمد فى هذا المعنى ! »

ـ لا والله يا ابن عمى، ما كاتبته فى هذا الأمر ولا فى غيره إلا بعلمك.

ـ أإياى تخادع يا عبدان ؟

ـ أحلف لك برب العزة يا ابن عمى مافعلت .

ـ ماأشقانى بأهلى!

ـ ألا تصدقنى وقد حلفت لك؟

ـ هل بقيت للأيمان عندنا حرمة بعد ما اتبعنا مذهبكم هذا ؟

ـ ويحك ياحمدان ، كيف تقول هذا ؟ أليس هو مذهبنا جميعا ؟

ـ كلا إن مذهبى هوإجراء العدل ، ولا أرب لى فيما وراء ذلك من إلحاد فى الدين .

فطفق عبدان يعاتبه عتابا لطيفا ويقول له : « لا ينبغى لمثلك وأنت قائد الدعوة ومختارها أن تشك فى مذهب الإمام المعصوم.»

- إنك ياعبدان لتعرف شكى فى وجود هذا الإمام المعصوم . ولكن دعنا من ذلك الآن وقل لى هل ترضى أن يتداخل هؤلاء القداحيون فى شئوننا !؟.

- إنهم جماعتنا وأولياؤناوحفظة سر الإمام ، فلا غضاضة علينا أن نقبل مشورتهم ونصائحهم .

- لكننا لا نرضى أن نقبل أوامرهم ، ونحن أعلم بما ينبغى أن نتخذه من التدبير والسياسة فى بلادنا . حسبهم منا رسوم الإمام نأخذها لهم من كد العامل والفلاح فى هذه البلاد ليكنزوها عندهم!

- إنهم ينفقونها فى سبيل الدعوة ياحمدان ، وما كنا لننجح فى أمرنا لولا معونتهم لنا وتوجههم من قبل ، ثم إنهم ما أشاروا عليك اليوم إلا بما هو الرأى .

- هو الرأى عندك لاعندى !

- فلنطع إذن أمر الإمام .

- كلا لا أطيع أمر الإمام ولاغيره . إنى رئيس هذه الدولة ، وعلى أن أعمل لمصلحتها ، وليس لى أن أخضع لزيد أو عمرو .

- فيم نجيب كتاب نائب الإمام ؟

- اكتب إليه بأننا أعرف بمصلحة بلادنا منهم .

- فسيظنون أننا خارجون عليهم وعلى طاعة الإمام .

- فاكتب إليهم ماشئت ، على أن تفهمهم أننا لن نحارب المعتضد حتى يحاربنا وأننا تاركوه ماتركنا .

ونهض حمدان من مجلسه مغضبا ، ثم خرج وترك عبدان وذكرويه واجمين .

- ماذا ترى يا ذكرويه ؟

- لا بأس يا فقيه الدعوة ، ما أرى الرئيس اليوم إلا لقس النفس ، فلنكتم ما سمعنا منه ولنهبه ما قال شيئا .

ـ صدقت .

ـ ولن تعدم معه حيلة ترده إلى السبيل !

فأختلجت شفتا عبدان بابتسامة فاترة وقال : «أجل ، ليس هذا الأمر إلا شهر»!

١٠

خرج حمدان إلى الصيد ـ وكان هذا دأبه كلما اكتأب أو غضب ـ فتسلل عبدان إلى حيث تقيم شهر مع حمدان فى الجناح الأيمن من القصر الكبير .

ـ ماذا جاء بك يا عبدان فى هذه الساعة ؟

ـ هل لى غنى عنك يا شهر ؟

ـ بل لديك هم تخفيه .

ـ ما أذكاك !

وقص عليها عبدان ما كان من كتاب نائب الإمام وغضب حمدان من جرائه على عبدان ، لاتهامه إياه بأنه هو الذى كاتب الحسين بن أحمد فى هذا المعنى ، ثم قال لها : « ليس لهذا الأمر إلا أنت يابرد الفؤاد ! » .

فقالت شهر وقد كسا محياها عبوس محبب : « لا سبيل إلى تحويله عن رأيه فى حرب السلطان ، فأرح نفسك يا عبدان من محاولة هذا الأمر » .

ـ حاولى ذلك معه مرة أخرى .

ـ لقد حاولت كثيرا حتى خشيت أن أفقد سلطانى عليه .

أفيرضيك ذلك يا عبدان ؟

ـ معاذ الله ، أنت نبراس الدعوة لا غنى لمهيماباذ عنك .

وسكت عبدان قليلا ثم قال : « وغضبه على ؟ »

فتبسمت وقالت : « أما هذا فلك على ألا ينام الليلة حتى أمسحه عنه»

ـ شكرا لك يا شهر ، والله لا أدرى كيف كنت أصنع لولا وجودك.

ـ فهل لك من حاجة أخرى ؟

فتنهد عبدان وقال : « حاجة القلب يا شهر ! »

فكسرت عينيها تقول مترنمة :

وذى حاجة قلنا لا تبح بها   فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه   وأنت لأخرى صاحب وخليل

ـ ما نحن وذاك ؟ تلك ليلى الأخيلية قد عاشت فى الجاهلية قبل أن يشرق نور الإمام المعصوم ، ولو عاشت بيننا اليوم ما قالته .

ـ هذا حق ، ولكن ابن عمك يغار على منك .

ـ ولا يغار عليك من غيرى ؟

ـ ما حيلتى فى ابن عمك ؟ هكذا هو !

ـ مذبذب فى المذهب !

ـ فما تقول فى راجية ، تلك المخلصة للمذهب ، رئيسة المشهد الأعظم ؟

ـ مابالها ؟

ـ تغار عليك منى ! لها الحق . إنها تحبك !

ـ قبحها الله ! إنى لأكرهها وتكره عينى رؤيتها ولولا . . .

ـ لكنها زوجتك .

ـ نعم ، يا للدهر الهازل ! من ذا يصدق أن عبدان يتزوج فى مهيماباذ !

ـ فقد تزوجتها و كفى .

ـ ما تزوجتها إلا نزولا على رغبة حمدان . هل كان لى أن أرفض الزواج وقد عرضه على ؟

ـ فاكتف إذن بزوجتك فإنها تحبك وتغار عليك.

ـ قولى لها تكتف بى هى !

ـ لا عتب عليها . رأتك كبير العقل ، واسع الصدر ، قداقتلع المذهب من قلبك كل عادة ووهم ، فأطلقت لنفسها العنان !

ـ فعلام إذن تغار على ؟

ـ اعذرها يا عبدان . إن رئيسة المشهد الأعظم قد تغلغل سر المذهب فى جسدها ، ولكنه لما يتغلغل فى روحها مثلى ومثلك .

ـ ليت شعرى متى يصبح حب الرجال للنساء وحب النساء للرجال كحبهم للطعام والشراب ؟

ـ هذا يحتاج إلى زمن طويل .

ـ لله وللإمام المعصوم ما لقيت من نصب فى هذا السبيل . ما أعمق جذور الوهم فى النفوس !

ـ هى فى قلوب النساء أعمق يا عبدان . فنصبى أعظم من نصبك . إنك لا تدرى أى جهد أبذله لإقناع امرأة ذات زوج أو صاحب تحبه بألا بأس عليها فى معاشرة غيره . فإن هى فعلت أرقها الشعور بالإثم وصعب إقناعها بالتخفف من هذا الوهم . أما الرجال فإقناعهم أيسر فيما أعلم .

ـ أجل يا شهر ، يسهل إقناع رجل بألا بأس عليه فى معاشرة غير زوجته أو أثيرته ، فهو ميال إلى ذلك بطبعه ، ولكن العقبة أن يقتنع بأن لزوجته أو أثيرته مثل هذا الحق ، فلا تستهينى بنصبى .

ـ أنت تلميذ الكرمانى ، لا عظيم عليك . لقد كان ـ أحسن الإمام إليه ـ يعرف كيف يدعو وكيف يختار .

ـ أتذكرين أيامنا ببغداد ؟

ـ ما كان أحلاها ؟

ـ فهلا نعيدها

ـ هيهات يا عبدان . الماضى لا يعود .

ـ فى وسعك أن تجودى على بنفحة منها ولو ليلة واحدة فى العام .

ـ أليلة الإمام تعنى ؟

ـ آه لا تذكرينى بليلة الإمام . لقد كان لى منك حظ فيها حتى جاءت فاختة المشؤومة فأفسدته علينا .

يشير عبدان بهذا إلى ليلة من ليالى المشهد الأعظم عندهم ، حيث يجتمع الرجال والنساء فى ليلة مخصوصة من العام ، فيشربون ويطربون ، ثم تطفأ عليهم المصابيح فيقع كل على من يليه فى ذلك الظلام الدامس . فاتفق أن حمدان وقع على ابنته فاختة فلما وقعت يدها على لحيته لم تملك أن قالت : « يا سوء حظى . وقع من نصيبى الليلة شيخ كبير » فعرف حمدان صوتها ، فجرها وخرج بها من المشهد، وغضب غضبا شديدا وعزم على إبطال المشهد الأعظم ومنعه ألبته لولا أن شهراً اعترضته ، وما زالت به حتى عدل عن عزمه . ولكنه حرم على ابنته أن تشهده ، فشق ذلك عليها فتشفعت شهر هذه عنده ، فما قبل شفاعتها حتى أخذ على شهر عهدا أن تلزمه حتى فى المشهد الأعظم .

١١

كان حمدان قد أوى إلى فراشه ليلة ، إذ قرع باب غرفته قرعا شديدا، فصحا من نومه وقال : « من هناك ؟ »

فأجابه صوت كصوت المرأة : « أنا جلندى » !

فنهض حمدان من فراشه وارتدى جلبابه وخرج من الغرفة بلطف لئلا يوقظ شهرا النائمة .

وجلندى الرازى من كبار أصحاب حمدان ، لا يثق حمدان بأحد ما يثق به . وهو يتصل به رأسا ، ولا يغلق بابه دونه بليل أو نهار . وفى يده مفاتيح القصر كلها ، ويدخل عليه كلما شاء ، وحيثما كان حمدان ، بدون انتظار أو استئذان .

وهو كهل مديد القامة ، عريض الأكتاف ، أزرق العينين ، رقيق ملامح الوجه ، يتردد شعر رأسه الناعم بين الصفرة والحمرة ،وليس فى وجهه أثر للشعر . وهو طويل الصمت لا يتكلم إلا قليلا .

وقد اختاره حمدان للشرطة السرية ، فله رجال منبثون فى كل مكان، لا يعرف بعضهم بعضا ، ويقومون بأعمال مختلفة ، فمنهم كتبة فى الدواوين ، وأكرة فى المزارع ، وعمال فى المصانع ، وسجانون وبناءون وكناسون وغيرهم . وله عيون من النساء أيضا من طبقات شتى ، وله على كل هؤلاء سيطرة عظيمة ، ونظام دقيق ، وقد اختار كلا منهم بعد اختبار وثقة .

قال له حمدان ، وقد دخلا غرفة أخرى خالية ، فأغلقا عليهما بابها: « ما وراءك يا جلندى » ؟

فقال جلندى : « نبأ عظيم » ثم حكى لحمدان فى جمل مختصرة بينه كيف نمى إليه أن عطيفا النيلى عامل الحدود قد ترك امرأة

مهاجرة سبت حمدان ولعنت المذهب دون أن يعاقبها ، لأنه استلطفها ، بل أجرى لها ولزوجها وابنتها نفقة كبيرة وخصهم باللطف والرعاية ، ثم أغرى زوجها بالخمر والنساء حتى ضعفت عزيمته فأمره فطلقها ليخلو له وجه الزوجة ، ثم اختفى الزوج فلم يعثر له على أثر .

فأمره حمدان بالقبض على عطيف وإنفاذه إليه بأسرع ما يمكنه ، وبإنفاذ المرأة وابنتها وزوجها إن وجدوه . وسرعان ما انطلق جلندى من عنده ، فعاد حمدان إلى غرفته وهو يقول لنفسه : « كأنى بكبار أصحابى وقد تخلصت منهم واحدا فواحدا » ثم استلقى على فراشه فنام.

وما كادت الشمس تزول من الغد حتى أدخل عطيف على حمدان فى مجلسه بالديوان ، وعنده عبدان وعكرمة البابلى وإسحق السوازنى وغيرهم من وجوه القرامطة ، فأمر حمدان بإطلاق يديه من القيد ، فوقف أمامه يرتعد من الخوف .

فقال له حمدان : « يعز على أن أفقدك ، فدافع عن نفسك » .

وكان عطيف قد علم ما سيق من أجله لما رأى عالية وابنتها قدسيقتا معه ، ولكنه ظل برهة يتجاهل التهمة حتى صرح له حمدان بها فجعل يدافع عن نفسه ، ويقول إنه ما منعه من التبليغ عن تهمتها القاصمة إلا أن بعقلها مسا.

فاعترضه حمدان قائلا : « بل بعينها سحر يا لكع ! »

فقال عطيف : « والله وسر الإمام ما نلتها بشىء » .

- أفاختصصتها بالرعاية والنفقة الطيبة جزاء لها على ما قالت فى وفى المذهب؟

ـ بل أردت أن أتألفها بذلك لتؤمن بالمذهب .

ـ أفلذلك أفسدت عليها زوجها حتى طلقها ؟

ـ إنى ما أكرهته على شىء ، ولكنه وجد فضلا من النفقة عند أهله فأولع بالسكر والنساء حتى كرهت زوجته صحبته ، فأشرت عليه بتطليقها رحمة بها ففعل .

ـ فأين هو الآن ؟

ـ ما علمت عنه شيئا ، إلا أن بعض رجالى حدثونى عن رجل وجدوه ميتا فى بعض طريق الحلة الشرقية ليلا فدفنوه .

فسكت حمدان هنيهة ثم التفت إلى عبدان كأنه يسأله عن رأيه . فتنحنح عبدان وقال : «إن استطاع عطيف أن يأتى ببرهان على اختلال عقلها حين لعنت المذهب وسبت قائد الدعوة برئت ساحته ! »

فنظر حمدان إلى عطيف قائلا : « فما برهانك على ذلك ؟ »

ـ كلمة كبيرة قالتها لا يمكن أن يقولها من عنده مسكة من العقل .

ـ ماذا قالت ؟

ـ لا ينبغى أن تقال فى مقامك .

ـ ويلك قلها .

ـ قالت إنها أختك .

ـ أختى أنا ؟

ـ نعم . ما كانت لتقول هذا لولا أنها ممسوسة العقل .

فاربد وجه حمدان وظل هنيهة صامتا ، وعجب الحضور فطفقوا ينظر بعضهم إلى بعض . قال عطيف : « قد قلت إنها كلمة كبيرة ولولا أمر الرئيس لما حكيتها » .

فلم يجبه حمدان على كلمته هذه وإنما قال له فـى تـردد واحـتراس كأنما لا يريد أن يلقى هذا السؤال : « ما اسم هذه المرأة ؟ »

ـ كانت تدعى وردة . . . ثم . . . .

ـ وردة ؟

ـ نعم .

ـ لماذا لم تخبرنى بذلك من قبل ؟ .

ـ ما سألتنى عن اسمها إلا الساعة .

ـ فاسمها إذن وردة ؟ .

ـ نعم ولكنها ادعت بعد ذلك . . .

ـ ادعت ماذا ويلك ؟

ـ أن اسمها عالية !

ـ عالية ! هذى التى سبتنى اسمها عالية ؟ .

ـ نعم يا سيدى الرئيس ، قد قلت لك إنها مجنونة .

فاضطرب حمدان اضطرابا شديدا ، واستولت على عبدان حـيرة ، ووجم القوم يسترقون النظر إليهما وإلى عطيف ، وظل عطيف واقفـا لا يدرى ما يقول ، وقد ازداد اضطرابه وتفصد جبينه عرقا .

وإذا حمدان ينهـض ويـأمر بحبـس عطيـف حتـى ينظـر فـى أمـره ، ويبرح الديـوان دون أن يقـول للحضـور شيئا . . ويخـرج فـى أثـره جلندى الرازى. وتلبث عبدان قليلا ثم قام وسار وئيـدا جهـة البـاب ثم خرج .

١٢

ما رؤى حمدان منذ أسس دار هجرته أشد فرحا منه يوم لقى أخته عالية . فقد أحس حين رآها كأن قطعة عزيزة من نفسه كان قد فقدها فعادت إليه بما تحمل من ذكريات حلوة ومرة ونسى ساعة اللقيا كل شئ إلا أنه حمدان القديم أخوعالية . وكانت عالية شعرت وهى تساق إلى مهيماباذ مع ابنتها بأنها تود لو ابتلعتها الأرض فلا ترى عيناها وجه حمدان الذى كفر وبدل ، والذى يرتكب باسمه وتحت حكمه كل ماشهدته من الجرائر والآثام . ولكنها ما كادت ترى وجهه وهو ينظر إليها بين الدهش والفرح حتى نسيت نفسها فخفت إليه باسطة ذراعيها وهى تهتف: « حمدان أخى ! » فاعتنقها وضمها إلى صدره وهو يقول: « عالية ! أختى العزيزة ! » ورأى الشرطيان الواقفان ذلك فانسلا خارجين . ولبثت مهجورة واقفة مكانها هنيهة ثم خفت إليهما فاحتوياها بينهما وعالية تقول : « هذه مهجورة بنتى ياحمدان ! » فضمها حمدان إلى صدره وهو يقول : «أهلا بابنتى ، أهلا بمهجورة . . . لن تكونى بعد اليوم مهجورة !». ونظر إليها فوجد فيها مشابه من أمها حين كانت عذراء فى قرية الدور ، ولكن شيئا حول فمها راعه وأثار فى نفسه شعوراً شبيها بالريبة لم يدر ما سببه . وكانت الفتاة إذ ذاك قابضة بيدها على معصمه ، فما درى حمدان كيف لمع فجأة فى ذهنه خيال ذلك المارد القبيح الخلقة الذى طرده من قصر ابن الحطيم . بيد أنه سرعان ماطرد عن نفسه هذا الشعور الغريب وقال :

« سبحان الله . . . هى نسخة منك يا عالية » .

وما قطع ماهم فيه من العناق إلا مجىء شهر ثم عبدان ثم راجية

وفاختة وثمامة الصغير ثم الليث ، فاتصلت حلقات العناق والتقبيل تتخللها كلمات الترحيب والتأهيل وعبارات المودة والشوق . وغلب الجميع فيض من حنان الأسرة الواحدة والرحم الواشجة لم يشعروا بمثله من زمن بعيد . ماخلا شهرا فقد استشعرت في تلك الساعة أنها غريبة في أهل هذا البيت ، ولكن ذلك لم يمنعها من مشاركتهم فيما هم فيه كأنها واحدة منهم . وماخلا عبدان فلم يستطع أن يرسل نفسه على سجيتها في التعبير عن عواطفه كأن شيئا يعوقه دون الانسجام معهم على شدة رغبته في ذلك .

واقترحت راجية أن تنزل عالية وابنتها معها في جناحها ، وألحت في ذلك ، ولكن حمدان أبى وأصر على نزولهما معه في جناحه ، فكان ما أراد .

كانت فرحة اللقيا قد غطت برهة على أبصار الجميع ، فلا ترى عالية إلا أنها قد عادت بعد التشتت والضياع إلى أهلها فنزلت بينهم ، وهم كذلك لا يرون إلا أنا عدد أسرتهم قد زاد بمجيء عالية ومهجورة، إلا أنهم ما لبثوا بعد ذلك أن انقشعت عن عيونهم تلك الغشاوة ، ونظروا فإذا عالية ليست منهم وليسوا منها ، فهي وابنتها تصليان الفرائض وهم لا يصلون ، غير أنهم ما نفروا منها ، لأنهم يأملون حين يطول بها المقام قليلا بينهم أن تأخذ إخذهم وتدين بمذهبهم .

وشعرت عالية أيضا بمثل ماشعروا ، وجعلت ترى أشياء ينفر منها طبعها وتشمئز نفسها وهمت أن تنكرها عليهم جهارا من أول الأمر لولا ماترى من عطف حمدان عليها ، وحدبه الشديد على ابنتها ، فحملها ذلك على السكوت عنهم إلى حين . إلى أن رابها

ذات يوم شيء من فاختة ، وكانت عندها تزورها ، فإذا بشاب لا تعرفه عالية قد جاء فناداها ، فقامت فاختة تستقبله وأخذت تعانقه وتقبله في خلاعة وتبذل على مشهد من عالية ومهجورة ثم قالت له : « هلم فسلم على عمتي الجديدة وابنتها » وأقبل الشاب فصافحها وهو يخالسهما نظرات مريبة ، فلما رأته فاختة قد دنا من مهجورة جذبت يده وقالت :« هلم بنا الآن » فخرجا منطلقين في نشوة وعرامة .

فلم تستطع عالية صبرا وقامت من ساعتها فدخلت على أخيها فقصت عليه مارأت وجعلت تستنكره وتستهجنه وتقول « كيف يكون هذا وأنت موجود في البيت ياحمدان ؟ » وما راعها إلا أن أخذ حمدان يهدئها مبتسما ويقول لها « إنك هنا حديثة العهد يا أختي . هذا صاحب فاختة ونحن هنا لانرى بأسا بذلك » .

فانفجرت عالية غضبا وذهبت تسب المذهب وتلعنه وتقول لحمدان : « قد كفرت وبدلت فارجع إلى دينك وتب إلى ربك قبل أن يدركك الموت وأنت على هذا الضلال والكفر » .

وحمدان يلاطفها ويهدئها ويقول لها : « لا يسمعك الناس تقولين هذا يا عالية » فتثور وتقول : « دعهم جميعا يسمعوا . هذا منكر كبير. والله لا أعيش هنا بينكم ! ردوني إلى بلدي ! »

فيقول لها وفي صوته رقة الاستعطاف : « ويحك يا أختي ، والله لا أقدر أن أدعك تفارقينني . ليس لي هنا أحد سواك » .

فنالت كلمته هذه منها منالا ، وغلبتها الرقة فسكتت قليلا ثم قالت : « إذاً فدعنا نعيش أنا ومهجورة في بيت وحدنا » .

— فيم يا عالية ؟ إني أحب أن تبقيا معي ، ولن ترى هنا مالا

ترضين بعد اليوم .

- فلست وحدك هنا .

- أتعنين شهرا ؟ هذه تحبكما وتخدمكما .

-أفهى زوجتك ؟ .

فتردد حمدان قليلا ثم قال : « هى صاحبتى يا عالية » .

- بعد أن كانت صاحبة عبدان ! لا والله لا يظلنى معها سقف واحدا!.

واتفقا فى آخر الأمر على أن تعيش وابنتها فى قصر صغير يجاور القصر الكبير كان حمدان قد أعده لينزل فيه ضيوفه .

١٣

بلغ راجية كما بلغ غيرها ما كان من ثورة عالية ، فاكتأبوا جميعا لهذا الحادث وأيقنوا أنه ليس من الاصطدام بعالية بد .

وأنكروا على حمدان أن يصانعها إلى هذا الحد فى أمر من أمور العقيدة له خطره على الدعوة والمذهب ، وإن لم يجرؤوا على مجاهرته بذلك . وكانت راجية أشدهم استياء من عمل عالية ، إذ كانت أسبقهم نفورا منها لأسباب كثيرة ؛ منها أنها رأت من تعلق حمدان بها ومبالغته فى إعزازها ما أثار فى نفسها كوامن الغيرة والحسد ، ومنها أنها لحظت على زوجها عبدان ظلا من الوجوم قد لازمه منذ حلت عالية بساحتهم ، فقدح فى نفسها شك من جهة عالية ، فجعلت ترقبها وترقب عبدان إذا ضمهما مجلس الأهل ، فكانت ترى من عالية ازورارا عنه ، فقام فى نفسها أنها حيلة مقصودة لاجتذابه وتأريث حبه القديم . وهى تنظر إلى عالية فتراها أنضر منها شبابا وأرشق قدا ، وأبهى طلعة ، كأنما تزيد الأيام من جمالها ما تنقص منها هى .

فلما بلغها أن عالية قد منعت فاختة من لقاء مهجورة لئلا تعديها بسلوكها ، ثار ثائرها ، وعدت ذلك فرصة للتحرش بعالية ، فجاءتها في قصرها فما حيتها ولا سلمت عليها ، وإنما اندفعت ترميها بالجهل والغباوة ، وأنها لا تصلح أن تعيش فى مملكة العدل الشامل ، وأنهم كانوا في خير وسلام قبلها حتى حلت بساحتهم .

فتعجبت عالية من اندفاع أختها وانفجارها على هذا النحو من دون أن تسيء إليها بشيء ، فجعلت تهدئها وتقول لها : « ماذا أغضبك مني ؟ »

– كيف تمنعين فاختة من مقابلة ابنتك ؟ ماذا بها ؟ أليست ابنة أخيك؟ .

– قد استأذنت حمدان في ذلك فما قال شيئا .

– إني أعدها ابنتي وهي تقيم عندى .

– فإن سلوكها لا يعجبني وأخشى منه على ابنتى .

– أتعرضين بسلوكى ؟ .

– أما إذا أثرت هذا الأمر ، فاعلمى أن سلوكك ياراجية يندى جبيني خجلا .

– أنت ياسبية الداعر ابن الحطيم تقولين لى هذا ! .

– ماذنبى أنا فيما اجترمه ذلك اللعين ؟ .

– ألم تلدى منه ابنة السفاح هذه التى تربأين بها عن معاشرة فاختة؟ .

– كفى لسانك عن مهجورة فهى أشرف منك .

– أشرف منى وهى ابنة حرام ؟

- جناية لايد لها فيها ولا يد لى ، وإنى لأقول مثل هذا عن ابنك ثمامة لولا أنك اشتركت فى الجناية عليه.

- أمسكى عن ثمامة فليس ابن سفاح كابنتك ! .

- أما جئت به من ذلك الدجال الأهوازى الذى خدعك فأسلمت له شرفك؟ .

- كان ذلك برضى منى فما هو بسفاح ! .

- أهذا هو مذهبكم ؟ .

- نعم .

- عجبا لكم . تعيرون من أكره على الفاحشة وترضون عمن أتاها عن طواعية ! ولا أقول شيئا عن الرجال الذين تستقبلينهم فى بيتك فى غياب زوجك ! .

- ما شأنك أنت ؟ إنى أستقبلهم فى غيابه وفى محضره .

- نعم قد بلغنى أنه راض بذاك فيا ضيعة الرجولة !

- قد عرفت قصدك . تعالنين بهذا لتجذبيه إليك ! خذيه لك ، خذيه لك!.

- لا ياراجية ، لا أرضى لى بعلا من لايغار على زوجته !

- فعيسى بن ميمون ماذا أعجبك فيه ؟

- كان والله صالحا فأفسدتموه .

وإن الأختين لفى هذه المشادة الحادة إذ جاءت شهر ؛ فحالت بينهما ، وجعلت تهدئهما وتقول : « هذا لا يصلح . إنكما وإن فرق المذهب بينكما لأختان ! » ثم جذبت يد راجية فجرتها معها وخرجت بها من قصر عالية .



وكانت شهر حريصة على اجتذاب قلب عالية ، واكتساب مودتها من أول ماقدمت عالية . وظلت تتودد إليها بجميل القول والفعل ، حتى بعد ما علمت باستنكافها من معايشتها في بيت واحد فلم يسع عالية إلا أن تقابل ودها بود وإن كانت تنفر منها في الباطن .

فإذا صفا الجو بينهما أخذت شهر تترفق بها ، وتبث فيها مبادئ المذهب بلباقة ، فكانت تشد إذا لانت عالية ، وترخى إذا شدت ، وكان لها من البراعة ولطف المدخل وحسن المخرج ما تتقى به دائما غضب عالية أو بغضها ، فكانت عالية لا ترى بأسا من سماع حديثها عن الدعوة وهي تضحك وتسخر . وما كانت عالية تستطيع أن تجادلها بالحجة ولا سيما في الآراء المذهبية التي لا تتصل بالحياة العامة ، ولكنها كانت تحس ببصيرتها أن ما تقوله شهر باطل كله .

ويشتد وضوح بطلانه لها في تلك المسائل الشديد اتصالها بحياة الناس فهي لا تستطيع مثلا أن تعد مابين راجية وعبدان زواجا حقا ، وتستقبح المشهد الأعظم ، وتعده خزيا وعارا ، ولا يعقل عندها ألبتة أن ذلك مظهر للتحاب والتواد كما يزعم أهل المذهب . فكانت شهر إذا سمعت ذلك منها تنقطع عن النقاش دون أن تغضب أو تغضب صاحبتها ، بل إنها لتخدمها وتخيط لها ملابسها وملابس ابنتها مهجورة . وكانت تقول لها :« قد علمت يا عالية أنك استنكفت أن تعايشيني في بيت واحد ، ولكني أعذرك ولا أحقد عليك، لأنك أتيت ذلك بوحي عقيدتك ورأيك. ولو أنك فقهت سر المذهب لتغير رأيك في ولأحببتني، لأنك طيبة القلب ، كريمة النفس ، وإني لأرجو أن يأتي يوم قريب تقتنعين فيه بصواب مذهبنا » . فتتبسم لها عالية ولا تقول شيئا .

إلا أن عالية ما لبثت بعد أن نزلت في قصرها الخاص أن استقبلت

النساء فيه فأخذن يترددن عليها ، فتنصحهن بالتوبة ، والرجوع إلى دينهن ، وجعلن يشكون إليها ماتنوء به ضمائرهن من التأثم والحرج ، وينكرن مايقال لهن من أن معرفة الإمام المعصوم كافية ليسقط عنهن كل تكليف ويغفر لهن كل ذنب . فتقول لهن عالية : « وأين رأيتن هذا الإمام ؟ » .

فلما رأت شهر هذا أدركت خطرها عليهن ، فصارت تحرض حمدان أن يكفها عن ذلك . فيأتى حمدان إليها مرغما لا يود أن يغضبها، فيكلمها فى هذا المعنى ويتوسل إليها أن تكف . فتقول له : « ماذا يضيركم أن يؤمن الناس بما يشاؤون ؟ ألستم قد أطلقتم لهم الحرية ، ورفعتم عنهم التكليف ؟ إنكم تدعون العدل الشامل فليس من العدل أن تمنعوا أحدا من أن يعتقد مايشاء » . فيمسك حمدان ويهم بإخراجها من مهيماباذ ولكنه لا يستطيع الصبر على فراقها ، وقد أحس أنها قطعة من نفسه عزيزة عليه ، وأنها السبب الوحيد الذى يربطه بعد بماضيه : بزوجته أم الغيث وبوالدته أمينة وأبيه الأشعث . ولكن شهرا وراجية تنكران عليه سكوته على عمل عالية ، وتحذرانه بأن فتنتها ستشيع فى نساء المدينة ثم تستطير إلى رجالها من طريقهن. ويشاركهما عبدان فى الإنكار ويشتد حينا فيه ثم يلين ، فتوبخه راجية وتتهمه بأنه يتحبب إلى عالية ، فهو يغضى عن عملها لذلك . فلما كثر الإنكار منهم على حمدان، بدا له فمنع النساء من الاتصال بعالية وعزلها فى قصرها فكانت تقول له : « أتسجنني يا حمدان لقول الحق ؟ أرجعنى إلى الكوفة أو أطلقنى ». فيجيبها متلطفا أنه لا يقدر على فراقها وأنه مضطر لما فعل وإلا انتقض الناس عليه

١٤

كان الغيث وفاختة قد نشآ تحت رعاية عمتهما راجية منذ توفيت أمهما في قرية الدور ، فظلا متعلقين بها ثم بها وبشهر بعد مجيء هذه مع عبدان . وكانا يحبان هاتين المرأتين على السواء ، وبقيا على هذا الحال إلى أن استقر حمدان في دار هجرته ، وظهر شغفه بشهر ، فوجد الولدان في أنفسهما شيئا من السكنى معها ، فسكنا مع عمتهما راجية وزوجها عبدان . أما فاختة فكانت مولعة بتقليد عمتها في هيئتها وزيها ، وميلها إلى الخلاعة والتبذل ، وكأنما كانت تتخذها مثلها الأعلى . وأما الغيث فقد كان يحب عمته هونا ما ، ويعتبرها كأمه ، غير أنه كان يشعر بشيء من النفور منها لتبذلها ، حتى أنه كان يتضايق من تدليلها له . ولكنه ظل على احترامها إلى أن كانت ليلة من ليالى الإمام حضرها هو كالعادة ، فانقلب منها أسيفا كسيف النفس . وكان قبلها مرحا كشأن من في سنه من الفتيان ، فصار بعد تلك الليلة كئيبا محزونا، حتى تعجب والده ومن حوله من حاله فكان إذا سئل عما به أنكر أن به شيئا . وما من أحد يعلم بسر حزنه وكدره الطارئين سوى راجية عمته .

فقد اتفق أنه لما شهد ليلة الإمام ، وأطفئت المصابيح وقع هو على راجية ، وما علم ذلك إلا حينما أفاق من خمار الشراب ، فأمسى تلك الليلة مهموما لا يطيق النظر في وجهها ، وشاءت هي أن تزيل ما به فقالت له ملاطفة: «إنك ياغيث لحلو المعشر ، ولكن إياك أن تعود لمثلها!» فما زاده كلامها إلا نفورا منها واشمئزازا . وقالت له :« لا تبتئس فلن يعلم أحد بما وقع غير مولانا الإمام ، وهو لا يؤاخذنا بأمر صنعناه في ليلته » .

وتعاظم نفوره منها ، حتى صعب عليه البقاء معها فى منزل واحد ، ولاسيما وهو يرى فى عينيها حين تنظر إليه أو تخلو به أشياء مريبة . وإذ كان يخشى أن ينكشف أمره لأبيه أو لعبدان صار يؤثر الإقامة فى معسكرات الجيش حيث كان يتولى هو قيادة فرقة فيه ، بعد أن تدرب على أعمال الفروسية بتوجيه من أبيه . فكان إذا سئل عن سبب ابتعاده عن المنزل اعتذر بأنه يؤثر الإقامة مع رجال فرقته فى معسكرهم ، ليكون أقدر على الإشراف على شئونهم . فيمتدح حمدان صنيعه هذا ويعجب به .

وكان يحاول التخلص من تلك الكآبة الملازمة له بمختلف الوسائل فيعيبه ذلك ، إلى أن قدمت عمته عالية فما وقع بصره عليها حتى انجذب قلبه إليها. ثم ما لبث أن رأى من جمال طلعتها ووقار مسلكها وحنانها عليه ماجعله يشعر لأول مرة فى حياته بأنه قد وجد ما كانت الأيام قد حرمته من حنان الأم ؛ فغمرها بحبه وأحلها محل التوقير فى نفسه ، ثم لم يزده ماسمع من قصتها المحزنة إلا حبا لها وعطفا وحنانا. وكما أحبها وأعجب بها أحب ابنتها مهجورة ، فقد وجدها نسخة جديدة من أمها فى جمال الطلعة ووضاءة القسمات ، وهالة الطهر التى تكسو محياها السمح ، ومعانى الانكسار والبراءة التى تفيض من عينيها. وكانت الفتاة تبادله حبا بحب وإن لم تبح به. وظل هو يكتم حبه لها زمنا إذ كان يهابها، ثم تشجع ذات يوم فغازلها كما كان يغازل غيرها من الفتيات اللاتى عرفهن من قبل ، ولم يدر بخلده إلا أن تلك هى الطريقة الوحيدة لخطب ودها . فلما نهرته وثارت عليه شعر بصدمة قاسية وأضناه هم ثقيل إذ ظن أنها لا تريده وألا سبيل له إليها فطالع أباه بأمره ، وكانت عالية قد

علمت بذلك من ابنتها ، فلما كلمها حمدان فيما وقع من مهجورة للغيث استضحكت وقالت له :« إن مهجورة لتحب الغيث كما يحبها ، فإن شئت ياحمدان زوجناها له على سنة الله ورسوله » .

- بل على مذهب الإمام .

- كلا ، إلا على سنة الله ورسوله .

فلما رأى حمدان إصرارها على ما تريد ، ورأى ما يلقى ابنه من الوجد والكلف وكان يحبه حبا جما ، عز عليه ذلك ، فاستأذن فيه عبدان فعارض في أول الأمر معارضة شديدة ، ثم أذعن لرغبة حمدان على شرط أن يبقى ذلك سرا لا يعلم به أحد من أهل مملكة العدل الشامل .

وتم زواج ابن حمدان على ابنة عدوه ابن الحطيم في عاصمة القرامطة على سنة الله ورسوله ، وأنف عبدان راغم . وعاش الزوجان الحبيبان مع عالية في قصرها ، وما لبث الغيث أن تأثر بأفكارها وعقيدتها شيئا فشيئا حتى صار يصلي الفرائض معها ، ويصوم الشهر على خوف من أبيه وملئه أن ينكروا فعله .

وكانت عالية كثيرا ما تحدثه كيف كان أبوه حمدان فلاحا صالحا حتى فتنه هؤلاء القوم ، وقد كان مظلوما فسهل عليهم استدراجه لمذهبهم الذى يسمونه العدل الشامل ، وكيف كان جده الأشعث رجلا دينا ، وجدته أمينة ووالدته سعدى من النساء الصالحات وإنهم لو عاشوا حتى شهدوا هذه الأمور لتقطعت أكبادهم حزنا وكمدا . وقالت له يوما وهى تضحك وقد طاب المجلس بين الثلاثة ورق الحديث :« إن مهجورة زوجتك ، وأنت يابنى زوجها فلا أرينك يوما ترضى أن يشركك فيها أحد . « إنها

لك وحدك يا بنى ، وعليها أن تحفظ عهدك ، وترعى شرفك فى محضرك ومغيبك ، فإن علمت أنها - لاسمح الله - خانتك مع أحد سواك فلا ترين وجهى حتى تذبحها ! » . فضحك الغيث وضحكت مهجورة وقالت : « وهو يا أماه أليس عليه أن يكون لى وحدى ؟ »

فأجابتها أمها بين الابتسام والعبوس : « إن كنت حريصة على رضاه فلن يجد خيرا منك فما حاجته إلىغيرك ؟ ».

فضحك الغيث وقال : « إنها أجمل امرأة فى مملكة العدل الشامل، وأنّى لى أن أجد فيها زوجا أخرى تكون لى وحدى ؟ »

١٥

لما وثب حمدان وثبته الكبرى على ناحية القاسميات من أرض البطائح ، وتم له تأسيس دار هجرته مهيماباذ ، قسم الأراضى التى استولى عليها بين الفلاحين . ليزرعوها ويستثمروها لأنفسهم ، غير أنه أوجب عليهم نظام (الألفة) الذى كان قد دعاهم إليه من قبل ، وهو أن يؤدى كل واحد منهم مايفضل من حاجته من الثمار والحبوب حتى يكونوا فى ذلك أسرة واحدة لا يفضل واحد منهم صاحبه وأخاه فى ملك يملكه . وقد عرفهم أنه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم لأن الأرض بأسرها ستكون وشيكا لهم دون غيرهم .

ثم أعلن فى العام الثانى أنه قد جعل الأرض ملكا للدولة أى للجميع، ثم وزعها قرى ومناطق ، وخصص لكل منها جماعة من الفلاحين لا يتعدونها إلى منطقة أخرى إلا بأمر منه ، وهؤلاء يعملون فيها تحت إشراف مديرين يراقبون عملهم . ولكل منطقة أمين يعينه حمدان بنفسه ليجمع المحصول ويحفظه فى مخزنها العام ، ولا يجوز

للفلاح أن يأخذ من المحصول شيئا ، وإنما يعطيه الأمين مايراه كافيا له ولأهله وعياله الذين يعملون فى الأرض معه .

وكذلك حال الحدادين والنجارين والبنائين والغزالات والنساجين وغيرهم من الصناع والعمال ، لكل منطقة كفايتها من هؤلاء ويجمع نتاج عملهم ويحفظ فى المخزن العام .

وقد أظهر الفلاحون والصناع وغيرهم ارتياحا لهذا النظام ، فأخلصوا واجتهدوا فى أعمالهم فى بداية الأمر ، إذ كان بين هؤلاء كثير من الفلاحين الذين ذاقوا البؤس من ظلم ملاك الأرض وجشعهم ، وكثير من العمال والصناع الذين عانوا الأمرين من ظلم أصحاب العمل. وكان كثير منهم ممن اعتنق مذهب الإمام المعصوم على يد الشيخ الأهوازى وحمدان من بعده ، وتحمسوا لمبادئ العدل الشامل ، وعللوا نفوسهم بزوال عهد الظلم والتفاوت بين الناس فى الرزق والثروة ، ومجيءعهد جديد يتساوى الناس فيه، فلا غنى ولا فقير ، ولا قوى ولا ضعيف ، إذ لا يؤذن لأحد مهما كان قدره أن يملك شيئا من الأرض أو المال .

غير أن كثيرا منهم ما لبثوا بعد أن ذهبت عن نفوسهم جدة هذا النظام وروعته الأولى أن نظروا فإذا الناس ليسوا سواسية فى ظل هذا النظام الجديد، وإذا التفاوت فى العيش بينهم باق كما كان ؛ فقد رأوا أنه أن أعطى لهم مايسد جوعهم وجوع عيالهم من الطعام ، فمن طعام يختلف عن طعام غيرهم ممن هم أرقى طبقة وأعظم جاها أو أحب إلى أصحاب الجاه . وأدركوا أن أحدهم إن أعطى كفاية بطنه فإنه لا يعطى كفاء عمله وجهده ، فهذه الغلال والثمار والمصنوعات التى ينتجونها بعرق جبينهم وكد أيديهم لا يعطون منها إلا القليل

من أدنى أنواعها ، ويحمل الجزء الأكبر منها إلى مخازن الدولة لمصلحة الجميع - كما يزعم ذلك أولو الأمر - حيث تتمتع به الطبقات التى فوقهم ، يأخذ منه كل على حسب جاهه ونفوذه . فقد انقلب الأمر من امتلاك الأرض والمال ، فامتلاك السلطان والنفوذ بهما ، فى ذلك النظام الذى شهدوه من قبل وذاقوا منه المرارة والهوان ، إلى أسلوب جديد يقوم على امتلاك السلطان والنفوذ بادئ بدء ثم يأتى من طريق هذين امتلاك مايخولانه لصاحبهما من بركات الأرض والمال .

ولعل قليلين منهم هم الذين استطاعوا آن يدركوا هذه الموازنة بين النظامين ، وعدم الفرق بينهما فى النتيجة ، على حال من الوضوح يعطيهم القدرة على الإفصاح عنه فى عبارات محكمة بينه ، ولكنهم إلا قليلا منهم كانوا يحسون أن أملهم القديم فى السعادة التى ينشدونها من وراء هذا النظام الجديد قد خاب ، وأدرك الجميع أو أحسوا - فقد كانوا يحسون أكثر مما يدركون - أن السبيل إلى التقدم فى مملكة العدل الشامل هذه ليس الاجتهاد فيما كلفوه من العمل أو التجويد فيه ، إلا فيما ندر، وإنما هو السعى إلى الجاه والحظوة عند أحد الرؤساء ، بضروب التزلف إليه والتقرب منه ، ثم التدرج بعد ذلك فى نيل الحظوة من عند رئيس إلى عند رئيس أعلى منه ، حتى يصل الساعى إن واتاه الحظ إلى ذلك الرئيس الأعلى حمدان قرمط . وكما أن الطموح لجمع المال ومضاعفته بالتجارة وغيرها من سبل الكسب والاستثمار فى غير هذا النظام لا ينجو دائمامن الآفات ، ولا يخلو من الغرر ، إذ قد يجر أحيانا إلى الضياع والإفلاس ، فكذلك الطموح إلى الجاه والنفوذ فى ظل هذا النظام القرمطى ، له آفاته وأخطاره من غضب الرئيس الأعلى أو من دونه من الرؤساء ، فويل

لصاحبه حينئذ إذ قد يدفع حياته ثمنا لمغامرته من حيث لا يعلم بمصيره أحد ، ولا يسأل عنه أحد .

فلما قوى شعور الناس بخيبة الأمل فى هذا النظام ، ورأوا أنهم لا يجنون من اجتهادهم فى العمل إلا ملء بطونهم من الطعام الدون من الذرة والتمر، وقليل من اللبن والجبن ، وما يسترهم من الكساء الخشن، بينما تحمل غلال القمح وخيار الفاكهة والتمر إلى مهيماباذ ، ليتمتع بها الزعماء وأرباب الجاه والنفوذ ، وتمون بها الجنود والعساكر الذين يعلفون بأجود الطعام استعداداً للحرب ، ولا حرب ـ أخذ الفلاحون والعمال والصناع يتهاونون فى أعمالهم كلما غفلت عين الرقيب عنهم ، فأثر ذلك فى إنتاج الدولة من الحبوب والثمار والمصنوعات ، فتوجهت التبعة إلى المشرفين والمديرين ، واتهموا بالتقصير فى المراقبة أو ضبط النتاج ، حتى عوقب بعضهم بالعزل ، وأمروا جميعا بتشديد المراقبة وإحكام الضبط ، فصاروا يضغطون على من فى عهدتهم من الفلاحين والعمال والصناع ويطالبونهم بالاجتهاد فى العمل ويشتدون فى عقابهم لأهون تقصير يرونه منهم .

وكان حمدان حين يبلغه هذا يأخذه العجب مما يبديه هؤلاء من التراخى والتوانى وقلة الاهتزاز لهذا العدل الشامل الذى أجراه فى بلاده، حتى يخيل إليه أنهم يتعمدون تحدى هذا النظام تعمدا ، فكان يأمر بإحضارهم إليه ليعرف ما يدفع هؤلاء الناس إلى التقصير فى عملهم ، مع أنهم يجدون ما يكفيهم من طعام وكسوة .

جىء يوما بفلاح ظهر منه التكاسل مرة بعد مرة ، وكان معروفا قبل ذلك بصلاح الحال ورجاحة الرأى بين جماعته ، فلما مثل بين

يديه قال له حمدان : « ألم أطعمكم من جوع ؟ » فأجابه : « بلى » .
- ألم أكسكم من عرى ؟
- بلى .
- ألم أجعل لكم كنا صالحا تأوون إليه ؟
- بلى .
- ففيم تتكاسلون فى أعمالكم ؟ ألا تعلمون أن ذلك ضار بمصلحتكم؟
- بل نحن مجتهدون فى عملنا ولا نقدر على أكثر مما نعمل .
- أصدقنى الحديث ويلك !
- هذا ياسيدى هو الصدق .
- أصدقنى وإلا أمرت بقطع لسانك .
- أتعطينى الأمان من غضبك ؟
- نعم .
- إننا يا سيدى لا نجد فى أنفسنا ميلا إلى العمل ، لأننا لا نعمَل لأنفسنا.
- ألا تعلمون أن عملكم هذا هو الذى منه تنالون رزقكم ؟ .
- بلى ، ولكن أحدنا لا يشعر بأنه يعمل لنفسه ويأخذ كفاء عمله .
- فهل كنتم تأخذون كفاء عملكم إذ كنتم تعملون أجراء لملاك الأرض ؟ .
- لا ياسيدى .
- فما كنتم تتكاسلون إذ ذاك هذا التكاسل !
- إن أردت الحق يا سيدى ،فإن أحدنا كان يعمل أجيرا لمالك الأرض يأخذ منه أجره كل يوم ، فإذا تكاسل كان لمالك الأرض أن

يطرده من العمل جزاء تقصيره ، فيذهب هو ليبحث عن عمل آخر يحرص على ألا يتكاسل فيه . . فكان يشعر بأن فى وسعه أن ينتقل من العمل عند سيد إلى العمل عند سيد آخر . أما هنا فإن الأرض التى نعمل فيها كلها لمالك كبير واحد لا نقدر أن نجد عند غيره عملا ، ولا هو يقدر أن يجد قوما غيرنا عنده يعملون . وقد كنا نشعر أن السلطان هو الحكم بيننا وبين سادتنا إن ظلمونا . أما هنا فإن السلطان هو الخصم والحكم .

ـ فهل كان السلطان ينصفكم من ظالميكم ؟

ـ قلما كان السلطان ينصفنا منهم ، ولكنا كنا نشعر دائما بأن لنا مطمعا فى ذلك .

ـ فأنتم اليوم فى غنى عن ذلك الإنصاف ، لأن أحدا لا يظلمكم أو يغمطكم حقكم .

ـ بل نشعر بالظلم والغبن حين نرى كثيرا من الناس غيرنا يشاركوننا فى ثمرة عملنا ، بل يأخذون معظمها منا ، دون أن يشتركوا فى العمل .

ـ أما كان سادتكم الملاك يصنعون مثل هذا معكم ؟

ـ بلى ، ولكنا ما كنا نحسد مالك الأرض على ما تخوله أرضه من الريع وإن لم يشترك فى العمل . أما هنا فقد قيل لنا إن الأرض أرضنا والعمل عملنا ، فيعز علينا أن يتمتع بثمرة جهدنا سوانا ممن لا يملكون الأرض ولا يعملون .

ـ أليس عندك غير هذا من شىء تقوله ؟

ـ والله لقد قلت لك الصدق كله نزولا على أمرك واعتمادا على أمانك ، ولوددنا أن لو كان فى ملكنا أن نعمل خيرا مما نعمل ونبدى

مزيدا من النشاط فيه . وطالما حاولنا أن نقنع أنفسنا بوجوب ذلك علينا فيعيينا ، ولا نجد الانبعاث له من تلقاء أنفسنا ولا ندرى ما خطبنا إلا أن هذا واقع الأمر .

وقد استدعى حمدان كثيرين غيره من الفلاحين والصناع ، فكان جوابهم لا يختلف عن جواب الفلاح الأول إلا فى صيغته ، فكان حمدان يقوم من مجلسه مغتما .

قال لعبدان ذات يوم : « ما تقول فى هذا الذى تراه ؟ »

ـ هؤلاء يحنون إلى الظلم من طول ما عاشوا فيه ، وهم يجتوون العدل لأنهم ما ألفوه .

ـ ولكنهم كانوا مبتهجين به فى بداية الأمر .

ـ إنما كانت تلك لذة الانتقال من حال إلى حال ، ولا يطول أمدها ، وقد أخبر النبى عن قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل .

ـ أو تذكر النبى بعد يا فقيه الدعوة وأنتم لا تؤمنون به ؟

ـ لا ضير أن نذكره حين نحتاج إليه ، وإننا لا نستغنى عنه .

ـ فقل إذن صلى الله عليه وسلم !

ـ فسكت عبدان قليلا واصفر وجهه وظهر عليه التخاذل ، ثم ابتلع ريقه وقال : صلى الله عليه وسلم وعلى الإمام المعصوم . . . هذا حديث ينطبق على حال هؤلاء ، وما إخال النبى إلا يعنيهم .

ـ ألا تدع حديث النبى يشرحه من يؤمنون به ، وتأخذ أنت فى شرح أقوال إمامكم ؟ .

ـ ويحك يا حمدان إنك قائد الدعوة ، وما ينبغى لمثلك أن يرتاب فى إمامها الحق .

ـ إنكم قوم لا تعدلون .

ـ فيم يا ابن عمى ؟ .

ـ لقد كنا نؤمن بنبينا والأنبياء من قبله فشككتمونا فيهم فما قلنا شيئا، وجئتم بإمامكم الجديد فيغضبكم أن نشك ولو بعض الشك فيه . أفهذا من العدل ؟

ـ ولكنك تعلم يا حمدان أن الناس إذا بلغهم أنك تشك فى إمامك فسينفضون عنه وعنك .

فهز حمدان رأسه وهو يقول : « دعنا من حديث الإمام فليس يشغلنى أن يكون حقا أو باطلا » .

ـ فماذا يشغلك ؟

ـ إنى أريد جنة لا يقاد الناس إليها بالسلاسل .

ـ ذلك مطلوب بعيد المنال ، فهذه طبيعة البشر لا تغلب .

ـ فما يمنعنا أن نجارى هذه الطبيعة فى نظامنا ؟ .

ـ كلا ، لابد من كبح جماحها لصلاح الناس وسعادتهم .

ـ ففيم إذن أبطلتم الحدود فى الشهوات وأطلقتم للناس فيها العنان ؟

ـ ما يكون لنا أن نمنعهم من لذة تهفو إليها طبيعتهم .

ـ فهؤلاء كما رأيت وسمعت قد فقدوا لذة العيش فى هذا النظام .

ـ دع عنك هذه الوساوس يا ابن عمى فلا ريب أنك قضيت على الظلم ، وحققت العدل ، إذ أقمت نظاما جديدا لا سلطان للمال فيه. وإن هذا هو الذى كنت تصبو إليه من زمن بعيد ، فما عدا مما بدا؟

فتنهد حمدان ولم يجب .

وكان حمدان قد رفع عن الناس ـ من أول ما أجرى نظامه فى دار الهجرة ـ الخمسين الصلاة التى كانوا يقيمونها ، وقال لهم إن الإمام قد رضى عنهم فأسقطها مكتفيا بالصلوات الخمس . فما اعترض منهم على ذلك معترض ، إذ كانوا فى ذلك العهد الأول مبتهجين بالنظام الجديد ، مأخوذين بروعته ، يعتقدون فى كل كلمة يقولها فقيه الدعوة أو قائد الدعوة ، لا يرون إلا أنهما يبلغان عن الإمام المعصوم فيسمعون ويطيعون.

وظل كثير منهم يقيمون الصلوات الخمس كعادتهم من قبل دون أن يعترض عليهم أحد ، وإن كانوا قد لحظوا أن أبناءهم الصغار دون البلوغ، الذين تأخذهم الدولة لتنشئهم على مذهب الإمام وتعليمهم بعض الحرف والصناعات ، لا يعلمون الصلاة ولا شيئا من الدين إلا العقيدة فى الإمام ، والإيمان بمذهب العدل الشامل ، والخضوع لأوامر الرئيس الأعلى ، والكراهية لمن سوى القرامطة من الناس ، وأنهم جميعا على ضلالة وكفر ، وأن أموالهم وأملاكهم حلال لهم ، فقد أباح الإمام الأرض كلها للقرامطة ، وأن الظلم فاش فى الأرض ولا يوجد العدل إلا فى مملكة مهيماباذ ، وأن مذهب العدل الشامل سينتشر فى طباق الأرض فتخضع الدنيا لمملكتهم وتسير على نظامهم .

فلما اشتد المديرون والمشرفون فى محاسبة الفلاحين والعمال على تقصيرهم ، ورأوا أن الصلوات الخمس تأخذ جانبا من وقت عملهم ، أعلن الدعاة لهم أن الإمام قد رفع عنهم الصلاة جملة . ولكن ظل كثير منهم يصلون كعادتهم ، فأمر عبدان بهدم المساجد ونودى فى الناس بعقاب من يخالف أمر ترك الصلاة بحجة أن ذلك

يدل على نقص الإيمان بأوامر الإمام ، فامتنعوا عن الصلاة خشية العقاب إلا أن بعضهم استمروا يصلونها فى بيوتهم على خوف وحذر . وما كان الأمر بترك الصلاة ليحدث ذلك السخط فى نفوسهم لو بقى ابتهاجهم بالنظام الجديد كما كان . ولكنهم ـ وقد بدأوا يتململون من ضغطه عليهم وأخذه بمسالك حياتهم ، وتفتحت عيونهم على مساوئه وعيوبه ـ شعروا بالألم الشديد لهذا الأمر ، وغلب على ظنهم أن ذلك ليس من أوامر الإمام وإنما اشترعه عبدان ضنا بساعات عملهم أن تتحيف منها الصلاة.

وكان لهذا الأمر أثر بالغ فى تذكيرهم بما سلبوا من حرية العقيدة وحرية العبادة ، فزاد حنقهم على العهد الجديد ، واشتد حنينهم إلى ذلك العهد القديم ، حيث كانوا يجدون من طمأنينة الإيمان با لله ما يهون عليهم كل ما يلقون من جور ، ويعانون من جهد ومتربة .

وأخذ التذمر يشيع فى النفوس رويدا رويدا ، فكان النفر من هؤلاء إذا وثق بعضهم ببعض ربما يتناجون به فيما بينهم على حذر من الرقباء قد يبلغ أحيانا إلى أن يندم أحدهم على نجواه ، خيفة أن يكون بين النفر الذين ناجاهم عين من عيون جلندى الرازى رئيس الجلاوزة العتيد ، على أنهم ليحمدون الله على قلة ما يتاح لهم من فرص التناجى، إذ كان لكل امرئ منهم من عمله الدائب تحت الرقابة الصارمة ما يشغله فيعصمهم ذلك من خطر الانزلاق فى هذه المهاوى التى لا يؤمن شرها ، وإن حرمهم لذة فى التشاكى تحن إليها نفوسهم !

إنهم ليذكرون فيما يذكرون ، وبسمات السخرية على شفاههم ، ما كانوا يوعدون به من شهود ليلة الإمام ، أو المشهد الأعظم ،

حيث يذوقون فيه طعام الجنة ونعيمها ، وينالون فضل الإمام ورضوانه الأكبر. وها هو ذا المشهد الأعظم يقام فى مواسمه المعلومة ، فمن ذا يحضره إلا علية القوم وزعماؤهم وأرباب النفوذ فيهم ؟ ولا يؤذن لغيرهم من الطبقات الدنيا بحضوره إلا لمن تكون له زوجة رائعة الجمال فيكسونها له أفخر الحلل ، ويقلدونها الحلى ، ويضمخونها بالطيوب ، ويسمح له بالحضور لمرافقتها ، حتى إذا انقضى الحفل ذهبت إلى رئيسة المشهد الأعظم فخلعت عندها تلك الحلل لتحفظ فى خزانة الحلية هناك ، ورجعت مع زوجها بثيابها القديمة ، إلا أن ينفحها أحد الزعماء بشىء من ذلك ليبقى عندها تذكارا لتلك الليلة الممتعة ، وبركة من الإمام تفخر بها على صواحبها فى البلدة أو القرية .

وأصبحوا ذات يوم فإذا شاعة عجيبة ما ملكوا أنفسهم أنْ تهامسوا بها ، إذ سمعوا أن عطيفا النيلى عامل الحدود قد قبض عليه ثم اختفى أثره . وكثيرا ما سمعوا قبل ذلك بمقتل أمثاله من الزعماء واختفائهم من الوجود ، فما كانوا يهتمون به ، ولكنهم كلفوا بأمر عطيف لاتصاله فيما سمعوا بحادث غريب أثار فيهم الفضول والتطلع ، إذ يتعلق ببيت رئيسهم الأعلى . فقد بلغهم أن أختا لحمدان غير راجية قد جاءت ، وأن عطيفا غازلها فى الحدود فتأبت عليه ! هذا ما اتفقت عليه رواياتهم ، ولكنهم اختلفوا فيما دون ذلك ، فمن قائل إن عطيفا أكرهها على مالا تحب فقتله حمدان لذلك .

ومن قائل إن حمدان إنما قتله لمحض المراودة دون أن ينال منها شيئا مخالفا بذلك حكم المذهب ، إذ لا حق له فى عقابه حيث لم يكرهها ، وإنه ينفذ القانون فى الناس ولا يجريه على نفسه . ومن قائل إنه قتله

لأنه لم يبلغ عن امرأة سبت حمدان ولعنت المذهب ، وإن عطيفا قال له : « فهل كان يسرك أن أقتلها بهذه الجريرة ؟ فماذا كنت صانعا بى لو علمت أننى قتلت أختك ؟»

وإن حمدان أجابه قائلا : « إنك تسترت على جريرتها وأنت لا تعلم أنها أختى » .

ثم سمعوا أخبارا عجيبة عن أخت حمدان الجديدة ، وأنها تندد بفساده أمام أخيها حمدان ، وأن بعض النسوة فى العاصمة قد افتتن بها ، ورجعن عن مذهب الإمام بسببها ، وأن حمدان اعتقلها فى قصرها وعزلها عن الناس . وقد اهتمت نساء الفلاحين والعمال بخبر أخت حمدان هذه خاصة ، فتناقلن حديثها وأخذ بعضهن يعدن إلى صلاتهن على الرغم من تخويف أزواجهن لهن من أن يسمع أولو الأمر بافتتانهن فيمسهم العقاب جميعا .

١٦

كان هذا كله يجرى فى مملكة العدل الشامل ، وإن الحوادث لتجرى فيما وراءها من البلاد التابعة بعد لدولة الخلافة العباسية ، ولكنها لا تصل على حقيقتها إلى أهالى مملكة مهيماباذ ، إذ كانوا فى معزل عن العالم من حولهم ، إن سمعوا عنه شيئا فكأنه صدى يأتيهم من عالم بعيد.

فإنه لما أعلن المعتضد سياسته الجديدة على منهج أبى البقاء ثار أغنياء بغداد وكبار ملاكها ، ومعهم الوزراء والمستوزرون ، وانضم إليهم بعض الفقهاء بدعوى أن فى ذلك تجاوزا للحكم الشرعى فى الزكاة .

ولكن المعتضد قاومهم جميعا ، وبدأ التنفيذ بالقوة وقبض على

زعماء الحركة المضادة ، وبعض تجار اليهود الذين يقومون سرا بتأييدهم . وكان هؤلاء يقولون له : « حارب القرامطة بدلا من محاربتنا » فيقول لهم قولة واحدة : « لولا هذا الظلم الذى تستمرئونه لما ظهرت فتنة القرامطة ولا غيرهم » .

وقد بلغ من اشتداد هذه الحركة وخطرها أن دبروا لخلع المعتضد، وتولية الخلافة لأحد الأمراء من ولد المعتمد ، ولولا أن المعتضد كشف سر هذا الائتمار فأحبطه ، وعاقب المشتركين فيه وفيهم بعض قواده الأتراك وبعض الوزراء .

وكان لشخصية المعتضد وشجاعته وحزمه فضل عظيم فى السيطرة على الأمر ، كما كان لجهاد أبى البقاء ، وإخلاصه لمنهاجه، والتفاف عامة الناس حوله ، عون كبير للمعتضد .

ولكن الصعوبة ظهرت فى تطبيق المنهاج ، إذ كان كثير من الذين أسند إليهم القيام به يتقاعسون عنه ، ويتضح أنهم يرتشون من الأغنياء، فيعزلون ويولى غيرهم مكانهم . فلا غرو إن تعذر تطبيق النظام الجديد فى كور بغداد وأعمالها إلا بعد انصرام عام كامل .

وقد كان عزم أبى البقاء أن يبدأ فى تطبيق النظام فى منطقة الكوفة أولا حيث تقوم مهيماباذ عاصمة القرامطة ، غير أن ما أبداه أغنياء بغداد من المقاومة الشديدة لهذه السياسة جعله يعدل عن ذلك، ويرى الأخذ بتطبيقه فى منطقة بغداد أولا هو الأصوب ، حتى ينهار مركز تلك المقاومة ، ثم يزحف النظام رويدا رويدا صوب الجنوب إلى أن يصل إلى منطقة الكوفة ، ثم يشمل بلاد الدولة كلها فتحاط مملكة حمدان بهذا النظام الجديد من كل جانب . فاستصوب المعتضد رأيه وجرى عليه .

وفى خلال ذلك اكتفى المعتضد بأن أمر عماله فى النواحى المتاخمة لمملكة حمدان بالاستعداد لمقاومة القرامطة إن جنحوا للحرب ، وبالقبض على دعاتهم الذين ينشرون المذهب القرمطى فى نواحيهم ، أما عامة الناس من الفلاحين والعمال وغيرهم فيتركون ولا يمسون بسوء وإن أظهروا ميلا إلى القرامطة ، مالم يقم أحدهم بدعوة صريحة إلى الخروج على الدولة . وقد نتج عن هذه السياسة التى التزمها المعتضد أن بعض القرى المجاورة لمملكة حمدان قد يستشرى فى أهلها المذهب القرمطى حتى لا يمكن كبح جماحهم إلا بإبادتهم ، فيشير المعتضد بترك أهلها ينضمون إلى مملكة مهيماباذ إذا شاءوا ، فكان أن امتد النفوذ القرمطى بذلك من بطائح الكوفة شمالا إلى بادية العراق جنوبا ، ومن مشارف صحراء الشام غربا حيث فشا فى بعض عربان الصحراء ، إلى حدود واسط شرقا .

وكان الخليفة يتلقى الرسائل من أغنياء الكوفة وواسط وغيرهما من النواحى يحرضونه فيها على حرب القرامطة ، فلا يرد عليهم ويحيل أصحابها على عماله فى نواحيهم . وكان من أشد هؤلاء إلحاحا عليه بذلك أغنياء الكوفة بزعامة الهيصم ، وأغنياء واسط مثلهم ،لأن هؤلاء يصاقبون مملكة مهيماباذ فهم يخشون أن يتقدم حمدان قرمط لغزو بلادهم، ويتوجسون كذلك من أن يطبق فيها نظام أبى البقاء الذى قد بدئ بتطبيقه إذ ذاك فى منطقة العاصمة. فكانوا يرون أن الحرب هى السبيل الوحيد لاتقاء هذين الخطرين معا ، إذ يثقون بأن المعتضد قادر على إخضاع حمدان وتقويض مملكته بالقوة ، فليس القرامطة عندهم بأقوى من الزنج . وهم لا يريدون — خشية من تطبيق نظام أبى البقاء عليهم — أن يعترفوا بما يرى المعتضد من أن

الزنج وإن كانوا أقوى من القرامطة في الاستعداد الحربي ، إلا أن القرامطة أقوى منهم بالسلاح المعنوى القائم على استغلال التذمر في الطبقات الدنيا من الفلاحين وغيرهم ليثوروا بهم على الدولة ، وهؤلاء يشتد تحمسهم وتعصبهم للمذهب كلما قوموا بالقوة . وإن للقرامطة لدعاة ماهرين يبثون دعوتهم في جميع النواحي متسترين في صور شتى وبأساليب مختلفة ، فلا يجدى إخضاع حمدان شيئا ما بقى الأثر الذى تركه في النفوس قائما يغذيه هذا الجور الذى يلقونه من سلطان المال في أرجاء الدولة .

وكان المعتضد ربما يبدو له فيعزم على محاربة حمدان وإخضاعه بالقوة حين يروعه ازدياد نفوذه ، وامتداد سلطانه ، خشية أن يبتلع الدولة كلها ، فيراجعه أبو البقاء ويقنعه بأن ذلك ليس في مصلحة دولة الخلافة، لأن القضاء على مهيماباذ بقوة السلاح حرى أن يجلب عطف أولئك العامة على القرامطة ، وأن يمثل حمدان في عيونهم نصيرا للعدل ألوى به بطش القوة الغاشمة . ويؤكد له أن النظام القرمطى لا يمكن أن يبقى طويلا إذا جاوره نظام العدل الإسلامى الصحيح . فالرأى أن يترك حمدان وشأنه حتى تنهار مملكته من تلقاء نفسها حين تنزع بأهلها سلامة فطرتهم فيثورون على ذلك النظام القائم على الإلحاد ومغالبة الفطرة الإنسانية .. فيقتنع المعتضد ويعدل عما عزم . ومما شجعه على المضى في هذه السياسة ما رأى من حمدان قرمط من توقى الحرب ، وما أنهى إليه كرامة بن مر والى الكوفة أنه ترامى إليه من عيونه أن عبدان وغيره من زعماء القرامطة يلحون على حمدان بشن الحرب على الدولة ، وأن حمدان لا يقرهم على رأيهم ويصمم على ألا يحارب الدولة إلا إذا بدأته الدولة بالحرب .

واستمر نظام أبى البقاء يزحف صوب الجنوب ، وصوب الشمال، من بلد إلى بلد ومن ناحية إلى ناحية ، حتى وصل شمالا إلى منطقة الموصل وجنوبا إلى منطقة الكوفة والنجف ، فى مطلع العام الرابع من تأسيس دار الهجرة القرمطية . ومن عجائب الأمور أن ينتهى تطبيق هذا النظام فى منطقة الكوفة إلى القبض على جماعة من الأغنياء المقاومين له ، فيكون بين هؤلاء حليف لحمدان هو إسرائيل بن إسحق، وعدو له هو الهيصم .

١٧

كانت أنباء حركة أبى البقاء هذه ، وتأييد الخليفة لسياسته القائمة على تنفيذ أحكام العدل الإسلامى الصحيح فى أنحاء مملكته ، تتسرب إلى مهيماباذ والمناطق التابعة لنفوذها فيسخر منها القرامطة ويتندرون عليها، ويقوم دعاتهم بتشويهها للناس ويقولون لهم « إن هذه الحركة التى يقوم بها أبو البقاء ويؤيدها الخليفة لإجراء العدل الجزئى فى بلاده، إنما يقصد بها تثبيط الناس عن الاستجابة لدعوة الحق ومذهب الإمام القائم على العدل الشامل ، ثم يراد بها زعزعة عقيدتهم الراسخة فى الإمام وإيمانكم بمذهبه حتى إذا تم لأولئك الظلمة ما أردوا من ذلك، وتم لهم هدم دولتنا ونظامنا ـ لا سمح الله ولا سمح الإمام المعصوم ـ عادوا بالناس إلى ظلمهم القديم » .

كان هذا فى بداية الأمر حين كان النظام لا يزال فى زحفه البطىء صوب الجنوب بعيدا عن بلاد القرامطة . فلما اقترب منهم وصارت أنباؤه تأتى إليهم مفصلة تنطق بفضله على الناس ، وفرحهم به ولا سيما الطبقات الدنيا من الفلاحين والعمال والصناع ، ثار ثائر زعماء القرامطة وأوجسوا خيفة من تأثيرها فى أهل بلدهم أن تفتنهم

عن مذهبهم ، وتميل بهم عن الولاء لمملكة العدل الشامل . وكان الشعور بخيبة الأمل والتذمر من سوء الحال قد شاعا في نفوس الطبقات العاملة عندهم ، وما يمسكها عن الانفجار إلا خوف هؤلاء من بطش حكامهم الذين لا يرحمون .

فتشاور عبدان وحمدان في هذا الأمر واشترك معهما بعض وجوه القرامطة ، فاجتمع رأيهم على منع تسرب هذه الأخبار إلى بلادهم لئلا يفتتن بها أهلها . فأمر حمدان بإقفال حدود مملكته بحيث لا يدخلها أحد غير أهلها ، ولا يخرج منها أحد من أهلها . ولكن بعض الأنباء كانت تتسلل مع ذلك إليهم فمنع حمدان انتقال رعاياه من بلد إلى آخر في مملكته لئلا يتناقلوا ما سمعوه ، وحظر عليهم كذلك أن يبعثوا رسائل إلى أهلهم خارج المملكة أو يتلقوا منهم رسائل . وقد كان ذلك مباحا لهم من قبل ؛ إذ كانت رسائلهم تفيض بذكر حسنات النظام القرمطي ، ووصف ما يتمتعون به من سعادة ونعيم ، وتحريض أهلهم أو أقاربهم على الفرار بأنفسهم من دار الظلم إلى دار العدل الشامل . أما اليوم فقد منعوا من ذلك منعا باتا ، وأصبحت حتى الرسائل التي يتبادلونها في داخل مملكة مهيماباذ لا تسلم من عين الرقيب .

وما انفك دعاتهم ، حتى بعد إقفال حدود البلاد ، يكررون على أسماعهم أن هذا الذي أجراه الخليفة في بلاده إنما هو خدعة لطوائف المظلومين هناك ، وتعلة لهم لئلا يفروا بأنفسهم إلى مملكة العدل الشامل . فإذا تخابث بعضهم وقال للداعي : فما بال المهاجرين انقطعوا عن بلادنا منذ حين ؟ »أجابهم الداعي : « نحن منعنا دخولهم وأقفلنا حدود البلاد في وجوههم ، إذ اتضح لنا اليوم أن السلطان

قد شدد فى الحيلولة بينهم وبين الهجرة إلينا ، فصار لايقدر على ذلك إلا أولئك الذين يرسلهم هو بصورة مهاجرين ليتجسسوا علينا» فيقولون له والريبة فى عيونهم : « فما الحكمة فى منعنا من الخروج إلى بلاد السلطان ؟ » فيجيبهم وهو يكظم غيظه : « إن الحرب توشك أن تنشب بيننا وبينهم ، فخشينا على رعايانا إذا قامت أن يمسهم الأذى فى بلاد العدو» .

فيقولون له : « فإنا قد حظر علينا أن ننتقل من بلدنا إلى بلد آخر فى مملكتنا » . فيقول لهم : « إنه قد تناهى إلى أولى الأمر أن كثيرا من جواسيس السلطان قد تسللوا إلى بلادنا فهم اليوم بين ظهرانينا ولا نعرفهم ، فإذا لزم أهل كل بلد أو قرية بلدهم أو قريتهم كان ذلك أحرى أن يتعارفوا بينهم فينكروا الغريب إذا طرأ عليهم ويعرفوه عسى أن يكون جاسوسا » . فإذا بعل بمساءلتهم قال لهم غاضبا : « ويلكم أتريدون أن تعرفوا الحكمة فى كل أمر من أوامر الإمام المعصوم ؟ والله لئن بلغ فقيه الدعوة لجاجكم هذا ليأمرن بقطع ألسنتكم » . فيظهرون الاقتناع بكلامه وقلوبهم تنكره .

١٨

وبلغ حمدان ذات يوم أن قريتين فى حدود واسط قد خلعتا طاعته وعادتا إلى سلطان الخليفة ، وأن عامليه عليهما قد قتل أحدهما بأيدى العامة ونجا الآخر بنفسه من بطشهم . ثم بلغه أن كثيرا من الفلاحين المقيمين فى الأطراف قد تسللوا هاربين إلى بلاد الخليفة ، فما اغتم لذلك ما اغتم لرسالة وردته من الحسين القداحى من سلمية يطالبه فيها بأضعاف ما يرسله من جزية الإمام هذا العام ، ويؤكد له ما أمره الإمام به من شن الحرب على المعتضد ، وأنه لا يقبل فى

ذلك عذرا ولا مراجعة، وإلا فإن الذى ولاه قيادة الدعوة لقادر على أن يخلعه ويوليها لغيره .

وكان عبدان قد أخفى عنه هذه الرسالة أياما لا يجرؤ أن يقرأها عليه خشية أن يثير غضبه لما ورد بها من ذكر الحرب ، وهو يعلم أن حمدان لا يزال يتهمه بأنه هو الذى كاتب الحسين بهذا المعنى إذ كان ذلك من رأيه على خلاف رأى ابن عمه . ولكنه لما سمع بانتقاض القريتين على حكم مهيماباذ وتسلل فلاحى الأطراف إلى بلاد السلطان ، رأى الفرصة سانحة لمراجعة حمدان فى رأيه بصدد الحرب ، فأظهر له كتاب نائب الإمام وقال له : « ما بقى لك مجال للتردد بعد ما رأيت الأمور تسوء بنا إلى هذا الحال ، فإن لم تبادر إلى الحرب فعلى مملكتنا العفاء » .

فغضب حمدان غضبا شديدا وقال له : « قد صح عندى اليوم ما ظننته فيك . إنك تأتمر بى مع هؤلاء القداحيين الأوغاد » .

- من لى بما يكشف لك يا ابن عمى أن ما ظننته فى غير صحيح ألبتة؟ .

- فما منافحتك عنهم وإيثارك إياهم علىّ؟ وما تهديدهم بخلعى وتولية غيرى ؟ فمن ذلك الغير إلا أنت ؟ .

- أتحسبنى يا حمدان أرضى أن تخلع بى ؟ والله لئن خلعوك لأخلعن طاعتهم .

فنظر إليه حمدان مليا ثم قال : « ألم يكاتبك الحسين ببعض هذا فى رسالة خاصة ؟ » .

فتلجلج عبدان قليلا ثم قال : « بلى ، فمن أخبرك ؟ » .

- أخبرنى الذى أخبرنى ! فهل ساءك أن علمت ؟ .

- والله ما منعني من إطلاعك عليها إلا خوفي أن ترتاب .
- فقد زدتني بإخفائها ارتيابا .
- لو اطلعت على ما رددت به على رسالته لقلت غير هذا .
- ماذا قلت له في ردك ؟ .
- كشفت لي رسالته أنه يكيد لنا ، ويريد أن يفسد ما بيننا ، فشككت في إخلاصه فكتبت إليه أن يخبرنا عن مقر الإمام المعصوم ويرينا وجهه ، وإلا فإنني وإياك لا نتقيد بأوامره .

فتهلل وجه حمدان وقال : « أوقد كتبت إليه بهذا ؟ » .
- إي والله وسأريك الساعة جوابه على كتابي .
- ما أراني كنت إلا ظالما لك ، فهب لي يا ابن عمي ما كان مني .
- لا تثريب عليك يا حمدان .

ثم أطلعه على جواب الحسين له ، فإذا فيه أن الإمام المعصوم قد أذن لعبدان وحمدان أن يطلعا على سره ، ويريا وجهه ، لما لهما قدم وفضل في الدعوة ، فليشخصا إلى سلمية ليكون لهما هذا الشرف . فقال حمدان: « أخشى أن تكون هذه خدعة من الحسين » .
- قد خطر لي مثل ما خطر لك ، فإن شئت شخصت أنا إليه وبقيت أنت هنا حتى ترى ما يكون من أمري معه .
- ولكني أخشى عليك أيضا منه .
- كلا ، لا خوف علي منه ، إنه إن نوى الغدر فإياك يريد .

١٩

كان عبدان قد هاله نظام أبى البقاء فى منطقة الكوفة ، وأيقن أن مملكة العدل الشامل مقضى عليها إن لم يبادر حمدان بمحاربة الخليفة. وقد يئس من إقناع حمدان بذلك فرجا أن يكون فى مقابلته للإمام المعصوم ، إن تم له ذلك ، ما يرفع عن حمدان الشك فى أمره فيطيعه فيما أمر به . ولذلك لم يتردد فى الشخوص إلى سلمية بعد أن نال موافقة حمدان عليه .

فاستدعى حمدان ذكرويه وأخبره بنية عبدان ، وكلفه أن يرافقه مع جماعة من رجاله الأشداء ، وألا يغفلوا عن حراسته فى سفر أو حضر حتى يعودوا به سالما إلى مهيماباذ . وقد كتموا خبر سفر عبدان عن الناس فلم يعلم به إلا نفر من وجوه القرامطة .

ومر عبدان فى طريقه بصحراء الشام ، فوجد أهلها يعظمون ذكرويه ويهابونه ويأتمرون بأمره لا يشذ منهم عن ذلك أحد ، فسره أن يرى نفوذ القرامطة لا يزال قويا فى هذه الناحية كأنما لم يسمع أهلها بانتشار نظام أبى البقاء وتهديده لسلطان مهيماباذ .

فلما كانوا على أميال من سلمية استقبلهم رسول الحسين ، فقادهم إلى ضيعة لآل القداح هناك فنزلوا واستراحوا ، وأعد لهم الطعام فأكلوا، حتى إذا كان المغرب ظهر لهم الحسين فحياهم ورحب بهم ، ثم اختلى بعبدان فى علية له تطل على روضة غناء فتشقق الحديث بينهما فى شئون الدعوة وذكريات الأيام التى قضاها عبدان فى سلمية فى عهد والد الحسين ، وغير ذلك ! ثم سأله الحسين عن حمدان وسبب تخلفه عن الحضور لرؤية الإمام المعصوم ، فاعتذر له عبدان بأن الحال فى مهيماباذ لا يسمح له بمغادرتها ، بعد ما صار النظام الجديد الذى أجراه المعتضد يتهددها من كل جانب .

فأجابه الحسين والغضب في وجهه : « تلك عاقبة عصيانه لأمر الإمام! » .

ـ أرجو أن يكون فى رؤيتى لوجه الإمام ما يشرح صدر حمدان للعمل برأيه.

ـ أتريد حقا أن ترى وجه الإمام ؟

ـ نعم ، ما قدمت إلا لهذا الغرض .

فضحك الحسين ضَكحة أنكرها عبدان فى نفسه ، ثم قال : « فقد جئت إذن لترى الإمام ؟ »

فقال عبدان : « سبحان الله ! أما دعانا الإمام لذلك فأجبنا ؟ » .

فمضى الحسين فى استضحاكه وهو يقول : « قد جاء فقيه الدعوة من مهيماباذ ليمتع عينيه بشهود وجه الإمام ! »

ـ نعم فأين هو ؟

ـ أغمض عينيك !

فأغمض عبدان عينيه ثم قال له الحسين : « افتحهما » . ففتح عينيه وقال : أين هو ؟ »

ـ عجبا أتقول أين هو وأنت الساعة بين يديه ؟

ـ إنى لا أرى أحدا سواك .

ـ فإنى أنا الإمام !

ـ أنت !

ـ بعد وفاة أبى انتقلت الإمامة إلى .

ـ كان أبوك رحمه الله ـ نائب الإمام لا الإمام .

ـ فمن كان الإمام ؟

ـ رجل مستور من أهل البيت من ولد محمد بن إسماعيل .

ـ فأنا هو .

ـ كلا لست من ولد محمد بن إسماعيل ولا من أهل البيت ، وإنما جدكم عبد الله بن ميمون القداح .

ـ ما تقول في جدى عبد الله بن ميمون القداح ؟ !

ـ ماذا أقول في مؤسس دعوتنا وخادم الإمام ؟

ـ بل كان هو الإمام عينه ، وقد توارثنا الإمامة عنه .

ـ لكنه ما ادعى هذا لنفسه .

ـ كان ذلك تقية منه ، وما كشف عن حقيقته إلا لصفوة أصحابه، وقد ظننتك من الصفوة فكشفت لك أمرى ، فإذا أنت كالدهماء ما تزال مفتونا بالنسب العلوى !

فسكت عبدان قليلا وقد تغير وجهه وجعل يلهث ثم قال : « إن كنت تريد أن تكون الإمام فأى شيء يميزك على غيرك ؟ »

ـ علمى ومعرفتى بالمذهب .

ـ أنا أعلم منك وأفقه !

ـ كان والدى أعلم منك وأفقه وعنه ورثت الإمامة .

ـ نحن في مذهب العدل الشامل لا نورث المال فكيف نورث المواهب والصفات ؟

فصوب إليه القداحي نظرة ملؤها الحقد والقسوة ، وقال بلهجة صارمة : « إنى ما طلبتك لأستجدى الإمامة منك ، فإنى الإمام ولا إمام غيرى ، ولو شئت أن أخلعك وأخلع ابن عمك فتعودا كما كنتما فلاحين حقيرين لفعلت!» .

ـ لقد صدق حمدان إذ قال : إنكم طلاب مال وملك ، وإنما اتخذتم اسم الإمام قناعا تخدعون به الناس ، ولا وجود له .

- إن أردت إماما غيرى فلا وجود له .

- فنحن إذن براء منك .

فضحك الحسين متهانفا : « أبعد ما ملكتم رقاب الناس باسمى تقول لى هذا؟»

- كلا ، ما ملكنا إلا باسم العدل الشامل .

- باسم العدل الشامل ! أمن العدل الشامل أن تسلبوا الفلاح والعامل ثمرة جهدهما لتكنزوا لأنفسكم قناطير الذهب والفضة ؟

- كذبت ! إنا لانكنز لأنفسنا شيئا .

- فأين الأموال التى يجمعها حمدان ؟ أيهربها خارج مملكته فيشترى بها أملاكا وضياعا ؟

- أنتم تفعلون ذلك بالجزية التى تأخذونها كل عام ، فوالله لنقطعنها عنكم .

- أتذكر الجزية المحدودة وتنسى القناطير المقنطرة التى تحت أيديكم؟

- هى محفوظة فى خزانة الدولة لا يمسها حمدان ولا غيره ، إلا فى سبيل مصلحة الجميع .

- بل أنتما أسوة غيركما من زعماء مهيماباذ فى تسريب الذهب إلى أهليكم خارج المملكة .

- كلا ، ما يفعل ذلك منهم أحد .

- ما تقول فى ذكرويه ؟ أليس من خير رجالكم ؟ .

- بلى . ما خطبه ؟

- ما برح يرسل الذهب إلى أبيه وإخوته ، حتى ابتاعوا الضياع الواسعة بأرض البلقاء ، وإن كانوا من قبله لصعاليك .

ـ هـذا بهتـان منـك . إنمـا أردت أن تفـرق بـين قلوبنـا بدسـك ونميمتك .

ـ بل تعرفون ذلك جميعا وإنما يتغاضى بعضكم عن بعض .

فضاق عبدان بحديثه ذرعا ونفد صبره فقال له : « هبنا نفعل ذلك فماذا أنت تريد ؟ »

ـ أريد نصيب الإمام الذى نلتم كل هذا باسمه .

ـ قد خلعنا طاعته فلن يأتيه منا درهم واحد !

ـ لتندمن وشيكا على مقالك .

ـ أتهددنى ؟

ـ بل أنذرك !

فنهض عبدان من مجلسه غاضبا فقال له الحسين : « إلى أين ؟ »

ـ إلى مهيماباذ .

ـ ألا تبيت عندنا الليلة ؟ .

ـ لا والله لا أبيت عند قوم غادرين !

ومشى عبدان جهة الباب فإذا ذكرويه واقف دونـه والسـيف فـى يده .

ـ أنت هنا يا ذكرويه ؟

ـ نعم يا فقيه الدعوة ، هذا أمـر حمـدان قائدنـا ألا أغفـل عنـك .

فبدره الحسين قائلا: « لا تدعه فقيه الدعوة ويلك ! فقد خلعناه »

فقال ذكرويه : « أنا من شيعة حمدان لا طاعة لغيره على » .

ـ قد خلعت حمدان فلا طاعة له عليك ولا على غيرك .

ـ حمدان رئيسنا لا نعرف سواه .

فقال عبدان وقد أشرق وجهه : « بارك الله فيك يا ذكرويـه » .

ثم التفت إلى الحسين وقال : « أمثلك يا قداحى تخلع حمدان ؟ انتظر قليلا تر ما يسوءك منه » .

فقال الحسين له : « بلغ ابن عمك إن وصلت إليه حيا أن غضبى سيحل عليه ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ! »

٢٠

انطلق عبدان مع ذكرويه ورجاله فى غلس الظلام قافلين إلى مهيماباذ. وكان الحديث يدور بينه وبين ذكرويه فى شأن هذا القداحى الذى يدعى أنه الإمام المعصوم ، وكيف أن حمدان كان صادق الحدس فى أمره . فكان ذكرويه يصدقه فى قوله ، ويبالغ فى ذم الحسين وأهل بيته الدجالين الطماعين حتى إذا وصلوا إلى قرية فى بعض الطريق عند الثلث الأخير من الليل قال ذكرويه : « هؤلاء قوم من شعبنا ، فلو نزلنا عندهم نطعم ونستريح حتى يصبح الصباح » . فوافقه عبدان وقال له : « أنت أمير الركب فانزل بنا حيث شئت » .

فتقدم ذكرويه إلى دار كبيرة كأنها حصن من الحصون ، فربطوا جيادهم فى فنائها وهم صامتون لا يتكلمون ، ودخلوا الدار يقدمهم ذكرويه بشمعة فى يده تضىء لهم الطريق ، فإذا الدار خالية ليس فيها أحد . فلما توسطوها أطفأ ذكرويه الشمعة ، فلم يشعر عبدان إلا بالقوم قد شدوا عليه فجروه فى الظلام الدامس وهو يصيح : « ذكرويه ! يا ذكرويه ! » . فلا يجيبه أحد حتى ألقوه فى سرداب مظلم لا يرى فيه شيئا ، وإنما سمع صرير باب قد أغلق عليه وخفق أرجلهم منصرفين عنه ، ثم لم يسمع بعد ذلك شيئا . فأيقن عبدان أن القوم قد غدروا به ، وأن ذكرويه قد تواطأ مع الحسين القداحى ، وألا سبيل إلى الخلاص من أيديهم . واستشعر رهبة من ذلك الظلام،



وخيل إليه أنه سيقضى الدهر فيه . ثم تذكر الصباح فاطمأن قليلا ، ورأى أن يتذرع بالصبر حتى يسفر النهار فيرى ما يكون من أمرهم معه .

وبات برهة يتحسس الجدران فلا يجد فيها منفذا إلا الباب الحديد المغلق . ثم غلبه الجهد فنام حيث انطرح من الأرض . وما راعه عند الضحى إلا أحد الجماعة قد دخل عليه ذلك السجن وهو شاكى السلاح، فما حياه وما سلم عليه وإنما أوصد الباب من خلفه ، ثم جلس على الحصير قريبا منه وفي يده سوط يلعب به ، فجعل عبدان يقول له : « ويلكم ، ما هذا الذى صنعتم بى ؟ أين ذكرويه ؟ » فما أجابه الرجل على شىء من ذلك ، وإنما ضرب الصوت على الحصيرة كأنه يسكته بذلك ، ثم قال له : « العن حمدان . . تبرأ من حمدان ! » .

فعجب عبدان من قوله وأراد أن يسأله : ما دفعهم إلى ذلك ؟ فما استمع له الرجل وإنما ضرب الحصير بالسوط ثانية وأعاد قوله الأول، ثم استمر الرجل فى صنيعه هذا يضرب الحصير ويقول : «العن حمدان . . تبرأ من حمدان » ! وعبدان ذاهل لا يدرى ما يقول والرجل يوالى صنيعه بدون انقطاع حتى فقد عبدان صوابه فغشى عليه . ولما أفاق عند الظهر وجد أمامه رجلا آخر من الجماعة ، قد أخذ يصنع معه مثل ما صنع الأول ، حتى إذا كان المغرب خرج الثانى ودخل ثالث منهم ، فصنع كالأولين وقد أظلم المكان فجىء بشمعة تضيئه ثم جاء الرابع ثم الخامس ثم السادس ثم لم يدر عبدان كم عددهم ، كلهم يصنع ذاك ثم يقوم ويخلفه غيره طوال الليل ، لا يدعون له فرصة لكلمة يقولها أو نعسة ينعسها أو شربة ماء يطلبها ، فما ثم إلا الحصير يضرب والكلمة تقال « العن حمدان ،

تبرأ من حمدان !

فما أصبح الصباح من اليوم التالى حتى انتفض عبدان وجعل يشد شعره كالمجنون وهو يصيح : « ملعون حمدان ! أنا برىء من حمدان! ملعون حمدان ! أنا برىء من حمدان ! »

فكفوا عنه حينئذ وأطعموه وسقوه . وغلبه النعاس فنام ولم يستيقظ إلا العصر فإذا بذكرويه قد دخل عليه ، فأراد عبدان أن يقول له شيئا فما استمع له ذكرويه بل قال له : « أمسك لسانك . أنت هنا تؤمر فتطيع دون توقف أو اعتراض ، إلا فعل بك مثل اليوم الأول . أفهمت يافقيه الدعوة ؟» فلم يقل عبدان شيئا ، وإنما أشار برأسه أن نعم وعلى وجهه دلائل الحيرة والانكسار .

٢١

أما حمدان فقد قلق على ابن عمه لما طال غيابه بسلمية ، ولم يتلق منه رسالة أو يسمع عنه خبرا . فأخذت الهواجس تلعب بخاطره ، وأشفق أن يكون القداحى قد غدر به ، ولكن أين ذكرويه وجماعته ؟ أتراه قد بيتهم جميعا فلم يسمع عنهم أحد؟ ولكنه استبعد هذا الخاطر لعلمه أن جل القبائل الضاربة فى طريقهم إلى سلمية من صحراء الشام تدين لذكرويه ، ولا ريب أنها قد علمت بوجهته مع فقيه الدعوة ، فلو نزل بهما مكروه لرابها طول غيبتهما ، فبحثت عنهما وعن رفقتهما .

فعزم على أن يرسل جماعة من الفرسان ليعلموا له علم عبدان . وإنه لبسبيل إنفاذهم لذلك إذ جاء رسول من عند عبدان فاستقبله فرحا به ، فلما قرئت الرسالة عليه إذا فيها بعد الديباجة :

« أما بعد فقد رأيت وجه الإمام المعصوم حيث كان فى موضع حجابه الأقدس ، فشملنى برضوانه ورعايته ، واصطفانى وأدنانى .

أما أنت يا حمدان فقد لعنك الإمام ، وخلعك من قيادة الدعوة ورياسة مهيماباذ ، وتبرأ منك ومن سوء عملك وعصيانك لأمره الذى هو من أمر الله . وإنى قد وجدته مطلعا على كل ما أسررت وأعلنت ، فقد نعى عليك ضعف إيمانك بوجوده ، وقلة يقينك فى مذهب العدل الشامل ، وتسترك على أختك الكافرة بالإمام ، وإيواءك إياها فى قصر من قصورك ، وهى تسب المذهب وتلعنه كما تشاء ، وتفتن نساء مهيماباذ عن دينهن أما قاصمة الظهر التى استوجبت بها الطرد من رحمته ، والفصل من شيعته ، واللعنة الدائمة إلى يوم الدين ، فهى تقاعدك ألى اليوم عن محاربة دعى بنى العباس حتى فشا أمره وتفاقم على مملكة العدل الشامل خطره ، ففرطت بذلك فى الأمانة التى فى عنقك . وقد ولى ذكرويه السلمانى مكانك فانزل له عن منصبك طائعا قبل أن تنزل عنه راغما . وإنى لألعن من لعنه الإمام وأتبرأ ممن تبرأ منه . وعزيز على أن آتى ؛ ذاك لمكان قرابتك منى ، ولكن الحق أحق أن يتبع . والسلام على من اتبع الهدى »

فطغى على حمدان الذهول ، وملكته الحيرة فانعقد لسانه ، وظل مليا يعض شفتيه ويفرك راحتيه إحداهما على الأخرى ، فأشفق قارئ الرسالة وامتلأ قلبه رعبا وخشية ، وجعلت الرسالة تضطرب فى يده حتى اجتذبها حمدان منه . فقد وقع فى نفسه إذ ذاك أن الرسالة قد تكون مزورة على عبدان . ولكنه لما تأملها لم يبق عنده شك فى أنها بخط عبدان وتوقيعه . . فزادت حيرته ! فصرف القارئ وخلا بنفسه وجعل يتساءل مليا ماذا دفع ابن عمه إلى ذلك. ثم انجابت عنه الحيرة شيئا فشيئا كلما تذكر أمراً من الأمور التى كان عبدان على خلاف معه فيها، كاختلافهما فى حرب المعتضد ، ووجود الإمام ، وإرسال الجزية إليه ، وبقاء عالية فى مهيماباذ ، وغيرها . وتذكر رسالة

الحسين الخاصة وكيف أخفاها عبدان فى أول الأمر عنه ثم رسالته الثانية التى دعاه فيها إلى مشاهدة الإمام جوابا لكتاب عبدان إليه ، فأيقن أن عبدان قد خانه وتواطأ مع القداحى وذكرويه عليه . فتنزى قلبه من الألم لهذه الخيانة من ابن عمه الذى رباه صغيرا وتولاه كبيرا وزامله فى الجهاد لتحقيق العدل الشامل ، وكان يثق به الثقة كلها . ولكنه طوى الألم فىصدره ونهض متجلدا ودعا ابنه الغيث وقال له : « هلم إلى الصيد».

ولما رجع من صيده دعا جلندى الرازى وبعد أن قص عليه ما كان من عبدان قال له : «أما رابك شيء من جهة عبدان قط ؟ » فقال جلندى : « لا والله ما علمت عليه إلا الإخلاص لك » .

– لعلك غفلت عنه لمكانه منى وثقتى به .

– كلا ماغفلت عنه ، وإن لى لعيونا عليه وما إخاله يغدر بك إلا مكرها .

فأمره حمدان أن يرسل من خاصة رجاله من يستقصى خبره .

وقد أدرك حمدان أن ذكرويه لا يلبث أن يثير أتباعه فى صحراء الشام ليغير بهم على مهيماباذ وأن القداحى سيعاونه بالمال والنفوذ ، فخطر له أن يعاجله فيجرد عليه حملة تخضع أولئك الأتباع لسلطانه فيفسد بذلك على القداحى تدبيره ، ولكنه آثر أن يتريث قليلا حتى يستيقن بعد من خيانة عبدان التى يعز عليه أن يصدق بها على توافر الأدلة التى تثبتها .

ولم يغفل فى أثناء ذلك عن تصريف شؤون دولته ، والتيقظ لما يهددها من ناحية الخليفة المعتضد . على أن اهتمامه بهذا الخطر لم يعد شغله الشاغل كما كان من قبل ، إذ صار أهم منه عنده أن يحول دون بلوغ القداحى وتابعيه الخائنين ما يريدون . فشرع يحول كثيرا من الجنود الذين كان أقامهم على الحدود لمواجهة خطر السلطان ،

إلى حيث يرابطون تلقاء صحراء الشام ليكونوا على أهبة لمنازلة خصومه الجدد .

وقد اشتغل ثانية فى نفسه ذلك الميل القديم إلى القتال والنزال بعد ما خمد زمنا لنفوره من حرب المعتضد . فغدا اليوم نزاعا إلى الحرب مع أى خصم كان ، ولو كان المعتضد نفسه . ولكنه إن حاربه يوما فلن يحاربه ليقضى على نظام أبى البقاء العادل اتقاء لخطره أن يعصف بنظام مملكته هو ، كما كان يرمى إلى ذلك من كانوا يحضونه على حرب المعتضد ، بل ليلبى داعية النزال والصيال التى انبعثت فى نفسه من جديد بعد الهمود الطويل .

وأخذ العيون الذين أنفذهم جلندى الرازى لتقصى أخبار عبدان يرجعون واحدا بعد واحد ، فيقصون على حمدان أغرب الأنباء عن عبدان وذكرويه. واتفقت رواياتهم على أنهم شاهدوهما يطوفان بأحياء البادية من أتباع المذهب وغيرهم ، ومعهما براءة من الإمام المعصوم بخلع حمدان ولعن من يواليه ، فكلما نزلا عند قوم منهم قرأ عليهم ذكرويه براءة الإمام ، ثم يقوم عبدان خطيبا فيهم فيذكر مثالب حمدان وكفره بالمذهب وخروجه على طاعة الإمام وتقاعده عن محاربة المعتضد ، ثم يحرضهم على النهوض لمحاربته حتى ينزعوا حكم مملكة العدل الشامل من يده ليليها صاحبهم ذكرويه الرئيس الجديد الذى عينه الإمام المعصوم مكان حمدان المخلوع ، فإنهم إن فعلوا ذلك أنقذوا مملكتهم من الوقوع فى قبضة المعتضد نصير الظلم وحامى سلطان المال ، وإلا فعلى مملكة العدل الشامل العفاء .

وكانت الأحوال فى مملكة حمدان تزداد سوءا كل يوم ، فالقرى الواقعة فى الأطراف تنتقض عليه ، فتطرد عماله أو تفتك بهم ، والفلاحون والعمال وغيرهم يتسللون من أمكنهم فيهربون .

ومن لا يقدرون على ذلك منهم يتململون ويتذمرون . وقد ازداد توانيهم عن أعمالهم وتواكلهم فيها ، فيضربون على ذلك ويجلدون ولكنهم لا يبالون. وعادوا في بعض الدساكر والقرى يقيمون الخمسين الصلاة ليتشاغلوا بها عن العمل المفروض عليهم ويقولون :

« هذه فريضة الإمام المعصوم لا ننقطع عنها لقول أحد » فإذا عوقبوا على ذلك احتشدوا جماعات فساروا في الدروب يهتفون بأعلى صوتهم ويرددون:

نحن الداعون لذى العظمه   من مشرقها حتى العتمه
الأرض لنا لا للظلمه !   والويل هم في الملتحمه !

فلا ينفض احتشادهم حتى يكون منهم ومن رجال الشرطة أو الجنود قتلى وجرحى كثيرون . وقد تعاظمت جرأتهم على ذلك لما انتشر فيهم انتشار النار في الهشيم نبأ خروج عبدان وذكرويه على حمدان ، ولحاقهما بسلمية عند نائب الإمام ، وأن الإمام المعصوم قد خلعه عن القيادة والرياسة وتبرأ منه وممن يواليه .

وقد طربوا لهذا النبا العظيم وبشر بعضهم بعضا بأن له مابعده .

وما فعلوا ذلك شماتة برئيسهم حمدان فإنهم ليحبونه جميعا ويجلونه، وهو أحب إلى نفوسهم وأقرب إلى قلوبهم من عبدان وذكرويه وغيرهما من سائر الزعماء والكبراء ، إذ يعتقدون فيه الإخلاص لخير الرعية ، وتوخي العدل والإنصاف ، وإيثار الرحمة وطيب السريرة ، مع ميل إلى القصد في المعيشة والاعتدال في الغلو المذهبي مما لا يجدونه عند غيره . وما ينسوا من الأشياء لا ينسون عام الجائحة إذ ذهب الزرع وجف الضرع وهلكت الأنعام والدواب كيف اقتصد حمدان في نفقة أهل بيته ، ونعى على الزعماء وذوى المناصب سرفهم وترفهم وألزمهم بالقصد إلزاما . وكيف أنه رأى

عند عبدان ذات ليلة جماعة يشربون ويقصفون وقد قدم لهم الشواء والرقاق ، فغضب حمدان غضبا شديدا وتوعدهم بالعقوبة إن عادوا لمثلها وقال لهم : والله لا أدعكم تأكلون لباب البر ولحم الجداء وتعبون رواقيد الطلاء ، وعامة الناس يسفون لحاء الشجر ويأكلون القطط والكلاب . ويل لكم أين العدل ؟ » . وهم يذكرون أيضا أن حمدان قد عزم يوما على إبطال ليلة الإمام ومنعها ، فيزعمون أنه قصد بذلك توفير أموال الدولة التى تصرف فى الإنفاق على شهوات الزعماء ولهوهم وقصفهم فى تلك الليلة ، لولا أن عبدان وأنداده من وجوه القرامطة اعترضوا جميعا عليه ، فاضطره ذلك إلى العدول عن عزمه .

وإنما ضاقوا بالحال الذى هم فيه ، فأملوا أن يكون فى هذا النبأ ما يؤذن بقرب انفراجه ، ويعجل خلاصهم من سياط المراقبين وحساب المشرفين وبغى الحاكمين والمديرين وإسراف أرباب النفوذ المقربين ومن ذلك الهلع الذى لايفارق قلوبهم من وشاية الواشين وإحصاء المحصين من رجال جلندى الرازى عين العيون ورئيس الزبانية الرهيب .

وإن الأنباء لتتسرب إليهم كل يوم عن ذلك النظام الجديد الذى أجراء الخليفة في بلاده ؛ فأزال البؤس والجوع عن الفقراء والمساكين بما ضمن لهم ولعيالهم علي الدولة من النفقة الكاملة أو تكملتها حتى يكونوا عنها من المستغنين . ورفع به الظلم القديم عن العمال والصناع والفلاحين ، وصان لهم حقوقهم فعاشوا ناعمين آمنين حتى جعل بعضهم يدخرون من فضل كسبهم ، فأصبحوا بفضل ذكائهم واجتهادهم فى استثمار ما ادخروه تجارا رابحين ، ومزارعين ، ومالكين ، وذوى مصانع ناجحين .

فلاجرم على الناس فى مهيماباذ وهم يشعرون بأنهم يعيشون فى عالم سجين ، ويسمعون بنعيم جيرانهم الأقربين ـ أن يستبشروا بكل

ما يجعل يوم خلاصهم مما هم فيه وإن كان في ذلك سقوط رئيسهم العزيز حمدان الأمين .

٢٢

قضى حمدان شهورا وهو يترقب مسير ذكرويه لغزو بلاده ، ويستعد لملاقاته وتبديد جموعه ، حتى بلغه آخر الأمر أنه قد تحرك برجاله وفرسانه من أتباع المذهب وغيرهم من عربان الصحراء في جمع كبير . وكان يظن أن ذكرويه سيشتبك بجمعه الكثيف معه في معركة فاصلة ، فخرج له بجيش قوى على جادة الطريق من الصحراء إلى مهيماباذ حيث بلغه من عيونه أن ذكرويه مقبل بجمعه من ذلك الوجه . فلما توغل بجيشه هناك لم يجد إلا شراذم قليلة من رجال ذكرويه ناوشوه القتال قليلا ثم تفرقوا . فقفل حمدان برجاله إلى مهيماباذ مغمومين قد نهكهم الجهد ، وأضعف همتهم خيبة الأمل في لقاء عدوهم والنيل منه . وكان حمدان عسيا ألا يفوته التيقظ لخطة خصمه وتدبيره ـ فلا يغامر هذه المغامرة قبل أن يستوثق من نجاحها وفائدتها – لولا أن فرط تشوفه إلى القتال قد أنساه كثيرا من حزمه ورأيه .

ولما وصل إلى عاصمته إذا به يعلم أن ذكرويه قد فرق رجاله فهجموا على أطراف المملكة من نواح شتى ، فغنموا منها وقتلوا بعض من قاومهم من أهلها ، ونشروا في سائرهم براءة الإمام فبلبلوا عقائدهم وشطروهم فريقين : فريقا يتعصب لحمدان ، وفريقا يتعصب لذكرويه ، ثم انطلقوا هاربين .

واستمر ذكرويه بعد ذلك يشن الغارات على هذا الأسلوب ، فيوزع رجاله عشرة عشرة ، أو عشرين عشرين ، يأمرهم فيهجمون على هذه الناحية أو تلك ، فينشرون في أهلها الفتنة ، ويصيبون من رجال حمدان ولا يصابون ، ثم يلوذون بالصحراء ويتفرقون . ثم

أخذ بعض أهل البلاد يساعدون هؤلاء المغيرين ويتجسسون لهم ، بل راح بعضهم فانضموا إلى عصابات ذكرويه طمعا فى المال والغنيمة .

وبلغ ذلك حمدان فلم يعجب كثيرا لوقوعه ، إذ أدرك أنهم لا يفعلون ذلك لأنهم يحبون ذكرويه ويؤثرونه عليه ، بل لأنهم يريدون الخلاص من الضيق الذى هم فيه بأى سبيل وعلى أى وجه . وقد علم كذلك أن كثيرا من جنوده قد بدأت تحيك فيهم براءة الإمام التى ينشرها ذكرويه جهده ، فما جاهروا بعصيان حمدان . . ولكنهم فقدوا النية فى قتال ذكرويه . أما طائفة دعاة المذهب فقد مالت قلوبهم جميعا عن حمدان وتعصبوا لعميدهم فقيه الدعوة عبدان الذى تبرأ منه كما تبرأ منه الإمام. وكان عدد هؤلاء كبيرا ، فصاروا يبثون سرا فى كل ناحية وجوب تأييد ذكرويه لأن الإمام قد ولاه القيادة مكان حمدان ، وقد كانوا يحقدون على حمدان من قبل ويتهمونه ببغضهم وتحقير شأنهم ، والمعارضة فى زيادة أرزاقهم ، والاستخفاف بعقائد مذهبهم ، ويقولون: لولا عبدان لذقنا منه الهوان » .

كل هذا دعا حمدان إلى التفكير فى أمره وفى مصير هذه المملكة التى يحكمها ، فجعل يحاور نفسه ويناقشها فى موقفه من الخليفة العباسي وموقفه من القداحى وأتباعه ، ويستعرض الأحوال التى دفعته إلى الخروج على حكم السلطان وتأسيس مملكة مهيماباذ على أساس العدل الشامل ، ثم ما انتهت إليه الأمور بعد ذلك من قيام نظام أبى البقاء العادل فى بلاد الخليفة ـ فسعد أهلها من حيث شقى أهل مملكته وتذمروا من نظامه ــ وانكشاف أمر هؤلاء القداحيين الدجالين ، وفساد مذهبهم ، وسوء نيتهم ، واختلافهم معه ، وتحريضهم رجاله عليه . فهاهم أولاء اليوم يحاربونه بسلاح هذا المذهب الفاسد الذى لم تطمئن إليه نفسه قط ، وإنما جارى عبدان فيه حرصا على النجاح فى تحقيق العدل الذى يصبو إليه .

فانتهى من هذا التفكير إلى الاقتناع بأنه كان قد أراد بالناس الخير فانقلب إلى شر ، وأن عليه اليوم أن يحول بكل سبيل دون وقوع أهل مملكته في براثن هؤلاء القداحيين وأتباعهم ، وأن ينقذهم من شر الافتتان بسئ مذهبهم أو شر التعرض لغارتهم وعدوانهم . وقد أيقن أن ذكرويه إن قدر له النجاح فسينهض بهم لمحاربة المعتضد فيركب بهم الصعب ويحملهم المشقة والجهد ، ويذيقهم عذابا فوق العذاب .

فهم أول الأمر بأن يعلن التسليم إلى سلطان الخليفة والرجوع إلى طاعته ، ولكنه خشى ألا يوافقه رجاله على هذه الخطة فيميلوا عليه ميلة واحدة مع ذكرويه ، فلم يبق أمامه إلا أن يترك للناس اختيار ما يصيرون إليه بأنفسهم ؛ فما لبث أن أمر بفتح الحدود وأعلن فى الناس جميعا أن من شاء منهم البقاء فى بلاده فليفعل ، ومن شاء اللحاق ببلاد الخليفة فليفعل ، وله أن يحمل معه ما يشاء من المتاع الذى فى يده . فازدحمت حدود البلاد بألوف المهاجرين من مملكة العدل الشامل ، وخشى حمدان أن يصيب هؤلاء مكروه فرتب لهم رجالا يحرسونهم فى طريقهم حتى يوصلوهم إلى مأمنهم .

ثم فاجأ الناس بعد ذلك بإعلان براءته من دين الإمام الكاذب ومذهبه القائم على التضليل والإلحاد والإباحة ، وتوبته إلى الله من كل ذلك ورجوعه إلى الدين الحنيف . فهاج دعاة المذهب وماجوا ، فأمر بالقبض عليهم واستتابتهم فمن تاب تركوه ومن أبى قتلوه ، وأفلت بعضهم فهربوا ولحقوا بذكرويه .

ولما استحر القتل فى هؤلاء بأيدى زبانية جلندى الرازى وقع ذلك من نفوس رجال الجيش حتى تناجى بعضهم بالخروج على حمدان ، فجمع قوادهم ورؤساءهم فقال لهم : قد بلغنى أن بعضكم يريدون الخروج على وإننى أدعوكم ألا تفعلوا ، فطالما أحسنت إليكم

وضاعفت لكم أرزاقكم وفضلتكم على غيركم . فعزيز على أن تخونوني فتخونوا أنفسكم وشرفكم » .

فقالوا له : فماذا يكون مصيرنا إن بقينا على هذا الحال معك ؟ »

فقال لهم : « قد تعلمون مكانكم عندى ، فأنا أدعوكم إلى خير من ذلكم ، هذا خليفة المسلمين المعتضد قد أجرى فى بلاده العدل ، وقد جعل من سياسته أن يقبل من يلجأ إليه من رجالنا وأهل مملكتنا فيكرمهم ويحتفى بهم، وأنتم الوجوه والرؤساء فجدير به أن يعرف لكم أقداركم إن لحقتم به . وقد جعلتكم فى حل منى أن تبرأوا منى عنده وتقولوا عنى ماتشاءون » .

وكانوا يحبون حمدان ويعزونه من صميم قلوبهم ، فحين سمعوا منه هذا الكلام جاشت عواطف الرقة فى صدورهم ففاضت عيونهم بالدمع، وجعلوا يقولون له : سامحنا ياحمدان واعف عنا . أما إنك لأنبل الرجال وأكرمهم . والله لا ندع ذكرويه السلمانى يظهر بنا عليك».

فشكرهم حمدان على إخلاصهم ومودتهم ثم قال لهم : « هأنذا قد جعلتكم أحرارا تختارون لأنفسكم ماشئتم ، فمن أراد اللحاق بالخليفة فليفعل غير مقلى منى ولا مودع ؛ ومن شاء البقاء معى حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فليفعل وله على أن أحيا معه وأموت معه . بيد أنى أوثر لكم الأولى فهى خير لكم ولأهليكم ، فلا يصدنكم عنها حياؤكم منى . وبعد، فقد نصحتكم وأبلغت فانصرفوا وأبلغوا هذا لرجالكم جميعا فأنتم سواسية » .

فانصرفوا من عنده يتحدثون بفضله ويعجبون بصراحته وإيثاره .

٢٣

كان حمدان قد أفرج عن عالية منذ بلغته خيانة عبدان فصارت تستقبل في قصرها ما تشاء من نساء مهيماباذ فتعظهن وتنصحهن بالرجوع إلى دينهن كما كانت تفعل من قبل . وكان حمدان ربما جلس إليها يستمع منها إلى ما يتيسر من القرآن وهى تتلوه من مصحفها . وكان يرى ابنه الغيث يؤم عمته وزوجته بالصلاة فينظر إليهم واجما ولا يقول شيئا ، وكانت عالية تحضه على التوبة والرجوع إلى دين أبيه وجده وتدعوه إلى القيام معهم للصلاة فيقول لها : دعيني ياعالية الآن ، حتى يشرح الله صدرى لما يريد » .

أما راجية وشهر فقد غمهما ما كان من عبدان وساءهم انشقاقه عن حمدان وإن عذرتاه فى سريرتهما ، لما كان يلقى من عنت حمدان واعتراضه الدائم عليه فى شعائر المذهب وحق الإمام وقد حارتا فى موقفهما من هذين لا تدريان إلى أيهما تميلان .

ثم رأتا أن تتربصا حتى ينجلى الحال بينهما . وكأن اتفاق هاتين فى هذا الخطب قد قرب ما بينهما وأزال ماكان فى نفوسهما من قواقع الغيرة والضغن فأصبحتا متحابتين متعاونتين .

وقد أشفقتا على المذهب من أول ما بلغهما خبر الانشقاق وتوقعتا أن يجور حمدان على كثير من شعائره . ولم يلبث أن صح ماتوقعتا ، إذ أفرج حمدان عن عالية وأباح لها أن تفتن نساء العاصمة عن مذهبهن كما تشاء، ثم أبطل ليلة الإمام فكان ذلك عندهما الطامة الكبرى . وقد اجتهدت شهر أن تصرفه عن ذلك بأسلوبها التى تتسلط به عليه ، فلم تقدر ، فأيقنت أن سلطانها عليه قد زال أو كاد .

وترددت راجية حينا ثم تشجعت فكلمته فى هذا الأمر ، فنهرها ووبخها فلم تحاول ذلك معه مرة أخرى . أما أمر عالية وابنتها فما

كلمتاه فيه ألبتة ، لعلمهما أنه لا يطيق أن يسمع فى أخته هـذه كلاما ، فلزمتا السكوت على مضض .

على أن « شهرا » استطاعت بلباقتها أن تخفى شعورها عن حمدان فما أنكر منها اختلافا فى معاملتها له عما كان من قبل ، فاستمر زمنا يحبها ويدللها ويقضى لها ماتريد كعادته معها ، إلى أن رآها تكثر اللوم عليه فيما يخرج به على سنن المذهب ، فأخذ ينفر منها شيئا فشيئا كلما أكثر التردد على قصر أخته الكبرى ، حتى هجر شهرا فى النهاية فتركت قصره وسكنت مع راجية . أما راجية فلم تستطع من أول الأمر كتمان شعورها فظهر لحمدان منها النفور ، فقابله بنفور مثله .

فلما أعلن حمدان براءته من المذهب ورجوعه إلى الدين الحنيف سرت عالية سرورا عظيما ، فانطلقت إلى قصره لِتهنئه فوجدته قائما يصلى بخشوع ، فما ملكت دمعها من الفرح ، وصعقت راجية ونزيلتها فطفقتا تأتمران وتتشاوران .

فكان من رأى شهر أن تهربا من مهيماباذ وتلحقا بعبدان .

فتوقفت راجية فى أول الأمر إذ تذكرت ما بين صاحبتها وبين زوجها من الود فشكت فى نيتها ، وعز عليها أن تساعدها على بلوغ مرامها من حيث لا تفيد هى شيئا لأنها تنفر من زوجها عبدان ولا تريد أن تراه، ولكنها مع ذلك تأبى أن تنافسها شهر فيه .

وظلت شهر تلح عليها فى الفرار وتؤيدها فى ذلك الفاختة ، فتمتنع راجية ، إلى أن قبض حمدان على الدعاة فاستتابهم وقتل من ثبت على المذهب منهم . فقالت شهر لراجية : « إن أبيت إلا البقاء تركناك وهربنا أنا والفاختة » .

ووافقتها الفاختة على رأيها وعزمت على عمتها أن تفعل . فترددت راجية قليلا ، ثم أومض في ذهنها ذكرويه فلان عصيها فقالت لهما : إني ماضية معكما حيث تريدان » .

وما هي إلا أيام حتى وصل إلى علم حمدان فرار النسوة الثلاث بمعاونة أحد المتشيعين لذكرويه، فلم يظهر عليهن أى أسف بين من حضره من رجاله ، ولكنه لما خلا بنفسه تنهد وقال : « أواه ما أشقاني بأهلى ! »

وقد دعاه فرار أخته الصغرى وابنته إلى التفكير في مصير عالية والغيث ومهجورة وهم بقية أهله ، وكلهم عزيز عليه لا يطيق أن يمس أحدا منهم مكروه . وتعجب من نفسه كيف نسي حتى اليوم أن يفكر في مصيرهم وقد رأى الناس يهجرون البلاد لا يلوون على شئ ، ورأى جنوده ورؤساءهم يودعونه كل يوم ، والعبرة في عيونهم ، ليلحقوا بالخليفة . واستحيا بعضهم من عينه أن تراهم وهم يتركونه فارتحلوا دون أن يودعوه .

فتردد طويلا فيما يصنع بهؤلاء الثلاثة الأعزاء ، ثم قر عزمه على ترحيلهم إلى الخليفة كأنهم لاجئون إليه متبرئون من حمدان وشيعته ومذهبه ، وهولا يشك أن الخليفة سيكرم مثواهم ويهيئ الخير لهم . ولما أخبرهم بعزمه وفاوضهم في ذلك بكى الثلاثة واستعبروا وقالوا قولا واحدا : دعنا نبق معك هنا . لا نستطيع أن نخليك وحدك » . فقال لهم: « كلا لا سبيل إلى بقائكم في هذه الدار ، فإني أخشى أن تقعوا في أيدى القوم الفاسقين ! » فقالت عالية والدموع تنهمر من عينيها : «فارحل بنا إذن إلى جهة نائية لا يعرفنا فيها أحد » . فأجابها حمدان بلهجة صارمة : « كلا يا عالية ، والله الذى هداني بعد الضلالة لا أدع مهيماباذ تسقط في أيديهم فيشنون الحرب منها على خليفة المسلمين وفيّ نفس يتردد».

ـ فهل تنوى أن تبقى فيها حتى تموت ؟ .

ـ الموت والحياة في يد الله ياعالية ، ولكني سأظل فيها ولا أبرحها حتى يرتحل أهلها جميعا فلا يستعبدهم أولئك الملحدون .

ـ هلا سلمتها اليوم إلى الخليفة فيحميهم جنوده ويشملك بعفوه !.

ـ وددت يا أختاه لو كان ذلك في وسعى ! .

ـ هذا يسير عليك يا أخي ، فما يمنعك ؟ .

فتنهد حمدان وقال : « يمنعني من ذلك يا أختاه نفسي التي تأبى أن تستعطف أحدا غير الله عز وجل » .

* * *

وشعر حمدان ـ على شدة التياعه لفراق هؤلاء الأعزاء واستيحاشه بعدهم ـ كأنما كان يحمل عبئا ثقيلا قبل سفرهم فخف بعده عن ظهره . إذ اطمأن اليوم على تلك الفلذ الثلاث من كبده ، فما عاد يخشى عليها من ذل الحياة وسوء المصير .

واستوحش من السكنى في القصر وحده ، فأسكن عنده نفرا من صفوة رجاله يسمرون معه ويؤنسون وحدته .

واستمر حمدان يدبر شؤون مملكته التي تتناقص أطرافها ويقل سكانها يوما فيوما ، وهو يعتمد في ذلك على رجاله الذين بقوا معه وأبوا أن يتخلوا عنه بعد ما أذن لهم في ذلك ، وعلى جلاوزة جلندى الرازى وزبانيته الذين بقوا جميعا ولم يخطر ببال أحد منهم أن يتخلى عن جلندى أو عن حمدان .

وكان يفرح كلما رأى أن ناحية من بلاده قد ترحل أهلها واحتملوا متاعهم فلا يجد المغيرون من عصابات ذكرويه ما يغيرون عليه . وأمر رجاله فأخذوا يحرضون من بقى من السكان في القرى القريبة من العاصمة أن يعجلوا بالرجيل من ديارهم إلى النواحي التي

قد أظلها سلطان الخليفة ، فعاد إليها أهلها بعد ما ارتحلوا عنها من قبل .

وذلك أن المعتضد لما رأى حمدان قد فتح الحدود ، وأذن للناس في مملكته بالهجرة منها فرأى ألوف المهاجرين من الرجال والنساء والأطفال يتدفقون على بلاده — وكان قد قرر ذلك ألا يحارب القرامطة في بلادهم – بدا له فأمر جنوده المرابطين على الحدود بأن يحتلوا كل بلد يجلو عنه القرامطة دون أن يشتبكوا معهم في حرب أو قتال ، فما لبثت تلك النواحي التي ترحل أهلها عنها من مملكة حمدان أن جاء جنود الخليفة إليها فعمرت ثانية بسكانها .

وهكذا جعلت مملكة حمدان يضيق اتساعها من أطرافها كلما امتد إليها سلطان الخليفة ، فكان حمدان يفرح لذلك .

وأخذت هجمات ذكرويه تقترب من عاصمة حمدان شيئا فشيئا حتى لم يعد أمامه غيرها وغير القرى التي في ضواحيها وأرباضها ، وكان معظم سكان العاصمة قد ارتحلوا عنها فلم يبق فيها إلا حمدان ورجاله يصدون الغارات ، ويدفعون العصابات ، ويحمون من بقي بعد من السكان ريثما يتمكنون من الرحيل .

وأدرك حمدان يوما أنه قد أدى الأمانة التي في عنقه ، وأن رجال ذكرويه لن يجدوا في مهيماباذ ما يستطيعون أن يثبوا به على الخليفة، وقصارى أمرهم إن هم دخلوها أن يقيموا فيها أياما معدودة ينهبون ويسلبون فيها ما يجدون مما خلفه أهلها ، ثم يهربون إلى الصحراء فرارا من جند السلطان .

فجمع من بقي من رجاله فقال لهم : قد قضيتم لي حق الوفاء والأخوة فأنتم اليوم في حل مني ، فالحقوا بخليفة المسلمين ولأمض أنا لطيتي ، ولترعكم عين الله ! » .

ولما ساد الظلام تفرقـوا وارتحلوا ولم يبـق مـع حمـدان إلا جلنـدى الرازى.

قال جلندى لحمدان وهما يسرجان جواديهما فى مربد القصـر : «إلى أين نمضى يا حمدان ؟ » .

فأجابه حمدان بصوت حزين : « إلى حيث لا أدرى يا صاح ! »

ـ هل لى أن أقترح عليك ؟ .

ـ افعل ياجلندى فإنك لذو رأى .

فسكت جلندى قليلا كأنه يهاب أن يقول .

ـ ماذا بك ؟ قل .

ـ ولى الأمان من غضبك ؟ .

ـ كيف أغضب عليك وأنت صفيى الوحيد ؟ .

ـ فهلم بنا إلى الرى نعش هناك فى خفض ونعيم .

ـ ويلك أين منا الرى ؟ هلا اقترحت بلدا أقرب ؟ .

ـ فإن فيها أهلى وعشيرتى .

ـ أأردتنا أن ننزل بها كلا على أهلك المعدمين ؟ .

ـ إنهم ليسوا اليـوم معدمـين فقـد ملكـوا الضيـا ع والقصـور مـن نعمتك .

ـ من نعمتى ؟ .

ـ نعم ، فقد كنت أبعث إليهم الذهب والورق من فضـل نعمتـك على.

ـ ويلك أوقد فعلتها ؟ .

ـ حنانيك يا حمدان ، فقد جعلت لى الأمان من غضبك .

فزفر حمدان زفرة الغيظ والغضب وقال له : اخسـأ ياخـائن ! أفـى هذا تأمن غضبـى ؟ » . فـارتعد جلنـدى واعتمـد بيديـه علـى سـرج

الجواد ليخفى به ارتعاشهما ، ثم قال بصوت مرتجف : إنـى مافعلتها وحدى ياحمدان فقد فعلها كثيرون ».

ــ من هم ويلك ؟ .

ــ إسحق السوزانى ، وعكرمة البالى ، وعلى بن يعقوب القمر ... و...

ــ ومن بعد ؟ .

ــ و . . . . ذكرويه .

ــ ذكرويه الخائن ! إذن فقد كنتم جميعا خونة ! اغرب عن وجهى!.

ــ اعف عنى ياحمدان .

ــ لا سلطان لى عليك اليوم ولا على أحد غيرك . فلا أملك العقوبة ولا العفو .

ــ بل ما زلت سيدى ورئيسى ، وأنا عبدك وخادمك ، فاعف عنى .

ــ هيهات ! قد انتهى كل شئ . فاغرب عن وجهى .

ــ فأين تذهب يا حمدان ؟ .

ــ لا شأن لك بى فامض عنى . امض إلى الرى فاستمتع فيها بما سرقته من حقوق العمال والفلاحين . امض لعنة الله عليك !

ومضى جلندى يسير به جواده هونا حتى اختفى عن عين حمدان . فوثب حمدان على جواده وهو يقول : « حتى أنت يا جلندى ! » ثم همز فانطلق به قليلا صوب الشرق ، ولكنه جذب عنانه فدار به ووقف لحظة ينظر إلى القصر وقال : أين السبيل يا مهيماباذ ؟ »

وما أتم كلمته هذه حتى همز الجواد كرة أخرى فانطلق به يعدو صوب الغرب ، فقطع دروب المدينة الخالية وخرج من بابها الغربى ، فانحدر من السفح حتى إذا كان فى منتصفه شعر بفارس يعدو خلفه فظنه فى أول الأمر جلندى قد جاء يتبعه ، فأحضر جواده ملء عنانه

ليفوت جلندى فلا يدركه . فلما بلغ السهل زاد فى سرعة جريه فمضى كالريح يطوى الأرض طيا وقد ظن أنه قد فات الفارس ، فإذا الفارس يطلع له من جهة يمينه فأيقن أنه عدو يطلبه . وتعجب من سرعة جريه كيف أمكنه أن يلحقه وعهده بنفسه أنه قلما يسبقه فارس . فضاعف جريه لعله يعجز عن اللحاق به فإذا هو قد صار قريبا منه . فلما رأى ذلك استعد لملاقاته ، فعطف عنان الجواد ليستقبله فإذا هو وقف أمامه على قيد رمح .

قال له حمدان : « من تكون ؟ » .

ــ لو عرفت اسمى هبتنى ، ولكن دعنا نتبارز ! .

ــ دعنى فإنى فى شغل عنك .

ــ كلا والله لا أدعك .

ــ ثكلتك أمك ! لا تدعها تبكى شبابك إذ تبارز رجلا فى الستين لا يبالى أن يحيا أو يموت .

ــ ويلك إنى أسن منك فقد جزت السبعين .

فظنه حمدان يسخر ، وكان قد ضاق بمطاولته ، فحمل عليه بسيفه وهو يقول : « فدع حفيدتك تبكيك ! » .

فإذا السيف قد سقط من يد حمدان ، وإذا الفارس قد وثب عليه فاعتنقه على جواده وضمه ضمة شديدة ، فدهش حمدان وقال له : « بالله من أنت ؟ » .

ــ أما عرفتنى بعد ؟ .

ــ لا والله ولا رأيتك .

ــ أجل إنك لم ترنى ولكنك تعرفنى ! .

ــ من ؟ .

ــ شيخك القديم أيها العيار الدورى ! .

ــ سلام الشواف !

ـ نعم ، أنا هو قد جئت لأهديك السبيل .

ـ لكنك . . . . .

ـ لا لا ما قتلت ، وإنما برحت ناحيتكم إلى ناحية أخرى .

ورجع الشيخ إلى جواده فتضاءل حمدان أمامه ، ولكنه لم يشعر في نفسه بغضاضة من ذلك واطمأن بصحبته فزال عنه شعور الهارب المطلوب ، فبقي واقفا حتى نبهه الشيخ إلى وجوب السير فسارا هونا متجاورين ، والشيخ يقص عليه كيف كان يتتبع أخبار حمدان منذ خرج على السلطان وأسس مملكة مهيماباذ إلى أن ضعف أمره فيها ، فجاء هو في اللحظة الحرجة ليأخذ بيد تابعه القديم . وبقيا سائرين كذلك ، وحمدان مصغ إلى أحاديث الشيخ لا يقضي منها العجب ، حتى لاحت لهما معالم قرية الدور فتذكر حمدان حاله ، فأراد أن يسأل صاحبه إلى أين يمضي به لولا أن الذكرى جاشت في نفسه لما رأى مسقط رأسه . فوقفا ينظران إلى القرية فما لبث أن استعبر حمدان ، إذ انتفضت ذكريات تسع وعشرين سنة حافلة بالخطوب والأحداث فجعلت تمر بذهنه كأنها موكب عظيم الطول والعرض .

وأدرك الشيخ مابه فتركه قليلا يقضي لبانته من الذكرى ، حتى إذا انبهه إلى المسير قال له حمدان : « إلى أين ؟ » .

ـ إلى بغداد .

فريع حمدان وخطر له أن الشيخ ربما يريد أن يسلمه إلى المعتضد ، ولكنه طرد هذا الخاطر من نفسه إذ ذكر أن آداب العيارة لا تأذن بمثل هذا الغدر ، فقال له : « ماذا نصنع في بغداد ؟ »

ـ ألا تذكر صاحبيك بهلول وعبد الرؤوف ؟

ـ بلى ، أهما حيان يرزقان ؟

ـ نعم ، هما هناك وستنزل عند عبد الرؤوف فلا يعرفك أحد .
فتردد حمدان قليلا ، ثم تذكر أن عالية والغيث هناك ، وأنه قد يتاح له أن يراهما ، فقال : هلم إذن فإنى والله لفى شوق إليهما » .

ـ وسترى أبا البقاء هناك إن شئت .

ـ أبا البقاء البغدادى !

ـ نعم، فإنه يزور عبد الرؤوف أحيانا ، أفلا تحب أن تراه ؟ .

ـ بلى والله لوددت لو رأيته فقبلت ما بين عينيه . ولكن بأى رجه أقابله ؟

ـ إنه يحبك يا حمدان ويعجب بك .

ـ يحبنى !

ـ لا تعجب فلولا أنت لما كان له شأن ، ولولا هو لما سقطت ياحمدان، فهل تجد عليه أنه أسقطك ؟

ـ كلا والله إنى لأحبه فى نفسى . ولئن أسقطنى لقد رفع منار العدل!

ـ أجل ، هذه سنة الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

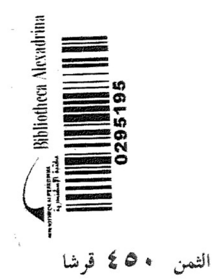
ومضى الصديقان القديمان فى طريقهما حتى حجبهما الظلام !

« تمت »

رقم الإيداع ٣٢٨١ / ٨٥

الترقيم الدولى ٩٧٧/١١/٠١٥٠/١

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه